BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الجمال الأعزل

تأليف
جوليان كارون

ترجمة
حسين محمود

لا يوجد سبيل آخر يوصل إلى الحقيقة إلا عبر الحرية. فالتاريخ هو فضاء للحوار في إطار من الحرية؛ وهذا لا يعني أنه فضاء فارغ، أو صحراء قاحلة قوامها أطروحات للحياة؛ لأننا لا نعيش في اللاشيء. لا يمكن لأحد أن ينهض على قدميه، وأن يقيم علاقة بنَّاءة مع الواقع؛ دون أن يكون لديه شيء ما يستحق العيش من أجله.

Draft

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الجمال الأعزل

تأليف
جوليان كارون

ترجمة
حسين محمود

© مكتبة الإسكندرية، ٢٠١٨.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذا الكتاب، كله أو جزء منه، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية. وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذا الكتاب، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

الجمال الأعزل

المحتويـــات

تمهيد لخافيير برادیس...ك

الجزء الأول

السياق والتحديات

(١) البداية الجديدة، هل هي ممكنة؟ ٥

ماذا على المحك؟.. ٥
قلب الإنسان لا يستسلم.. ١٢
الموضوع هو دائمًا الإنسان واكتماله ١٦
نحو تعميق طبيعة الشخص ٢٢
الآخر نعمة ٢٥

(٢) الحقيقة والحرية: مثال نموذجي ٣٣

البراهين والتاريخ ٣٣
مشكلة الحرية ٤١

(٣) في انهيار البراهين، جيل لإنسان.. ٥٧

تصور مختلف للواقع... ٥٧
انخفاض في القدرة على النظر ٦٢
جاء المسيح لإيقاظ قدرتنا على معرفة الحقيقة.......................... ٦٤

اكتساب الوعي بطبيعة الأنا ٦٨
«لا يلد أحد، إذا لم يتم توليده»........................ ٧٠
مبادرات إنسانية جديدة تثير اهتمامًا........................ ٧٢
(٤) تحدي الحوار الحقيقي بعد هجمات باريس........................ ٧٥

الجزء الثاني

حدث للنهضة

(٥) المسيحية في مواجهة تحديات الحاضر........................ ٨١
الرغبة التأسيسية لقلبنا........................ ٨٦
حدث غير متوقع........................ ٩١
معاصرة السيد المسيح........................ ١٠٠
طريقة الوجود المسيحي في مجتمع تعددي: الشهادة........................ ١٠٨
(٦) الحس الديني، اختبار الإيمان........................ ١١٣
يشرح المسيح الحس الديني........................ ١٢١
يشرح المسيح الحس الديني........................ ١٢٥
المسيح ينقذ الحس الديني........................ ١٢٨
(٧) «السر الخالد لكينونتنا»........................ ١٣٥
ارتباك الأنا........................ ١٣٥
«السر الخالد لكينونتنا»........................ ١٤١
الحنين لمخاطب بأنت........................ ١٥١
(٨) توسيع العقل........................ ١٥٥
ناتج المسألة........................ ١٥٥
القيمة الثقافية للصداقة........................ ١٥٧
أسبقية الحقائق........................ ١٥٩

طبيعة العقل ١٦٣
تعليم التفكير كمهمة للجامعة ١٦٩

(٩) الحرية هي أعظم النعم التي أنعمت بها السماء على البشر............ ١٧٩

التقليص الحديث: الحرية باعتبارها غيابًا للروابط........................ ١٨١
ما هي الحرية؟ ١٨٦
الشعور بالحرية: ظاهرة الإشباع ١٨٦
الحرية هي قدرة على الإشباع التام ١٨٧
لانهائية الرغبة.. ١٨٧
مسار الحرية ١٨٩
العلاقة مع السر الأعظم، أساس حرية الإنسان ١٩٣
الرفيق الذي يجعل الحرية ممكنة تاريخيًّا............................... ١٩٩
ضرورة أن يكون معاصرا.. ٢٠٣

الجزء الثالث

الطوارئ التعليمية

(١٠) المدخل إلى الواقع الكلي ٢١٣

فمن أين نبدأ؟... ٢١٥
استعادة الارتباط بالواقع ٢١٨
الحاجة لشاهد.. ٢٢١

(١١) «النقطة الملتهبة»...٢٢٥

إساءة فهم الرغبة في الاعتراض من جانب الأبناء ٢٢٦
تقليص الأنا إلى عوامل سابقة عليها ٢٣٠
اقتراح حي ٢٣٦
دعوة للحرية.. ٢٤٠

(١٢) التواصل مع النفس ٢٤٣

التحدي الحالي.. ٢٤٣
كيف يمكن أن يحدث ٢٥١
بداية جديدة.. ٢٥٤

الجزء الرابع

بطل جديد للرواية على الساحة العالمية

(١٣) «شعاع إلهي لفكري قد ظهر، جمالك يا سيدتي»................ ٢٦٩

استعادة الذات.. ٢٧٠
الزواج والعذرية. امتلاك مع انفصال داخلي........................ ٢٧٨
في أفق حب أكبر.. ٢٨١

(١٤) مع جرأة الواقعية.. ٢٨٥

الأزمة والشخص ٢٨٥
الأصل والعمل ٢٨٩
الانتماء والمسئولية.. ٢٩٢
خطر الشخصنة ٢٩٤

(١٥) الأزمة، التحدي من أجل التغيير ٢٩٧

«رأى الله ذلك أنه حسن» ٢٩٧
عمل العقل.. ٣٠١
خطوات الصحوة وعواملها ٣٠٥

(١٦) حتى في السياسة، الآخر هو الخير ٣١١

الخلاصة.. ٣١٥

كيف يولد الحضور؟ ٣١٧
ماذا نفعل لكي نعيش؟ ٣١٨

الحدث الذي ينتظره كل إنسان دون وعي ٣٢٣
بداية معرفة جديدة ٣٢٥
ماذا نفعل في هذه الدنيا؟ ٣٢٨
الحضور الأصلي ٣٢٩
حقيقة نغرق فيها ٣٣٢
هذا الذي ينقذ الإنسان ٣٣٦
سعادة متولدة ٣٤١
المصادر ٣٤٣

تمهيد

خافيير براديس
رئيس جامعة سان داماسو بمدريد

دنيا العولمة

أتيحت لي مؤخرًا فرصة السفر إلى أنجولا لأسباب تتعلق بعملي في الجامعة. استغل ضيوفي بعضًا من وقت الراحة لكي يعرفوني ببعض الأعمال التربوية والتعليمية في منطقة تعرف باسم باريوس، وهي ضواحٍ مقفرة ومغبرة من مدينة بنجويلا.

وتثير كل فرصة تتاح لأوروبي مثلي للسفر إلى إفريقيا أو أمريكا اللاتينية، تثير زخمًا من الأحاسيس المختلفة. ومما لا شك فيه أن شيئًا من الحنين يطفو أمام نضارة شكل من أشكال الحياة يتسم بالبساطة، الخالية من أي حذلقة تفرضها الرفاهية في مجتمعاتنا. ويضاف إلى الحنين حسد صحي على بساطة الدين المتجذر في الحياة اليومية، والقادر على تحمل

المشقة والمعاناة من الحرمان بأشكاله الكثيرة، والمختلف عن الدين المعذب والإشكالي الذي نعرفه معرفة جيدة. فتدرك في الناس، وخاصة في الأطفال، صدى بهجة يصعب علينا إدراكها في مجتمعنا الرغيد، كما يقول أوجوستو ديل نوتشه.

من ناحية أخرى، فإن عدم استقرار هذه الحياة يثير بنفس القوة شعورًا بالظلم. فلا يمكن إنكار أن هذه الأشكال المجتمعية المعرضة للتحولات العميقة والسريعة قد تضيع أو تزيد فقرًا، بدون موارد إنسانية أو ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية. حينئذ تبدو صلابة وكثافة الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في أوروبا - رغم ما تعانيه من تمزق - هي قوتها المتفردة في التاريخ البشري. وبالقياس، قد يتعرض الدين النقي المؤثر لهؤلاء الناس لكثير من التيارات المعادية للإنسانية التي تمارس الكثير من النفوذ في الغرب ومن الغرب، والتي أصبحت آثارها واضحة للعيان في مجتمعاتهم.

هذه التناقضات التي تصدمنا عندما نخرج من أوروبا تستدعي شخصيات من المفكرين المرموقين الذين توصلوا إلى استنتاج مفاده أن ثقافتنا قد ضلت الطريق ولم تعثر على علاج فعال لكي تعود إلى سابق عهدها. لقد لفت هؤلاء المفكرون، ابتداء من جلوكسمان إلى هابرماس أو أومانيه، انتباهنا إلى أن الغرب منقسم وقد أنهكه صراعه مع نفسه. وربما كان هذا هو السبب في أن العديد من الأوروبيين قد وصلوا خلال القرن العشرين إلى التشكيك في قيمة ثمار الحضارة التي ولدوا فيها. ومع

ذلك، نلاحظ حرصنا المتوتر على عدم إضاعة هذا التراث الأوروبي الثمين من الحضارة والإنسانية، والذي من الصعب أن تجد له مثيلًا في التاريخ يسمح لنا بالتحدث اليوم عن «الهوية» وما شابه من موضوعات.

الآن، يبدو أننا الأوروبيين، نتوق لرؤية نهاية للأزمة الاقتصادية التي كانت عميقة ومؤلمة بالنسبة للملايين من مواطنينا. فمن ناحية، دفعت هذه الأزمة الإحساس بالتعب والإنهاك اللذين أشرنا إليهما أن يطفو على السطح بكثافة ملحوظة، كما لو أن شعورًا عميقًا بالضيق يسكن في قلوبنا. ومن ناحية أخرى، فإن الأزمة نفسها تتيح لنا الفرصة للبدء من جديد، وللتغيير، ولمحاولة التحسين.

ويحق علينا الآن تمحيص الوضع الذي نحن فيه والعثور على الحلول الممكنة له. فما الذي يحدث للأوروبيين الآن؟ ماذا يحدث للمسيحيين الأوروبيين على وجه الخصوص؟ إنني لا أتوقف عن طرح هذه الأسئلة على من صادفني لقاؤهم من رجال الكنيسة والأكاديميين ورجال الثقافة، سواء المؤمنين أو اللا أدريين أو الملحدين. ليس من السهل ترجمة الإجابة بشكل حاسم دقيق، ولكن خارطة الطريق التي يقترحها علينا جوليان كارون في الجزء الأول من كتابه تقودنا في كل «الطرق المتقاطعة» – على حد تعبير مارتن هايدجر – لمجتمعنا.

الضيق الأوروبي

أما بالنسبة لنا، فإن نقطة البداية هي أن نلاحظ ظهور شعور حقيقي بالضيق على سطح المجتمع الغربي، وأن نتساءل عن ماهية المهمة التي أمامنا، والتي فرضتها علينا بإلحاح الأحداث شديدة الإيلام التي ضربتنا. إنها مهمة تفسير هذا الشعور الذي يظهر بأشكال غامضة حينًا، وبأشكال أيديولوجية غالبا، أما إذا أردنا أن ننغلق على واقعنا، فلا بد أن يشكل هذا خطورة علينا.

وفي رأيي، أن هذا الشعور بالضيق لا يمكننا تفسيره بالاقتصار على العوامل الاقتصادية للأزمة، على اعتبار أن هذه العوامل قد أصبحت في السنوات الأخيرة شديدة الخطورة. لنفكر، على سبيل المثال، في الأزمة الديموجرافية العميقة في أوروبا، مع الانخفاض الكبير في معدلات المواليد، والصعوبات الواضحة في دمج المهاجرين. لقد لاحظ المراقبون المعروفون - من بوكنفورد إلى بيريز دياز - أن هناك خلفية أخلاقية وثقافية في أزمة المشاركة المؤسسية التي نعيش فيها. علاوة على، ذلك يلزم التعرف على طبيعة الأزمة لكي ننجح في فهمها، رغم أنها في التحليل النهائي ليست إلا عرضًا له طابع مستديم لمزيج من الاحتياجات والبراهين التي تشكل الخبرة الأولية المشتركة بين جميع البشر، والتي يكشف التحقق الكامل لها التدين الكامن في تكوين الإنسان. وحقيقة أن الشباب الأوروبي من الجيلين الثاني والثالث يستسلمون لإغراء الأصولية الإسلامية يجب أن تجعلنا نفكر في الفراغ الفكري الذي يمس مجال الدين أيضا.

الشعور بالضيق في المجتمع الأوروبي، ولدى المسيحيين الأوروبيين، لا يقتصر على جوانب سطحية، رغم توافرها. فجذوره عميقة. إنها الصعوبة التي يمكننا وصفها، بأنها أزمة «علاقة مع الواقع» وفقًا لكلمات ماريا زامبرانو. فيما تتمثل هذه الأزمة؟ هي نوع من فقدان الثقة في تجربة الحياة الخاصة. وهي تتضح في صعوبة الاعتراف بالواقع وقبوله كما هو، أي محملًا بجاذبية تعتبر مظهرًا لأساس موجود في كل شيء، ويحيل إليه كل شيء بعيدًا عن ذاته نفسها[1].

أما إذا تقلص كل شيء إلى مجرد مظهر فسوف تنشب أزمة في العلاقة مع ما هو واقع، فلا ننجح في أن ننحو نحوًا يجعل معرفتنا بأنفسنا وبالآخر وبالعالم تحتفظ بطابعها الذي يتسم بالأساس، والأساس هو سر الخير، ذلك الذي «يسميه الجميع الله». والخطر ليس هينًا؛ لأنه يؤثر على الطريقة التي نستخدم بها العقل والحرية، ومن ثم ذكاء الواقع، حتى الوصول إلى أساسه في نهاية المطاف. وحينما يشكك أي مجتمع في العقل والحرية والواقع يجب أن ندق ناقوس الخطر؛ لأن هذا معناه أن يصبح من المستحيل على المدى المتوسط والطويل - أو على أقل تقدير يصبح من غير المؤكد أو من الهش - العمل وترسيخ أواصر المحبة والتمتع بالطمأنينة وبناء السلام الاجتماعي. ويؤدي ذلك إلى الضعف الوجودي لما هو إنساني بصفته إنسانيًّا.

ويمكن أن تتضاعف أمثلة عملية الإضعاف هذه في كلٍّ من النظم الأولية الملموسة التي ألمحنا إليها: الحب والعمل والطمأنينة. لقد صاغ

(١) راجع: يوحنا بولس الثاني، رسالة جامعة في الإيمان والعقل *Fides et Ratio* ص ٨٣.

السيد جوساني صيغة فعالة تتعلق بالشباب على نحو خاص وهي «تأثير تشيرنوبيل» الذي هدد البشرية المعاصرة. وقد وصفه بهذه الكلمات: «كما لو أن شباب اليوم قد أصيب كله [...] بالإشعاع من تشيرنوبيل: الجسم على مستوى الهيكل ظل كما هو، ولكن على المستوى الديناميكي لم يعد كما كان. [...] وبقوا[...] في علاقة مجردة مع أنفسهم، مفرغين من العاطفة [دون طاقة عاطفية للالتصاق بالواقع]، مثل البطاريات التي بدلًا من أن تعمل لست ساعات لا تدوم أكثر من ست دقائق»(٢). واتخذ كارون هذه الكلمات منهجًا للحكم حتى يفهم الوضع الحالي لمجتمعاتنا التعددية؛ حيث تتم صياغة سؤال يتعلق بمعنى أن تكون مسيحيًّا اليوم (انظر هنا صفحات ٨١-٨٦). إن طبيعة الإضعاف ليست في المقام الأول أخلاقية أو نفسية، فهي بقدر ما تؤدي أيضا إلى هذين العاملين، إلا أنها تتعلق أيضا بديناميكية المعرفة والحرية في العلاقة مع الواقعي في مجمله.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن الأزمة لا تشير فقط إلى البعد الاقتصادي، أو الثقافي أو الأخلاقي، وحسب، ولكنها تشير في الأساس إلى أبعاد أنثروبولوجية ودينية، ولتقديم مساهمة قيمة في التعايش والسلام في المجتمع الغربي، من الضروري تحليل هذه القضايا بالترتيب. وكما هو واضح، فإن ما يحدث في الغرب له انعكاس حتمي على الثقافات الأخرى، ومن ثم فإن الطريق الذي يتبعه المجتمع وتتبعه الكنيسة في أوروبا سوف يؤثر أيضا على بقية العالم.

---

(٢) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987)*, BUR, Milano 2010, p. 181. أنظر أيضًا هذا الكتاب ص ٨٦.

التفسير الثقافي للإيمان

كيف أمكننا الوصول إلى هذه الحالة من الإضعاف الإنساني التي وصفناها بإيجاز؟ في مقابلة تلفزيونية، في نهاية حياته، أجاب جوساني على السؤال الشهير من ت. إس. إليوت، «هل هي البشرية التي تخلت عن الكنيسة، أم أن الكنيسة هي التي تخلت عن البشرية؟[٣]» وكان جوابه – الذي ربما أثار دهشة البعض – أن كليهما حدث. أعتقد أن واحدًا من أهداف كتاب كارون هو الاستكشاف الدقيق للطرق التي تم طرح التجربة الدينية من خلالها على الإنسان المعاصر، ابن المجتمع التعددي، متعدد الثقافات، وهو مجتمع، إلى حدٍّ كبير، بلا مسيح. وهكذا ندخل إلى المجال الذي يمكن أن نسميه بالتفسير الثقافي للدين.

لقد ساهم البابا يوحنا بولس الثاني مساهمة جديدة، أصبحت بعد ذلك كلاسيكية، لتحديد قيمة الحوار بين الدين المسيحي والمجتمع التعددي، عندما شدد على أن «التوفيق بين الثقافة والدين ليس مطلبًا للثقافة فقط ولكنه مطلب أيضا للدين [...]. الدين الذي لا يتحول إلى ثقافة هو دين لا يتم قبوله بالكامل، ولا يتم التفكير فيه على نحو كلي، ولا يتم العيش فيه بإخلاص»[٤]. هذه الإشارة تتم ترجمتها إلى احتياج خاص أن يتحول الدين إلى ثقافة، إلى أسلوب ملموس للحياة بأبعاد إنسانية. لا يطرح البابا فويتيلا (يوحنا بولس الثاني) بطبيعة الحال عملية يتميع بها

(٣) راجع: T.S. Eliot, *Cori da "La Rocca"*, BUR, Milano 2010, p. 101.
(٤) يوحنا بولس الثاني، الخطاب الموجه إلى المجلس القومي للحركة الكنسية للالتزام الثقافي، ١٦ يناير ١٩٨٢، Insegnamenti, V, 1 [1982] 131.

الدين ليصبح مجرد ثقافة، وفقًا لمذهب «الآفاقية» أو النزعة «الإنسانية» التي كانت سائدة في أوقات معينة تلت المجمع المقدس، بل يطالب على العكس من ذلك بتمكين الدين من انجاز تغيير ملموس في ديناميات الإنسان، من حيث تتم ترجمته إلى أسلوب ملموس للحياة ومواجهة المسائل الكبرى التي تمس الحياة. إذا لم يتم تنفيذ هذه العملية، فسوف نواجه هذا الفصل بين الدين والحياة، وهو الفصل الضار بالتراث المسيحي وبحضارة أبعادها إنسانية بالكامل، وقد أدانه المجمع الفاتيكاني الثاني والهيئة التعليمية الكنسية في المرحلة ما بعد المجمعية.

ونتيجة هذا الانفصال هي عدم القدرة على نقل الدين إلى بشر آخرين لديهم تراث ديني مختلف، وينتمون إلى ثقافات دينية مغايرة.

وعلى العكس، عندما تتحقق «الترجمة الثقافية» الحتمية هذه، يكتسب الدين بعدًا عامًّا ويحتفظ بالقدرة على الانتقال الحي والبناء الاجتماعي والحكم الجديد على الواقع. ينبغي أن نحدد على الفور أن هذه الصيغة لا تقترح صورة اجتماعية أو سياسية مباشرة للإيمان. ونشير هنا بدلًا من ذلك إلى منهج ملموس، يتولد عن الدين، لتحقيق حياة الإنسان، لا يمكن تطبيقه دون إشراك الأبعاد الشخصية والاجتماعية كافة. في هذه العملية، هناك مساحة لوجهات نظر مختلفة، ليست متساوية كلها، ولكنها جميعًا تقاس على الطبيعة الأصيلة لظهور المسيح، كما انتقل وتأكد من خلال الخلافة الرسولية. فإذا لم يتم قبول هذا التمييز فهذا معناه أن يظل سؤال ت. إس. إليوت دون إجابة.

لقد قدم الكاردينال سكولا قراءة، قد تكون مفيدة، لتفسيرين للإيمان انتشرا في أوروبا، مع مراعاة الاختلافات في كل بلد(٥).

يعتبر أحد هذين التفسيرين المسيحية «دينًا مدنيًّا» أو أساسًا أخلاقيًّا قادرًا على توليد وحدة اجتماعية في مواجهة المشاكل الشائعة للتعايش في المجتمع. ويتحدد التحقق العام للمسيحية في هذا التفسير بالدفاع عن القيم الأخلاقية، التي تستهدف مجتمعًا يتعثر على نحو متزايد، وتعزيزها. وعلى وجه التحديد، قد يشجع التدهور في النسيج الاجتماعي في جوانبه المرتبطة بشكل مباشر بالحياة الأخلاقية - ولدينا العديد من الأمثلة عليه - قد يشجع على تحديد هوية التحقق العام للإيمان بمبادرات تعمل على استعادة الصحة الاجتماعية لتلك القيم التي يتم النظر إليها دائمًا على أنها مهددة. هذا النوع من التصور يمكن أن يجد تشجيعًا له سواء من جانب المسيحيين الذين يمارسونها، أو غير الدينيين أو غير المؤمنين الذين يتخذون موقفًا مماثلًا لموقف المسيحيين. ليس من الصعب الموافقة على أن هذا الموقف يعكس الميل إلى الجمع بين الدين وعمومية الأخلاق لضمان شيء من الكرامة العقلية لحضوره العام في الغرب.

ثم هناك التفسير الثاني، والذي يميل إلى تقليص المسيحية إلى مجرد «إعلان الصليب من أجل خلاص العالم». فالاهتمام، على سبيل المثال، بالأخلاقيات البيولوجية أو الأخلاقيات السياسية، قد يبعدنا عن الرسالة الأصيلة لرحمة المسيح. كما لو كانت الرسالة المسيحية غير تاريخية وليس

(٥) راجع: A. Scola, Buone ragioni per la vita comune, Mondadori, Milano 2010, pp. 37-38

لها آثار أنثروبولوجية واجتماعية وكونية. في هذه الحالة، يسود الاعتقاد بأن قوة الإعلان المسيحي تتمثل في الطرح «النقي» لسر الصليب. وعلى عكس التفسير الأول، ثمة تحويل للانتباه عن الجوانب الأخلاقية، سواء للفرد أو المجتمع، للتأكيد على القوة غير العادية لرسالة مسيحية تمنحنا سرًا مخفيًّا عن عيون هذا العالم، مع إبراز قوة السلطة الإلهية التي تتحقق في الضعف. في هذه الحالة، ربما جاز لنا تحديد غير مباشر لتأثير مواقف معينة - بروتستانتية في الأصل، وفي وقت لاحق كاثوليكية أيضا - تقلل من كونية العقل لصالح حياة دينية يهيمن عليها الجانب العاطفي الوجداني.

فما الرأي في هذين التفسيرين الثقافيين للإيمان؟ كلاهما يقوم على عناصر ضرورية في حد ذاتها لفهم كامل لدور الدين المسيحي في مجتمع تعددي: فهو من جهة دور يتمثل في أهمية صليب المسيح في الفداء من أجل الخلاص، ومن جهة أخرى دور يبرز الأثرين الأخلاقي والثقافي الواضحين للرسالة المسيحية. ومع ذلك، فإن كليهما لا يعبر بشكل شامل عن الطبيعة الحقيقية للمسيحية ومنهج حضورها في المجتمع. ولكن، الأهم من ذلك، أن كليهما غير قادر على الرد على نحو كافٍ للإضعاف الأنثروبولوجي الذي يعتبر سببًا من أسباب الضيق والارتباك في مجتمعنا الأوروبي.

والحقيقة أن التفسير الأول يقلص الدين المسيحي إلى البعد العلماني، ويفصله عن القوة التي تولد في الشخص المسيحي بفضل لقائه مع يسوع

المسيح في الكنيسة. وعلاوة على ذلك، فمحاولة ضمان شمولية أخلاقية من خلال إبراز حدث ظهور المسيح، قد شهدت لأسباب تاريخية يستطيع أن يعرفها الجميع، فشل جهودها لضمان السلام الدائم، كما أشار البابا بندكت السادس عشر بشكل حاد في حكمه على التنوير الأوروبي. وقد درس كارون هذه الظاهرة بالتفصيل في فصول الجزء الأول من كتابه.

ويحرم التفسير الثاني الدين من عمقيه الجسدي والتاريخي، ويقلصه إلى مصدر إلهام داخلي، انتظارًا لاكتمال الحياة في الآخرة. ولا ينجح هذا التفسير الأخروي حتى في فهم عملية الإضعاف الأنثروبولوجي بعواقبه التاريخية، ولا يقدم إجابة على مستوى الموقف. ولكي نتغلب على القيود المفروضة على هذين الموقفين فنحن بحاجة إلى فهم المسيحية التي، يتبين فيها ظهور المسيح – وهو ظهور غير قابل لأن يختصر إلى أية محاولة تفسير إنسانية – في أصالته ومصدره الذي يتجاوز منطق المخلوقات من ناحية، ومن ناحية أخرى يتصور منطقه الخاص لظهور فريد في التاريخ يتجاوز أي قدر من العقل. إن ما تطلبه المسيحية ليس أكثر من تقديم نوع من الخبرة تتوافق مع الإنسان، على الشاكلة التي يظهر فيها الإنسان في أية ثقافة؛ لأنها ولدت من ظهور فريد يعرض الثقافات كلها إلى مواجهة حقيقة متجاوزة للحدود المعقولة، وينطلق بها في هذه المواجهة من داخل التاريخ. وهذا هو أحد مفاتيح الحوار بين الثقافات والأديان.

ولكن هناك موقفًا ثالثًا سوف نطلق عليه «شخصنة الدين». إنه باختصار اختيار الطريقة التي يمكن تبنيها لفهم الدين المسيحي، والتي

يمكن أن تؤدي إلى تحققه في الوجود، على المستويين الشخصي والجماعي، كوسيلة لإثارة موضوع كنسي إنساني بالكامل في ظروف خاصة بمجتمع ما بعد العلمانية وما بعد المسيحية. إذا لم أكن مخطئًا، فإن هذا هو على وجه التحديد الخيط الذي يحرك العمل التربوي والثقافي لجوليان كارون، كما ورد في مداخلات له في مجالات مختلفة جدًّا، ولد منها هذا الكتاب.

شخصنة الدين: تحققه الوجودي

للرسالة المسيحية هدف يتمثل في طرح «ابتكار غير مسبوق» من شأنه أن «يعطي الحياة أفقًا جيدًا واتجاهًا حاسمًا». ورد هذا في البيان الشهير للبابا بندكت السادس عشر، واستأنفه البابا فرانشيسكو، وهو بيان يجعلنا نفهم على نحو كافٍ أصالة المسيحية(٦). وإذا نظرنا إلى حياة الطوائف المسيحية، وخصوصًا في المناطق الجنوبية من أوروبا، فلن نعدم ذلك التأثير الأولي لهذا الابتكار، بل سنصادف كثيرًا حالات من اعتناق المسيحية تهتز لها المشاعر، وأحيانًا ما تصاحبها آثار إعجازية. لكل هذا يجب أن نحمد الله. ولذلك لا يمكن القول بأن أوروبا تفتقر إلى الأثر الأول للرسالة المسيحية وإنما تفتقر إلى الحاجة الملحة إلى تكثيف هذا الأثر بشكل كبير وفقًا لرسالة السيد المسيح في الوصول إلى البشر جميعًا. ولعل هناك حاجة أكبر لنوع من التربية الدينية القادرة على حفظ وحماية وتجديد وبث هذا الابتكار غير المسبوق في جميع ظروف الحياة اليومية.

---

(٦) راجع: البابا فرانسيس، إرشاد رسولي حول إعلان الإنجيل في عالم اليوم ٧.

وغالبا ما تولد التجربة المسيحية، حتى عندما يتم تلقيها بإخلاص وسخاء، نضجًا بشريًّا كافيًا مؤسسًا على اليقين لكي نتمكن من العمل والحب في وقتنا الحاضر، ولكي نحفظ منظور الحياة الأبدية حيًّا. لقد كان هناك كثيرون على بينة من هذا الأمر، من بين أكثر المراقبين للمسيحية الأوروبية ذكاء، مثل نيومان في القرن التاسع عشر، أو جوارديني أو شيللر أو جوساني في القرن الماضي، لمجرد ذكر بعض الشخصيات التي أوليها عناية خاصة.

ومن ثم، فإن الضعف الأنثروبولوجي للمسيحيين يشير إلى وجود ضعف في الطريقة التي يعيشون بها ويتناقلون الدين، والتي يمكن أن نعرفها بأنها «فشل تحقق» الدين في التربية المسيحية. و«يتحقق» الدين عندما يظهر قدرته على التنوير وإتمام الديناميات العقلية والعاطفية والخاصة بالحرية المميزة للإنسان، بما يزيد من اليقين الوجودي الذي لا يستغني عنه إنسان راشد في أي ظرف من ظروف الحياة. بمعنى آخر، وفي الاتجاه المعاكس، فإن الدين «لا يمكنه أن يغش لأنه مرتبط بطريقة أو بأخرى بتجربتك: فهو يشبه في نهاية الأمر شاهدًا سوف يمتثل أمام محكمة أنت فيها القاضي من خلال تجربتك»(٧)، وهو التعبير الذي ورد عن جوساني ونقله كارون في هذا الكتاب (انظر هنا ص ١٢٨). فإذا أهملت هذا التحقق فإنك ستوقن بأن الدين ليس إلا بادرة انضمام عقلاني وحر لظهور الرب في التاريخ، وأن العمل الكنسي ينزلق إلى ممارسة سخية

(٧) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987)*, op. cit., p. 300.

للنتائج الاجتماعية والسياسية والثقافية أو التعاضدية، ولكنه لا يصل إلى تكوين فعال وعميق للشخص المسيحي الراشد[٨].

وإذا كنا نريد تلبية مؤشرات السلطة التعليمية للكنيسة والنظر في الترابط العميق بين الإيمان والدين والثقافة، فإن مسألة المنهج الأكثر خطورة هي «شخصنة الدين»، بحيث يتم تحفيز هذه الشخصية الفردية والجماعية بشكل يسمح بتجديد الجماعة المسيحية. لهذا لا يمكننا أن نتجاهل تعميق «دائرية» التجربة الإنسانية الأولية والدين[٩]: فمن جهة، يوقظ اللقاء المسيحي العلاقة مع الواقع في اتساعه الأصلي، ومن ناحية أخرى، فإن حيوية التجربة الإنسانية - بما في ذلك الأسئلة الأساسية عن الحب والألم والموت والجمال، وبحث الإنسان عن معنى الحياة - تحمينا من التعبير الشكلاني والذي يشل الدين نفسه في نهاية المطاف. ونجد هنا المعيار الحاسم الذي يصاحب الهشاشة الإنسانية التي تختفي وراء كثير من الانتماءات الكنسية، فضلًا عن تهذيبها. وينطوي هذا منهجيًّا على فن التوصل إلى المعرفة البحثية التي تنشد الوصول إلى المعنى، والتي تنعكس على شكل مجموعة كبيرة من الأسئلة والاحتياجات والبحوث والمحاولات من جانب معاصرينا في ثقافة ما بعد العلمانية، وذلك بفضل النور الذي يأتي من الحقيقة التي تتجلى بحرية في شخص المسيح.

إن الدين القابل للتحقق هو وحده القادر على تحمل مسئولية نشوء الأزمة في الغرب، تلك الأزمة التي تضرب العلاقة مع الواقع، ليس فقط

(٨) راجع: رسالة البابا بندكت السادس عشر، باب الإيمان، ٢.
(٩) راجع: البابا يوحنا بولس الثاني، رسالة جامعة في الإيمان والعقل، ٧٣.

في عموميتها، وإنما أيضا في التحقق الملموس للأبعاد الأولية للحياة الإنسانية، كما يعلمنا «تأثير تشيرنوبيل». دعونا نعود إلى هذا السؤال عن المنهج، لأن أهميته حاسمة لتحقيق الهدف المنشود من دين غير شكلاني أو روحاني، ولكنه مكمل لما هو إنساني. ولتحقيق هذا الهدف، من الضروري أن يؤثر التعليم المسيحي بشكل فعال على فهم ونضج التجربة الأولية لكل إنسان، بحيث يضفي بدوره الحيوية على الوضع الإنساني للمؤمن.

وهكذا، فإن الدين سوف يثبت ملاءمته لكل إنسان، وفقًا لمقولة الإنجيل الشهيرة «مئة ضعف». في الواقع تعد الإحالة إلى التجربة الأولية التي تقع في جوهر استيعاب المعنى الديني من الأمور الحاسمة. ويمكن في الواقع التعرف مباشرة على الخصائص الشكلية، إذا جاز التعبير، للتجربة الأولية، باستخلاصها من أي محتوى ملموس، أو وصف حالة معينة أو عمل معين، والتعرف منها على السمات الشكلية للتجربة الأولية ومعايير التحقق التي ترتكز عليها. وفي رأيي، تكمن العبقرية التربوية في عدم السماح بفصل مستويات فهم تلك التجربة الإنسانية. وتبرز القوة التي لا تقهر للوضع التربوي عندما يأخذ المرء جميع العوامل بعين الاعتبار. لا يكفي مجرد تراكم المواعظ، ولا أن نمنحها صفة الـ «تجربة»، كما لو أن التربية بذلك سوف تصبح أكثر واقعية. لأنه إذا لم يتم التوصل إلى صياغة «المسببات»، أي الحكم بشروط شكلية – عمومية –، فإن المسيرة سوف تكون أقل خصوبة من الناحية الثقافية. من ناحية أخرى، لا يتم التوصل إلى معيار الحكم عن طريق الاستقراء، ولكن من خلال

الوصف الدقيق للتجربة المعيشة. لهذا لا يعد من يكتفي بترديد صيغ جاهزة، رغم أنها معيبة، مربيًا جدًّا.

«ثقافة الالتقاء»

إن المهمة الأساسية للكنيسة هي تلك التي وصفناها بإيجاز بتعبير «شخصنة الدين»، من الأحياء المغبرة في أنجولا حتى الطرقات وقاعات المحاضرات في جامعاتنا الأوروبية، ومن رعاية أولئك الأكثر تضررًا من الأزمة وإلى الحياة اليومية للأصدقاء والعائلات. والمحاور الوحيد القادر على الحوار مع الآخرين هو الإنسان الراشد الحي الذي يملك تجربة إنسانية زادت قوتها وقدرتها على التغير باللقاء مع المسيح، مهما كان وضعه الثقافي أو الديني في المجتمع التعددي.

إن عالمنا «يطلب من المسيحيين أن يكونوا على استعداد للبحث عن أشكال أو سبل توصيل الحداثة الخالدة للمسيحية بلغة مفهومة»[١٠]. تلك الكلمات الجميلة للبابا فرانشيسكو في رسالته البليغة إلى لقاء ريميني عام ٢٠١٤ لا تزال تهدينا إلى سواء السبيل. ونحتاج في هذا المجتمع الذي يتميز بالتغير ووصفه باومان بأنه «مجتمع سائل»، إلى راشدين قادرين على توصيل الحداثة الجذرية للمسيحية، دون أن تصيبهم التغييرات الشكلية التي ربما كانت مفيدة في الماضي بالشلل. ربما كانت هذه الكلمات صدى معاصرًا

(١٠) Francesco, *Messaggio per la XXXV edizione del Meeting di Rimini,* 24-30 agosto 2014.

لكلمات القديس بولس والتي علق عليها يوسف زفيرينا: «لا تتوافقوا مع النظام! Mè syschematízesthe! كما هو واضح بشكل جيد في هذه الكلمة فإن الجذر اللفظي الخالد هو النظام. وباختصار، فإن كل نظام باطل، بمعنى أن كل نموذج خارجي باطل. ينبغي أن نطالب بما هو أكثر، فتلميذ المسيح بولس يأمرنا أن: «تغيير الطريقة الخاصة في التفكير بطريقة جديدة!» – metamorfoûsthe tê anakainósei toû noós. كما في اللغة اليونانية الجميلة المعبرة للقديس بولس!

فعلى النقيض من لفظة النظام أو جذر الكلمة - وهما من القوالب الثابتة - هناك الميتامورفيه، أي التغير في المخلوق. وهذا لا يتغير وفقًا لأي نموذج يوجد خارج سياق العصر، ولكنه مخلوق جديد تمامًا يحمل ثراءه الخاص (anakainosis)(١١). وعندئذ فقط يمكن توسيع «ثقافة اللقاء» الذي يدعونا إليه البابا بإلحاح. عندئذ يصبح الحوار فرصة مثيرة لقبول نقد الحقيقة الموجود في كل تجربة إنسانية، وتواصل مثير للتجربة الذاتية، المتغيرة بفعل ما جاء بها الظهور المسيحي من جديد. إنها قضية راديكالية تسبق - أو تلي - الجدلية المرهقة بين التقدمية والمحافظة.

«الجمال الأعزل»

في ضوء التحليل الذي يقدمه كارون في الجزء الأول من الكتاب، يمكننا أن نفهم على نحو أفضل طيف الرؤى الذي يحكم هذا العمل

(١١) J. Zvěřina, “Lettera ai cristiani d’Occidente”, in *L’esperienza della Chiesa*, Jaca Book, Milano 1971, pp. 177-178.

الثقافي والتربوي، تلك الرؤى التي ترتقي إلى مستوى الأزمة التي نعيشها في أوروبا. يعلمنا كارون منهجه الذي أتمه في الأعوام الأخيرة، بداية من المداخلات المتعددة التي ألقاها في المحيط الجامعي والثقافي والإعلامي والاجتماعي والاقتصادي، كبرنامج للمرحلة التي نعيش فيها. وليس من النادر أن تكون تأملاته نتيجة لحوار مفتوح مع محاورين من مختلف الخلفيات والمدركات الثقافية، دون أن يحيل إلى مصدر آخر سوى «الجمال الأعزل» الذي يعكس السر المسيحي، حيث يقدم لنا بعض الأمثلة على قدرته المتحمسة على تنفيذ المبادئ الأساسية للتجربة الأولية، من داخل جميع مناحي الحياة البشرية، على النور المشع من الظهور المسيحي.

كما أن انشغاله بمنحنا معايير الحكم، ومن ثم العمل، داخل الأبعاد المختلفة للحياة – بدءًا من التربية والأسرة والأعمال الاجتماعية والخيرية، وصولًا إلى السياسة – يضع في أيدينا أداة قيمة للغاية لفهم وحب مجتمعنا الأوروبي، بافتراض إيجابي يجعلنا أبطال عصرنا، ومن ثم منفتحين على الواقع في جميع القارات. ولن نكون أبطالًا إلا إذا نضجنا طيلة مسيرتنا وأعمالنا لأننا فهمنا ما نعيش فيه.

آمل أن يثير هذا الكتاب في القارئ الامتنان نفسه، والرغبة نفسها في مقابلة مؤلفه، مثلما أثاره في نفسي.

مدريد، ٢٢ يوليو ٢٠١٥

الجمال الأعزل

الجزء الأول

السياق والتحديات

١
البداية الجديدة، هل هي ممكنة؟

ماذا على المحك؟

ولدت أوروبا من رحم بضع كلمات كبيرة من قبيل: شخص، عمل، مادة، تقدم، حرية. كلمات وصلت إلى منتهى كمالها وعمقها من خلال المسيحية، واكتسبت قيمة لم تكن لها من قبل، وهو ما حسم عملية تحول عميقة «لأنسنه» أوروبا وثقافتها. يكفي أن تفكر على سبيل المثال في مفهوم «شخص»: «قبل ألفي سنة كان الإنسان الوحيد الذي يملك جميع حقوق الإنسان هو المواطن الروماني. ولكن من الذي كان يقرر ماذا عساه يكون المواطن الروماني؟ السلطة هي التي كانت تحدد من عساه يكون المواطن الروماني. كان جايوس، وهو أحد أعظم رجال القانون الروماني، يميز ثلاثة أنواع من الأدوات يمكن للمواطن [الروماني] أن يمتلكها، أي المواطن الذي يمتلك الحقوق كافة، وهذه الأدوات هي: الأدوات التي

لا تتحرك ولا تتكلم. والأدوات التي تتحرك ولا تتكلم، أي الحيوانات. والأدوات التي تتحرك وتتكلم، أي العبيد»[1].

ومع ذلك، أصبحت هذه الكلمات اليوم فارغة أو فقدت قوتها الأصلية. لماذا؟

من خلال عملية طويلة ومعقدة - تضمنت الإقلال من شأن كلمات مثل التقدم والحرية على أيدي المسيحية نفسها التي ساهمت في إيجادها - تأسست في إحدى مراحل الملحمة الأوروبية محاولة فصلت هذه المكتسبات الأساسية عن التجربة التي أنتجتها.

وكما قال راتزنجر قبل سنوات، وكان لا يزال وقتها كردينالا، في لقاء تاريخي في سوبياكو، إنه بعد رحلة تاريخية مضطربة، في عصر التنوير، «في معارضة الأديان وفي الأزمة المداهمة لصورة الله، كانت هناك محاولة لإخراج القيم الجوهرية للأخلاق خارج التناقضات والبحث لها عن دليل يجعلها مستقلة عن الانقسامات المتعددة وحيرة الكثير من الفلسفات والأديان». وبدا هذا المشروع حينئذ ممكنًا؛ لأن «القناعات الأساسية العظيمة التي أنشأتها المسيحية قاومت إلى حدٍّ كبير، وبدت عصية على الإنكار»[2]. وهكذا تطورت المحاولة التنويرية للتأكيد على تلك القناعات، التي بدا برهانها قادرًا على التماسك من تلقاء نفسه، بغض النظر عن المسيحية المعيشة. فماذا كانت نتيجة هذا «الادعاء»؟

(١) L. Giussani, *Il senso religioso,* Rizzoli, Milano 2010, p. 123. Cfr. Gaio, *Institutionum. Commentarii quattuor*, II, 12-17.

(٢) J. Ratzinger, *L'Europa di Benedetto e la crisi delle culture,* Lev-Cantagalli, Roma-Siena 2005, p. 61.

وهل قاومت القناعات التي ظلت أساسًا للتعايش بيننا على مر القرون ما تعرضت له من اختبارات؟ هل صمد برهانها أمام تقلبات التاريخ، بما تحمله من أمور غير متوقعة واستفزازات؟ الجواب على مرأى ومسمع من الجميع. «إن البحث عن اليقين المطمئن، والذي لا يمكن معارضته، ويتجاوز جميع الخلافات، قد فشل. وحتى الجهد العظيم حقًّا للفيلسوف كانط لم يكن قادرًا على خلق اليقين اللازم الذي يمكن تقاسمه. [...] إن المحاولة، والتي وصلت إلى أقصى حدود تنفيذها، لإدارة الشئون الإنسانية من دون الله قادتنا دائمًا إلى حافة الهاوية، في اتجاه الاستبعاد التام للإنسان»(٣).

وللدليل على هذا الاستبعاد، يكفي إدراك التأثير الذي كان لهذه العملية على عاملين هما الأعز علينا نحن الأوروبيين المحدثين: العقل والحرية.

ثقافة التنوير هذه، والكلام لا يزال لراتزنجر، تم تعريفها أساسًا بكلمات «الحق في الحرية». وهي «نابعة من الحرية كقيمة أساسية يقاس عليها كل شيء: حرية الاختيار الديني، والتي تتضمن الحياد الديني للدولة، وحرية التعبير عن الرأي، شريطة ألا يلقي ظلالاً من الشك على هذا القانون تحديدًا؛ النظام الديمقراطي للدولة، أي الرقابة البرلمانية على أجهزة الدولة [...] وحماية حقوق الإنسان وحظر التمييز». إن التطور الذي لا يزال ساريًا لهذه الأفكار يطرح الوجه الآخر للعملة، أو بالأحرى نتائج

(٣) المرجع السابق، ص ٦١-٦٢.

التعريف غير الكافي للحرية، والذي يميز الثقافة التنويرية. فمن ناحية يجب أن تراعي ممارسة مبدأ الحرية أو الاستقلال الذاتي للإرادة الفردية، الصراع الداخلي بين حقوق الإنسان المختلفة، كما في حالة التناقض بين الرغبة في حرية المرأة والحق في حياة الأجنة. ومن ناحية أخرى، فإن الاتساع التدريجي لحظر التمييز قد يؤدي إلى نقيضه، دون أن ننكر بالطبع المكاسب غير القابلة للتراجع التي أتى بها تطبيق هذا المفهوم: فهو «يمكن أن يتحول باضطراد إلى قيد على حرية الرأي والحرية الدينية [...]. وحقيقة أن الكنيسة مقتنعة [على سبيل المثال] من أنها ليس لديها الحق في منح السيامة الكهنوتية للنساء، اعتبرها البعض منذ الآن متعارضة مع الدستور الأوروبي وغير قابلة للتوافق معه». ولهذا فإن راتزنجر وهو يشير إلى النتائج الأخيرة للموعظة يتحدث عن «عقيدة حرية مشوشة» تؤدي إلى «دوجماتية تثبت بشكل متزايد أنها معادية للحرية». وهكذا فإننا نشهد انقلابًا فريدًا وملحوظًا للأوضاع، فهناك انفصال جذري لفلسفة التنوير بجذورها المسيحية، والتي كان يجب أن تضمن تأكيدًا كاملاً ومستقلاً للإنسان، وهي «تتحول، في التحليل النهائي، فعلاً من دون إنسان».

ثانيًا، يجب أن نسأل أنفسنا ما إذا كان المنطق العقلاني الذي تقوم عليه فلسفة التنوير هذه يمكن أن يثبت بشكل شرعي أنه قد بلغ «وعيًا كاملاً بنفسه»، وأنه يمكنه أن يقول الكلمة الأخيرة عن منطق العقل الإنساني باعتباره إنسانيًا. وبهذا المعنى، يدعونا راتزنجر إلى أن نتذكر أن المنطق العقلاني للتنوير كان مشروطًا من الناحية التاريخية، ونتيجة «لمنطق عقلي يقيد نفسه بنفسه في ظل موقف ثقافي بعينه». بعبارة أخرى،

لا تعبر فلسفة التنوير عن «المنطق العقلي الكامل للإنسان، بل عن جزء منه فقط، وبسبب بتر هذا العقل لا يمكن اعتباره كامل العقلانية». إن الأمر لا يتعلق بإنكار الحسم الذي تميزت به مكتسبات هذه الفلسفة، وإنما بمعارضة استبدادها الذاتي، وتموضعها بشعور من الفوقية في تباين مع «الثقافات التاريخية الأخرى للإنسانية». لذلك يمكن أن يستنتج راتزنجر أن «التباين الحقيقي الذي يميز العالم اليوم ليس بين الثقافات الدينية المختلفة، وإنما بين التحرر الجذري للإنسان من الله، من جذور الحياة، من ناحية، والثقافات الدينية الكبرى من الناحية الأخرى»(٤).

وليكن واضحًا، أن هذا لا يعني بأي شكل اتخاذ موقف مسبق معاد للتنوير.

فالتنوير كما يقول راتزنجر «من أصل مسيحي، وقد ولد في إطار الإيمان المسيحي وحده وبشكل حصري، ولم يكن ذلك بمحض الصدفة»(٥). واستدعى بندكت السادس عشر، في خطاب تاريخي آخر في عام ٢٠٠٥، «(نعم) الأساسية للعصر الحديث» التي أعلنها المجمع الفاتيكاني الثاني، دون أن يعني ذلك أن يقلل من «توتراته الداخلية بل وحتى تناقضاته». وفي تلك المناسبة، شدد بندكت السادس عشر على التغلب على حالة «الصدام» بين الدين والعصر الحديث «من الواضح أنه لم يعد هناك مجال للتصالح

(٤) المرجع السابق، صفحات ٤٢-٤٣، ٥١-٥٣.
(٥) المرجع السابق، ص ٥٨.

الإيجابي والمثمر بينهما»، وهي الحالة التي اتسمت بها الكنيسة في القرن التاسع عشر[٦].

بعد سنوات قليلة من خطاب سوبياكو، يعود بندكت السادس عشر إلى مفهوم «التناقض الحقيقي» الذي يدفع حاضرنا من خلال تقديم المزيد من التطور. «إن مشكلة أوروبا في العثور على هويتها تبدو لي حاضرة في حقيقة أننا في أوروبا الآن نعيش بروحين».

وتتسم الروح الأولى بأن لها «منطقًا عقليًّا تجريديًّا، مناهضًا للتاريخ، وينوي السيطرة على كل شيء لأنه يشعر أنه فوق كل الثقافات. منطق عقلي عثر أخيرًا على نفسه وينوي التحرر من جميع التقاليد والقيم الثقافية لصالح عقلانية تجريدية». والدليل على ذلك موثق في الحكم الأول لستراسبورغ على الصليب. وجاء في الحكم: «مثال على هذه العقلية التجريدية التي تريد أن تتحرر من جميع التقاليد، ومن التاريخ نفسه. ولكننا لا يمكن أن نحيا بهذه الطريقة. وعلاوة على ذلك، فإن المنطق العقلي الخالص مشروط هو أيضًا بموقف تاريخي محدد، وليس بوسعه أن يوجد إلا بهذا المعنى فقط». فما هي الروح الأوروبية الأخرى؟ «هي الروح التي يمكن أن نسميها بالروح المسيحية، والمنفتحة على كل ما هو عقلاني، باعتبار أنها هي التي خلقت جرأة العقل وحرية التفكير النقدي، ولكنها تظل مرتبطة بالجذور التي أدت إلى نشأة ما نسميه أوروبا التي بنتها على القيم العظيمة والنوايا الكبيرة في إطار رؤية الدين المسيحي»[٧].

(٦) بندكت السادس عشر، مخاطبًا الكوريا الرومانية، ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٥.
(٧) بندكت السادس عشر، مقابلة «أجراس أوروبا»، ١٥ أكتوبر ٢٠١٢.

عند هذه النقطة، وعلى ضوء التلميحات التي قدمناها يمكننا أن نفهم مشكلة أوروبا بشكل أفضل، وجذور أزمتها، وما هو على المحك فيها. إن الذي يتعرض للخطر اليوم هو الإنسان، وعقله، وحريته، بما في ذلك حرية أن تكون له عقلية نقدية. «الخطر الأكبر لا يكمن في تدمير الشعوب، والقتل، والاغتيال، وإنما محاولة السلطة تدمير ما هو إنساني. وجوهر كل ما هو إنساني ليس إلا الحرية، أي العلاقة مع اللانهائي». ولهذا فإن المعركة يتعين خوضها من الإنسان الذي يحس بأنه إنسان «المعركة بين التدين الأصيل والسلطة»(٨).

هذه هي طبيعة الأزمة، وهي ليست اقتصادية في المقام الأول. وإنما تتعلق بالأسس. لذلك من الضروري البدء في مواجهة حقيقة أن «ما يتعلق بالأسئلة الأنثروبولوجية الأساسية هو الشيء الصحيح ويمكن أن يصبح قانونًا ساريًا، وهو اليوم ليس واضحًا في حد ذاته. إن العثور على إجابة على سؤالنا، حول كيفية التعرف على ما هو صحيح حقًّا، ويستطيع بالتالي أن يخدم عدالة التشريع، لم يكن أمرًا سهلاً. واليوم، في ظل وفرة معرفتنا وقدراتنا، أصبح هذا السؤال أكثر صعوبة»(٩). وبدون وعي واضح بأن الدليل على تلك الأسس أصبح الشيء الموضوع على المحك، وبأن التعايش المستقر لن يكون ممكنًا بدون هذه الأسس، سوف نشرد في الجدل حول العواقب، متناسين أنها نشأت في مكان آخر، كما رأينا. وتعد استعادة الأساسيات هي الأمر الأكثر إلحاحًا الآن.

(٨) L. Giussani, “La religiosità autentica e il potere”, Tracce-Litterae Communionis، n. 2, febbraio 2005, p. 27.

(٩) بندكت السادس عشر، خطاب أمام البوندستاغ في برلين، ٢٢ سبتمبر ٢٠١١.

والرد على هذا الإلحاح لا يعني العودة إلى دولة طائفية أو استعادة أوروبا المؤسسة على قوانين مسيحية، في شكل من أشكال إعادة صياغة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، كما لو كانت هذه هي الإمكانية الوحيدة للدفاع عن الشخص وحريته وعقله. وهذا ضد طبيعة المسيحية نفسها. وقد أنكرت المسيحية «كدين للمضطهدين، وكدين عالمي» «على الدولة الحق في اعتبار الدين جزءًا من نظام الدولة، ومن ثم فرضت حرية العقيدة». ثم يجب أيضًا أن نضيف «حيث إن المسيحية، ضد طبيعتها، قد أصبحت للأسف تراث الدولة ودينها»، فقد أصبح «فضل التنوير هو إحياء القيم الأصلية للمسيحية [جميع البشر، دون تمييز، هم مخلوقات على صورة الله، ولديهم جميعًا الكرامة نفسها] وإعادة صوت العقل إليها»[١٠]. ولذلك، لا يتعلق الأمر بالعودة إلى لحظة تم تجاوزها بالفعل، بل ببداية مسار يمكن من خلاله إجراء حوار حقيقي حول الأسس.

في هذه الظروف الجديدة، من أين نبدأ؟

قلب الإنسان لا يستسلم

على الرغم من كل المحاولات الضخمة لتهميش الإنسان، ولتقليل الحاجة إلى عقله (بتغيير ما ينتج عن سؤاله) وإلحاح حريته (التي لا يمكن أن تتجنب التعبير عن نفسها في كل خطوة على أنها رغبة في الاكتمال)، يستمر قلب الإنسان خفاقًا، نابضًا بلا توقف. يمكننا أن

(١٠) J. Ratzinger, *L'Europa di Benedetto e la crisi delle culture,* op. cit., pp. 57-58.

نفاجئه بامتحانات متنوعة، بل ومربكة في بعض الأحيان، ولكن هذا لا يعني أنها ليست صادقة وأنها ليست مأساوية أحيانًا، وهي محاولات يقوم بها الأوروبيون اليوم سعيًا للوصول إلى الوفرة التي لا يستطيعون مقاومة الرغبة فيها، والتي تختفي أحيانًا تحت أردية متناقضة. والمثال الذي قد يساعد على فهم طبيعة المشكلة يتمثل في التقليص الذي عاش فيه العقل وعاشت فيه الحرية. كتب أحدهم: «الليلة، ذهبت لتناول العشاء مع اثنين من أصدقائي من المدرسة الثانوية وهما الآن مخطوبان ويعيشان معًا. بعد العشاء ظللنا نتحدث لفترة طويلة، وبرز السؤال حول إنجاب أطفال من عدمه. وفي لحظة من الحديث وجدته يقول: «لن أنجب طفلاً أبدًا. كيف أجرؤ على أن أجني على مسكين آخر بهذا الشقاء؟ أنا لن أتحمل هذه المسئولية». ثم أضاف: «إنني أخشى من حريتي، فهي في أحسن الأحوال غير مجدية، وفي أسوأ الأحوال قد تسبب ألمًا لشخص آخر. ما أنتظره من الحياة هو أن أحاول ارتكاب أقل الأضرار الممكنة». تحدثنا كثيرًا، وأخبراني عن الكثير من المخاوف التي يعيشانها وكيف يشعران أنهما الآن لا ينتظران أي شيء من الحياة، وهما اللذان لا يتجاوزان من العمر إلا ستة وعشرين عامًا فقط».

ليس هناك سوى الخوف من الحرية وراء رفض إنجاب الأطفال، أو ربما الخوف من فقدان حرية تم تصورها بطريقة مختزلة، وبالتالي الخوف من التخلي عن الذات والمساحات الخاصة. ولكن إلى أي حدٍّ تقيد هذه العقدة من المخاوف حياة الشاب المذكور في الرسالة؟ هنا، الحديث عن «القناعات الكبرى» ما هو إلا حديث عن الأسس، أي نقطة الدعم التي

تجعل تجربة الحرية ممكنة، بما تحمل من خبرة التحرر من المخاوف، والتي تسمح بالتفكير في الواقع بطريقة لا تخنقنا.

ويبين الحدث الذي أوردناه أننا إذا «ضللنا» الطريق إلى «أسس العيش» فلا يعني هذا حذف الأسئلة. بل يجعلها أكثر حدة، كما يقول الكاردينال أنجيلو سكولا: «ما هو الاختلاف الجنسي، ما هو الحب، ماذا يعني الإنجاب والتربية، لماذا يجب علينا العمل، لماذا يمكن أن يكون المجتمع المدني التعددي أكثر ثراء من المجتمع أحادي التكوين، كيف يمكننا أن نلتقي معًا لبناء شراكة فعالة في جميع المجتمعات المسيحية وحياة طيبة في المجتمع المدني؛ كيف يمكن تجديد عالم المال والاقتصاد، وكيف ننظر إلى الهشاشة، من المرض إلى الموت، وإلى الوهن المعنوي، وكيفية نسعى إلى العدالة، وكيف نتقاسم مع الفقراء ما معنا ونحن نعلم بحاجتهم؟ يجب إعادة كتابة كل هذا في عصرنا، مع إعادة التفكير فيه، ومن ثم العودة إلى الحياة فيه من جديد»[(١١)]. إعادة كتابته وإعادة التفكير فيه ثم عيشه من جديد. هذه هي طبيعة الاستفزاز الذي توجهه إلينا الأزمة التي غرقنا فيها. تقول حنا أرنت: «أزمة تجبرنا على العودة إلى الأسئلة، وتتطلب منا إجابات، لا يهم إن كانت جديدة أو قديمة، طالما أنها نتيجة البحث المباشر؛ ولا تتحول إلى كارثة إلا عندما نحاول مواجهتها بالأحكام المسبقة [من أي نوع]، أي التحيزات التي تفاقم الأزمة، وتدفع علاوة على ذلك، إلى التخلي عن العيش في الواقع، واستغلال الفرصة للتفكير، الفرصة

(١١) أ. سكولا ، خرجت الكلمات بعد عظة الذكرى التاسعة لوفاة الأب جوساني والثاني والثلاثين من الاعتراف الأبوي بجماعة الأخوية الشراكة والتحرير، ميلانو ، في ١١ فبراير ٢٠١٤.

التي تهيؤها الأزمة نفسها»[١٢]. لذا، وبدلاً من أن تكون ذريعة للشكوى والانغلاق، فإن كل هذه النقاط الإشكالية للحياة المشتركة في أوروبا تمثل فرصة عظيمة لاكتشاف أو إعادة اكتشاف القناعات الكبرى التي يمكنها أن تضمن التعايش نفسه. أن تختفي هذه القناعات العظيمة، أمر لا يجب أن يدهشنا. والسبب في ذلك لا يزال يذكره البابا بندكت السادس عشر. ففي حين يصبح ممكنًا في المجال المادي وجود «تقدم يمكن إضافته»، نجد أنه في مجال «الوعي الأخلاقي والقرار المعنوي لا يوجد مثل هذا الاحتمال لسبب بسيط هو أن حرية الإنسان هي دائمًا جديدة، ويجب دائمًا أن تتخذ قراراتها من جديد. تلك القرارات التي لم يتخذها غيرنا، وإلا لن نكون في هذه الحالة أحرارًا في الواقع. إن الحرية تفترض أن كل إنسان، كل جيل، ما هو إلا بداية جديدة بالنسبة للقرارات الأساسية». السبب النهائي وراء الحاجة الماسة إلى بداية جديدة هو أن طبيعة ثبوت هذه القناعات مختلفة عن طبيعة «الاختراعات المادية». والكنز المعنوي للبشرية غير موجود بمثل وجود الأدوات المستخدمة؛ بل موجود كأنه دعوة للحرية وكإمكانية لها»[١٣].

ولكن على ماذا ترتكز «القرارات الأساسية»؟

(١٢) H. Arendt, *Tra passato e futuro,* Garzanti, Milano 1991, p. 229.

(١٣) بندكت السادس عشر، الرسالة العامة: بالرجاء مخلَّصون، ٢٤.

الموضوع هو دائمًا الإنسان واكتماله

تكمن صيحة التحقق وراء كل محاولة إنسانية. وسماع هذه الصيحة ليس مضمونًا على الإطلاق، ويمثل الخيار الأول للحرية. ويذكّرنا ريلكه بالإغراء، الذي يتربص بنا دائمًا، لإسكاته: «يتآمر كل شيء لكي يصمت عنا كما يصمت/ عار، أو ربما أمل كبير يدركه الصمت»[١٤].

أولئك الذين لا يستسلمون لهذا الإغراء يجدون أنفسهم باحثين عن طرق يستطيعون التحقق الذاتي من خلالها، لكنهم يتعرضون دومًا لخطر اختزال يبدو لهم أقصر سبيلاً للوصول إلى الهدف على عجل وبنجاح. هذا ما نراه اليوم على سبيل المثال في محاولة التحقق المنجزة من خلال ما يسمى بـ «الحقوق الجديدة». وقد بين النقاش الذي دار حول هذه الحقوق معنى الجدل حول الأساسيات وكيف الوصول إليها.

وقد اتسعت هذه «الحقوق الجديدة» منذ منتصف السبعينيات أكثر وأكثر، وأصبح تسارعها قويًا في السنوات الخمس عشرة أو العشرين الأخيرة. وكان الدافع وراءها هو الرغبة في التحرر والتي شكلت روح ثورة الشباب عام ٦٨ - ليس من قبيل المصادفة أن الإجهاض قد تم اعتماده لأول مرة في عام ١٩٧٣ في الولايات المتحدة وفي نفس تلك السنوات في أوروبا بدأت تظهر قوانين الطلاق والإجهاض. نسمع اليوم عن الحق في الزواج والتبني حتى بين شخصين من نفس الجنس، والحق في إنجاب

(١٤) R.M. Rilke, “Seconda Elegia”, vv. 42-44, in *Elegie duinesi*, Einaudi, Torino 1978, p. 13.

طفل، والحق في تحديد الهوية الجنسية، وحقوق المتحولين جنسيًّا، وحق الطفل في عدم ولادته إن لم يكن سليمًا بدنيًّا، والحق في الموت؛ ويمكن أن تستمر القائمة طويلاً.

يشعر الكثيرون بهذه الحقوق الجديدة على أنها إهانة، واغتيال حقيقي للقيم التي تأسست عليها الحضارة الغربية عمومًا والحضارة الأوروبية على وجه الخصوص لقرون عديدة. دعونا نقول بشكل أوضح إن هذه الحقوق الجديدة تجذب الكثير من الناس، ولهذا السبب انتشرت بسهولة. ومن ناحية أخرى، يخشى الآخرون من أن تصبح من عوامل تدمير المجتمع. وحول مواضيع «الأخلاق العامة» هذه، ظهرت، ليس فقط في إيطاليا بل في جميع أنحاء أوروبا وحول العالم، شروخ اجتماعية عميقة وجدل سياسي شديد السخونة. لماذا هذا المزيج الغريب من السحر والنفور؟ فلنحاول أن نسأل من أين جاءت هذه « الحقوق الجديدة».

لقد نشأ كل حق منها نتيجة لاحتياجات إنسانية عميقة. الحاجة العاطفية، والرغبة في الأمومة والأبوة، والخوف من الألم والموت، والبحث عن الهوية الشخصية، وما إلى ذلك. لكلٍّ من هذه الحقوق الجديدة جذور في النسيج الذي يتكون منه كل وجود إنساني، ومن هنا جاءت جاذبيتها. إن تضاعف الحقوق الفردية يعبر عن توقع بأن النظام القانوني يمكن أن يحل المآسي الإنسانية ويضمن إشباع الاحتياجات اللانهائية التي تسكن قلب الإنسان.

والسمة المشتركة بينها هي أن جميع هذه الحقوق يأتي في مركزها شخص يريد أن يطالب بحق تقرير مصيره في جميع تفاصيل الحياة. فهو يريد أن يقرر ما إذا كان سيعيش أو يموت، يعاني أو لا يعاني، أن يكون لديه أو لا يكون لديه طفل، أن يكون رجلاً أو امرأة؛ إلى آخره. ومن ثم، فالأمر يتعلق بـ «أنا» يتم تصورها على أنها «حرية مطلقة» دون حدود، ولا تقبل أي نوع من الشروط. ولذلك فإن تقرير المصير (المطلق) وعدم التمييز، في ظل هذه الخلفية الثقافية، هما الكلمتان الرئيسيتان لثقافة الحقوق الجديدة. «إن الذات (الأنا) المعاصرة - مثل المراهق الأبدي - [...] لا تريد أن تسمع شيئًا عن القيود. في الواقع، أن تكون حرًّا معناه أن تكون في وضع يسمح لك بالوصول دائمًا إلى إمكانيات جديدة [...] مدعيًا القدرة على تحويل الرغبة إلى متعة [...] يمكنك أن تطاردها وتمسك بها. وهي رغبة يمكن أن تكون في الغالب على شكل منظم اجتماعيًّا يتمثل في الاستهلاك، ولكن أيضًا، وبطبيعة الحال، يمكن أن تكون أيضًا من الأفكار والخبرات والعلاقات. ونشعر حيالها فور أن نصل إليها بأنها لم تعد كافية. ومع ذلك، فإننا نبدأ في كل مرة من جديد، بالتركيز على موضوع آخر، علاقة أخرى، خبرة أخرى [...] مستمرين في استثمار طاقاتنا النفسية فيما يمكن أن يصبح بالدليل القطعي مخيبًا للآمال»(١٥).

تحمل هذه الثقافة في طياتها قناعة بأن الحصول على حقوق جديدة يشكل الطريق إلى التحقق الشخصي. وتتصور هذه الثقافة أنها تستطيع

(١٥) M. Magatti C. Giaccardi, *Generativi di tutto il mondo, unitevi!*, Feltrinelli, Milano 2014, p. 14.

بهذه الطريقة تجنب الجدل حول الأساسيات أو جعله سطحيًّا، وهو ما يمكن تلخيصه في السؤال الذي طرحه ليوباردي: وأنا، ماذا أكون؟[١٦] لكن عدم طرح السؤال حول ماهية الذات، ما هي «الأنا»، مثل محاولة علاج مرض دون تشخيص! عندئذ، وبما أن الجدل حول الأساسيات يعتبر جدلاً تجريديًّا للغاية فيما يتعلق بحاجات الحياة، يعتمد المرء على التقنيات والإجراءات. من هذه النقطة بدأ السباق للحصول على الاعتراف بحقوق جديدة من التشريعات ومن الفقه القضائي.

لكن النقطة الحرجة للثقافة المعاصرة تكمن تحديدًا في قصر النظر الذي تمارسه هذه الثقافة عند رؤية الحاجات الإنسانية العميقة. وهي تطرح على المستويين المادي والوجودي مضاعفة لا تنتهي للإجابات الجزئية، عندما تفشل في فهم الاحتياجات التكوينية اللانهائية للإنسان. وهكذا يتم تقديم أجوبة جزئية على أسئلة مبتسرة. ولكن، كما يذكرنا تشيزاري بافيزي، «ما يسعى إليه الإنسان في الملذات لانهائي، ولن يتخلى أحد عن الأمل في تحقيق هذه اللانهائية»[١٧]. ومن ثم، فإن مضاعفة «اللانهائيات الزائفة» حتى أقصى مدى لها (مستعيرين كلمات بندكت السادس عشر) لن تلبي إطلاقًا احتياجًا له طبيعة لا نهائية. فليس التراكم الكمي للمنافع والخبرات هو الذي يمكنه أن يطمئن «القلب القلق» للإنسان.

(١٦) G. Leopardi, "Canto notturno di un pastore errante dell'Asia", XXIII, v. 89, in *Cara beltà*, BUR, Milano 2010, p. 69.

(١٧) C. Pavese, *Il mestiere di vivere,* Einaudi, Torino 1999, p. 190.

إن مأساة ثقافتنا، إذن، ليست في حقيقة أن كل شيء مباح للإنسان، بقدر ما هي في الوعود والأوهام الزائفة التي تنطوي عليها هذه الإباحة. سيكون كل شخص قادرًا على التحقق في تجربته الخاصة مما إذا كان تحقيق الحقوق التي تتجدد دائمًا هو السبيل الذي يسلكه من أجل أن يحقق ذاته، أو أن ذلك يؤدي على النقيض إلى نتيجة معاكسة. ذلك أن عدم فهم الطبيعة اللانهائية للرغبة، وعدم التعرف على نسيج «الأنا»، يؤديان في الواقع إلى تقليص «الشخص» إلى «النوع»، إلى عوامله البيولوجية والفسيولوجية وما إلى ذلك. هنا يظهر التناقض الجوهري لمفهوم عن الإنسان منتشر على نطاق واسع في مجتمعاتنا المتقدمة، والذي يتغنى بـ «أنا» منعدمة القيود والحدود على نحو مطلق فيما يتعلق بحقوقه الجديدة، وفي الوقت نفسه يؤكد ضمنيًّا أن «الشخص» في هذه الحقوق لا يساوي شيئًا؛ لأنه يذوب في عوامل سابقة، سواء كانت مادية أو طبيعية أو عشوائية.

ماذا يقول لنا هذا عن وضع الإنسان اليوم؟ ينطبق كل ما قلنا على المحاولات التي تعارض هذا الاتجاه، وبالنهج نفسه دون تغيير. ويتوقع هؤلاء المعارضون حلولاً للمشاكل من خلال تشريعات مضادة، وهكذا يتجنبون هم أيضًا الجدل حول الأساسيات. من المؤكد أن التشريع الصحيح أفضل دائمًا من التشريع الخطأ، لكن التاريخ الحديث يبين أنه لا يوجد قانون واحد تمكن في حد ذاته من منع الإنجراف الذي نراه أمام أعيننا.

كلا الجانبين يشتركان في النهج نفسه. وتنطبق كلمات ت. إس إليوت عليهما معًا. يقول إليوت: «إنهم يحاولون دائمًا الهروب/ من الظلمة الخارجية والداخلية/ إذ يحلمون بأنظمة غاية في المثالية بحيث لا يحتاج أي شخص إلى أن يكون خيّرًا بعد الآن»(١٨). على هؤلاء وعلى أولئك يسري الكلام نفسه.

لكن محاولة حل المسائل الإنسانية بالإجراءات لن تكون كافية أبدًا. وهو ما لا يزال يقوله بندكت السادس عشر: «بما أن الإنسان يبقى حرًّا دائمًا، ولأن حريته دائمًا هشة، فلن توجد مطلقًا في هذا العالم مملكة للخير الراسخ رسوخًا نهائيًّا. ومن يعد بعالم أفضل يمكنه أن يظل كذلك دائمًا دون رجعة، أي يظل يقدم في الواقع وعدًا زائفًا يجهل الحرية الإنسانية». وأيضًا «إذا كانت هناك هياكل من شأنها أن تثبت بلا رجعة حالة - خيّرة - محددة للعالم، فسوف تنعدم حرية الإنسان، وبناء عليه فلن تكون هناك بالضرورة أية هياكل خيّرة». ولذلك يجب أن نستنتج أن «الهياكل الخيّرة تساعد، لكنها ليست كافية وحدها. لا يمكن أبدًا تحرير الإنسان من خارجه فقط»(١٩).

هل هناك سبيل آخر؟

(١٨) T.S. Eliot, *Cori da "La Rocca"*, op. cit., p. 89.

(١٩) بندكت السادس عشر، الرسالة العامة: بالرجاء مخلَّصون، ٢٤,٢٥.

نحو تعميق طبيعة الشخص

لا يمكننا إعادة كتابة القيم والتفكير فيها وإحياءها إلا من خلال التركيز على الإنسان ومكوناته المتلهفة إلى التحقق، واحتياجاته العميقة. إنه بالفعل «المعنى الديني [...] هو الجذر الذي تنبثق منه القيم. والقيمة، في نهاية المطاف، هي ذلك المنظور للعلاقة بين الوحدات والكل، المطلق. إن مسئولية الإنسان، من خلال كل أنواع الضغوط التي تنشأ من ارتطامه بالواقع، تلتزم بالإجابة على تلك الأسئلة التي يعبر عنها المعنى الديني – أو «القلب» – كما في الكتاب المقدس»[٢٠]. والمعنى الديني هو الذي يقيس ما يجب أن تكون عليه القيمة، باعتباره مجموعة من الاحتياجات الكبرى، مثل الحق والخير والجمال والسعادة، التي تحدد أساس كل كائن بشري. ووحده الوعي بالعامل المشترك بين البشر أجمعين هو الذي يمكنه أن يفتح الطريق أمام البحث عن يقين مشترك.

ويحذر الأب جوساني من أن «حل المشكلات التي تطرحها الحياة كل يوم لا يحدث مباشرة من خلال مواجهة المشاكل، بل بتعميق طبيعة الشخص الذي يواجهها». وبعبارة أخرى «يتم حل التفاصيل من خلال التعمق في الأساسيات»[٢١]. هذا هو التحدي الكبير الذي يواجه أوروبا. ويسجل الوضع الكارثي للتربية تقلصًا للإنسان، وتهميشًا له، وانعدام الوعي بماهيته الحقيقية، وبطبيعة رغبته، وعدم التناسب الهيكلي بين

(٢٠) L. Giussani, L’io, il potere, le opere, Marietti, Genova 2000, p. 166.
(٢١) A. Savorana, Vita di don Giussani, BUR, Milano 2014, p. 489.

توقعاته وما يستطيع أن يحققه بقوته المنفردة. وقد ذكرنا من قبل تقلص حجم الدين وحجم الحرية، ونضيف إليهما تقلص حجم الرغبة. يقول الأب جوساني: «إن تقلص الرغبات والاحتياجات، أو التحكم فيها، هو سلاح السلطة». وكل ما يحيط بنا من «عقلية سائدة [...]، وسلطة، يحقق [فينا] اغترابًا عن أنفسنا»(٢٢). يبدو الأمر وكأنهم يجردوننا من وجودنا: لكي نصبح تحت رحمة الكثير من الصور المتضاربة للرغبة، ونحن نتوقع بشكل واهم حل المشكلة الإنسانية من خلال بعض القواعد.

في مواجهة مثل هذا الوضع، دعونا نسأل أنفسنا: هل من الممكن إعادة إيقاظ الإنسان بحيث يكون نفسه حقًّا، يصبح مدركًا تمامًا لنفسه، يتعمق في طبيعته، وبالتالي يحرر نفسه من ديكتاتورية رغباته «الصغيرة» ومن جميع الإجابات الخاطئة؟ بدون هذه اليقظة، لا يمكن للإنسان أن يتجنب إثقال كاهله من قبل أكثر الديكتاتوريات تنوعًا، والتي تفشل في منحه التحقق الذي يتوق إليه.

ولكن كيف تستيقظ الرغبة مرة أخرى؟ ليس من خلال الاستدلال العقلي أو بعض الأساليب النفسية، ولكن فقط من خلال مقابلة شخص ما نشطت فيه دينامية الرغبة بالفعل. الفعل. وفي هذا الصدد، نلاحظ كيف استمر الحوار بين كاتب الرسالة الشاب وصديقيه الخائفين من حريتهما. يقول الشاب بعد الاستماع إلى قصة صديقيه: «معكما الحق في أن يدرككما الخوف، فقد أدركتما بذكائكما أن الحرية شيء كبير

(٢٢) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro* (1986-1987), op. cit., pp. 253-254, 182.

وعسير، وأن الحياة شيء جاد. ولكن ألا ترغبان في تذوق الحرية؟ ألا تودان أن تتمكنا من الرغبة في تحقيق السعادة؟ لقد قلت لهما إنني لا أستطيع التخلص من هذه الرغبة! وظلا هما لبرهة صامتين ثم قالا لي: «هذا هو ما نحسدك عليه، أنك لست خائفًا». وقال لي الشاب ونحن نتبادل التحية بعد نهاية السهرة: «دعني أراك كثيرًا، فإنني عندما أكون معك أشعر بخوف أقل أنا أيضًا».

ليس مثل الأب جوساني من يستطيع أن يعظم قيمة مثل هذه الخبرة، التي تتميز، على قدر بساطتها، بقوتها الثقافية، لكي يجيب في النهاية على سؤال: كيف يتم تنبيه «الأنا»: «ما أنا بصدد تقديمه ليس إجابة [مناسبة فقط] للوضع الذي نحن فيه [...]؛ ما أقوله هو قاعدة، قانون عام، منذ أن وجد الإنسان وسيظل طالما أنه موجود: يعثر الشخص على نفسه في اللقاء الحي [على النحو الذي وصفناه للتو: «هذا هو ما نحسدك عليه، أنك لست خائفًا... دعني أراك كثيرًا»]، وهو ما يعني أنه في الوجود الذي نلتقي فيه بجاذبية ونلمسها [...] يتأكد أن قلبنا، وما يشتمل عليه [...] موجود، حاضر»[٢٣]. غالبًا ما يكون هذا القلب نائمًا، مدفونًا تحت آلاف الأنقاض، تحت ألف حالة من الانحرافات، ولكن يتم إيقاظه وإثارة الانتباه فيه: موجود، القلب موجود، قلبك موجود. لديك صديق، تجد صديق حياتك في الشارع عندما يحدث لك هذا معه، عندما تجد نفسك أمام شخص يوقظ فيك نفسك. هذا صديق، والباقون جميعًا لا يتركون أثرًا.

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٨٢.

وكان بندكت السادس عشر يقول: «ما نحتاجه بشكل خاص في هذه اللحظة من التاريخ هم أناس يستطيعون من خلال الإيمان المستنير أن يجعلوا الله مصدقًا في هذا العالم». [...] نحن بحاجة إلى أناس يحفظون أبصارهم متعلقة بالله مباشرة، ويتعلمون منه الإنسانية الحقة. نحتاج إلى أناس يستنير فكرهم بنور الله، ويفتح الله قلوبهم، بحيث يستطيع فكرهم أن يخاطب فكر الآخرين، ويفتح قلوبهم حتى تستطيع أن تفتح قلوب الآخرين[٢٤].

عندها يفهم المرء الخير الذي يشكل الآخر. والحقيقة أنه بدون اللقاء مع الآخر - ومع آخر بعينه - لا يمكن للذات أن تظهر أو تحافظ على يقظة «الأنا» منفتحة على الأسئلة الأساسية للعيش، ولا ترضى بإجابات جزئية. العلاقة مع الآخر هي بعد أنثروبولوجي تأسيسي.

الآخر نعمة

على هذا الأساس - إدراك أن الآخر نعمة، كما يوثق لذلك الحوار بين الأصدقاء - يمكن بناء أوروبا. من دون استعادة التجربة الأولية التي لا يشكل فيها الآخر تهديدًا، بل نعمة تحقق «الأنا»، سوف يكون من الصعب الخروج من الأزمة التي نجد أنفسنا فيها، في العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية. ومن هنا تبرز الحاجة الملحة إلى أن تكون أوروبا هي المساحة التي يمكننا من خلالها مقابلة الأشخاص المختلفين،

---

(٢٤) J. Ratzinger, *L'Europa di Benedetto e la crisi delle culture,* op. cit., pp. 63-64.

ولكلٍّ منهم هويته الخاصة، لكي نتساعد على السير نحو مصير السعادة التي نتوق إليها جميعًا.

إن الدفاع عن مساحة الحرية لكل واحد وللجميع هو السبب المؤكد للالتزام بأوروبا لا يوجد فيها أي فرض من جانب أي طرف، ولا إقصاء على أساس تصورات مسبقة أو الانتماء الغريب عن انتمائك، أوروبا يمكن فيها لأي شخص أن يعطي مساهمته الخاصة بحرية، ويقدم شهادته الخاصة، المعترف به على أنه نعمة للجميع دون أن يضطر أي أوروبي إلى التخلي عن هويته الخاصة للانتماء إلى البيت المشترك.

فقط في اللقاء مع الآخر يمكننا أن نطور معًا «عملية التفكير الحساسة للحقيقة»[٢٥] والتي يتحدث عنها هابرماس. ويمكننا، في هذا المعنى، أن ندرك المزيد من نتائج مقولة البابا فرانشيسكو: «ما الحقيقة إلا علاقة! لدرجة أن كل واحد منا يدركها، أي الحقيقة، ويعبر عنها منطلقًا من نفسه: من تاريخه وثقافته، ومن الوضع الذي يعيش فيه، وهكذا»[٢٦]. ويقول أيضًا: «التزامنا لا يتألف بشكل حصري من أعمال أو برامج للترويج والمساعدة [...]، ولكن أولاً وقبل كل شيء [من]

(٢٥) راجع: الخطبة التي كان مقررًا لها يوم ١٧ يناير ٢٠٠٨ للبابا بندكت السادس عشر أثناء زيارته لجامعة روما لا سابيسنا، «يعبر يورجن هابرماس، في رأيي، عن إجماع واسع للفكر الحالي، عندما يقول إن شرعية أي دستور، باعتباره شرطًا لازمًا للقانونية، مستمد من مصدرين: من المشاركة السياسية المتساوية لجميع المواطنين والشكل العقلاني الذي يتم به حل التناقضات السياسية. وفيما يتعلق بهذا «الشكل العقلاني» ، يلاحظ أنه لا يمكن أن يكون مجرد صراع على أغلبيات حسابية فحسب، بل يجب أن يتسم بأنه «عملية تفكير حساسة للحقيقة». (راجع: J. Habermas, "I fondamenti morali prepolitici dello stato liberale", Humanitas, anno LIX, n. 2, Morcelliana, Brescia 2004, pp. 239-250).

(٢٦) Francesco, "Lettera a chi non crede", *la Repubblica,* 11 settembre 2013, p. 2.

الانتباه إلى الآخر مع اعتباره شيئًا واحدًا وحيدًا مع ذاته»[٢٧]. فقط في هذا اللقاء المتجدد، ستتمكن الكلمات الكبرى القليلة التي تمخضت عن قيام أوروبا من العودة إلى الحياة. لأنه، كما يذكّرنا بندكت السادس عشر، «حتى أفضل الهياكل تعمل فقط إذا كانت هناك قناعات حية في المجتمع قادرة على تحفيز البشر على الالتزام الحر بنظام المجتمع. الحرية تتطلب قناعة. لا توجد قناعة بحد ذاتها [ولا يمكن أن تنشأ عن قانون]، ولكن يجب استعادتها مرة أخرى بشكل جماعي»[٢٨]. هذا الاسترداد للمعتقدات الأساسية لا يحدث داخل علاقة. الطريقة التي طفت بها «القناعات الأساسية» بكاملها (الشخص، والقيمة المطلقة للفرد، والحرية والكرامة لكل إنسان، وما إلى ذلك) أصبحت هي المنهج التي يمكن الاسترداد من خلاله: ليس هناك منهج آخر.

نحن المسيحيين لا نخاف أن ندخل، دون امتيازات، في هذا الحوار على اتساع نطاقه. هذه مناسبة ثمينة لنا لكي نتحقق من قدرة الحدث المسيحي[٢٩] على الوقوف في وجه التحديات الجديدة؛ لأنه يمنحنا فرصة الشهادة أمام الجميع بما يحدث في الحياة عندما يشتبك الإنسان مع الحدث المسيحي في مسيرة الحياة. لقد أظهرت لنا تجربتنا، في اللقاء مع المسيحية، أن عصب القيم التي يملكها شخص ما ليست هي القوانين المسيحية، ولا الهياكل

(٢٧) البابا فرانسيس، إرشاد رسولي حول إعلان الإنجيل في عالم اليوم، ١٩٩.
(٢٨) بندكت السادس عشر، الرسالة العامة: بالرجاء مخلّصون، ٢٤.
(٢٩) الحدث المسيحي هو عنوان كتاب لدون جوساني جاء ذكره مرارًا في هذا الكتاب، ويشير هذا المصطلح الخاص إلى أن تناول حياة المسيح باعتباره حدثا حيا وليس سيرة ميتة أو فلسفة نظرية (المترجم).

القضائية، ولا السياسات الدينية، وإنما حدث المسيح. لهذا السبب فإننا لا نضع أملنا، لأنفسنا وللآخرين، في أي شيء آخر سوى إعادة حدث المسيح في لقاء إنساني. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال وضع البعد الخاص بالحدث في مواجهة مع البعد القانوني، وإنما بيان صلة النسب فيما بينهما. وبالفعل فإن إعادة إحداث الحدث المسيحي هو الذي يعيد للإنسان انفتاحه لكي يكتشف نفسه ويسمح لذكاء الإيمان بأن يصبح ذكاءً للواقع، بحيث يمكن للمسيحيين أن يقدموا للجميع مساهمات أصلية وذات مغزى، مما يحيي تلك القناعات التي يمكن إدراجها ضمن قانون المجتمع.

وهذا هو التوضيح الذي يقع في بؤرة «المجد الإنجيلي» (كتاب للبابا بندكت السادس عشر): الشهادة بأنه في العالم الكاثوليكي، أصبحت معركة الدفاع عن القيم أولوية بمرور الوقت، حتى أصبحت أكثر أهمية من التواصل مع مستجدات المسيح، والشهادة على إنسانيته. هذا التبادل بين السوابق واللواحق يسجل سقوط «البيلاجيانية»[٣٠] في المسيحية الحالية، والترويج لمسيحية خاصة برجال الدين المسيحي (وفقًا لتعريف ريمي براغ)[٣١]، محرومة من الغفران. ولا يقع البديل، كما يشكو البعض، في الانعزال «الروحاني» من العالم. وإنما يتمثل البديل الحقيقي في عدم

(٣٠) البيلاجيانية هي نظرية لاهوتية يعود اسمها إلى الراهب بيلاجيوس (٣٥٤ - ٤٢٠ م) ترى أن الخطيئة الأصلية لم تؤثر على الطبيعة البشرية وأن إرادة الإنسان لا تزال قادرة على الاختيار بين الخير والشر بدون مساعدة إلهية خاصة (المترجم).

(٣١) Cfr. R. Brague, Europe. La voie romaine, Criterion, Paris 1992) trad. it., Il futuro. (dell'Occidente Nel modello romano la salvezza dell'Europa, Rusconi, Milano 1998.

تفريغ المجتمع المسيحي من عمقه التاريخي، الذي يقدم مساهمته الأصلية «عن طريق إيقاظ قوى التحرر الحقيقي في البشر من خلال الإيمان»(٣٢).

ومن ينخرط في المشهد العام، في المجالين الثقافي أو السياسي، عليه واجب، كمسيحي، أن يعارض الانجراف الأنثروبولوجي الحالي. لكن هذا التزام لا يمكن أن يشمل الكنيسة ككل، بما تمثله الكنيسة، والتي عليها اليوم واجب اللقاء مع البشر، بغض النظر عن أيديولوجيتهم، أو انتمائهم السياسي، لكي يشهدوا على «جاذبية المسيح». يبقى التزام المسيحيين في السياسة وفي المجالات التي تتقرر فيها المصلحة العامة للإنسان أمرًا ضروريًّا. بل يشير هذا الالتزام إلى الصيغ التي يجب تقاسمها والتي نجحت المسيحية في البرهنة عليها على مر الزمن، من خلال نموذج الفقه الاجتماعي للكنيسة. هذا أمر هام اليوم، أكثر من أي وقت مضى. دون أن ننسى أبدًا أنه في ظل الظروف الراهنة يفترض هذا الالتزام البولسي (نسبة إلى بولس) في الغالب وفي حدود الممكن، قيمة نقدية احتوائية للآثار السلبية المترتبة على الإجراءات المجردة والعقلية المسببة لها. غير أننا لا يمكن أن نفترض أن تأثير هذا الالتزام، رغم جدارته بهذا، يمكن أن ينشأ عنه تلقائيًّا التجديد المثالي والروحي لمدينة البشر. فهذا ينبع من «ما يأتي أولاً»، وهذا هو ما يتعلق بالبداية، بإنسانية جديدة تتولد من المحبة للمسيح، ومن محبة المسيح.

(٣٢) Benedetto XVI, Accanto a Giovanni Paolo II, Ares, Milano 2014, p. 18.

إنه هذا الوعي هو الذي يسمح لنا برؤية حدود مواقف أولئك الذين يعتقدون أنهم يستطيعون حل كل شيء من خلال الإجراءات أو القوانين، من خلال الاحتشاد والاحتشاد المضاد، وأنهم بهذا يظنون أن الدفاع عن مساحة الحرية أقل من اللازم. وقد يرغب الكثيرون في أن يمر تحقيق الحقوق أو حظرها من خلال السياسة. وإنهم بهذا قد ينقذون أنفسهم «ليكونوا خيرين»، بالمعنى الذي استخدمه إليوت. ما الذي تعلمنا إياه حقيقة أنه «ولا حتى الجهد العظيم حقًّا» لكانط كان قادرًا على خلق اليقين اللازم الذي يمكن تقاسمه»؟ ما الذي نتعلمه من تاريخنا الحديث، بعد أن رأينا أن القوانين الجيدة لم تكن كافية للمحافظة على قناعاتنا الكبرى حية؟ لا يزال الطريق الذي لا بد أن نقطعه حتى نصل إلى «اليقين المشترك» طويلاً[٣٣].

المسيرة الطويلة التي قطعتها الكنيسة لتوضيح مفهوم «الحرية الدينية» يمكن أن تساعد في فهم أن الدفاع عن حيز هذه الحرية ربما لا يكون ضئيلاً. بعد عمل طويل، في المجمع الفاتيكاني الثاني، أعلنت الكنيسة أن «الإنسان له الحق في الحرية الدينية»، تمامًا كما يستمر في اعتناق المسيحية على أنها «الدين الحقيقي» الوحيد. لم يكن الاعتراف بالحرية الدينية حلاً توفيقيًّا، أو كما قد يقال: بما أننا لم نتمكن من إقناع الناس بأن المسيحية هي الدين الحقيقي، فعلى الأقل ندافع عن الحرية الدينية. لا، لقد كان السبب الذي دفع الكنيسة إلى تغيير الممارسة التي دامت قرونًا، قرونًا عديدة، هو التعمق في طبيعة الحقيقة والطريق للوصول إليها:

(٣٣) J. Ratzinger, L’Europa di Benedetto e la crisi delle culture, op. cit., p. 62.

«الحقيقة لا تفرض نفسها إلا بقوة الحقيقة نفسها»[٣٤]. كانت هذه هي القناعة الثابتة للكنيسة في القرون الأولى، الثورة المسيحية الكبرى التي تأسست على التمييز بين المدينتين، بين الله وقيصر. وقد خفت هذه القناعة بعد مرسوم تيسالونيكي (٣٨٠ م) الذي أصدره الإمبراطور ثيودوسيوس. بالعودة إلى الروح البطرسية، أمكن لمجمع الفاتيكان الثاني التأكيد على أن «البشر يجب أن يكونوا محصنين ضد الإكراه [...] بحيث لا يضطر أحد أن يعمل في الشأن الديني ضد ضميره أو يتم منعه، ضمن الحدود المقبولة، من العمل امتثالاً لدينه». إذا كان هذا يمكن أن يقال عن القيمة الأعظم، فما يقال أكثر من ذلك عن كل القيم الأخرى! وأخيرًا: «يجب الاعتراف بحق الشخص في الحرية الدينية وإقرارها كحق مدني في النظام القانوني للمجتمع»[٣٥]. فقط إذا أصبحت أوروبا مساحة للحرية، حيث يمكن لأي شخص أن يكون في مأمن من الإكراه، أن يكمل مسيرته الإنسانية مع من يجده في طريقه، أن يكون بوسعه إحياء الاهتمام بالحوار، من أجل لقاء يساهم فيه كل واحد بخبرته حتى الوصول إلى «اليقين المشترك» الضروري للحياة المشتركة.

إن رغبتنا هي أن تصبح أوروبا فضاءً للحرية، للقاء الباحثين عن الحقيقة. ويستحق هذا الالتزام أن نبذل من أجله العناء.

---

(٣٤) Dichiarazione sulla libertà religiosa Dignitatis Humanae, Proemio, 1.
(٣٥) المرجع السابق، 2.I.

٢

الحقيقة والحرية: مثال نموذجي

ما يدهش في عصرنا الحالي شدة التحدي الذي نخضع له، وسرعة ما يعتري العقلية من تغيير في البلدان الأوروبية وفي الغرب بشكل عام.

ما سأقوله لا يدعي الاكتمال أو التشبع. أود فقط أن أقدم بعض الأفكار للتأمل من أجل اكتساب الوعي بالزمن الذي نعيش فيه، باتباع التصور الواعي حقًّا، للبابا بندكت السادس عشر والبابا فرانشسكو.

البراهين والتاريخ

أ) النقطة الأولى التي يجب أن نؤكد عليها هي «انهيار البراهين»، وهو تعبير موجز للموقف الذي وصفته في مداخلة لي عن أوروبا. تكلم راتزينجر عن «انهيار اليقين الديني القديم» وما يليه من «انهيار معنى

الإنسانية»[1]. فعن ماذا كان يتحدث؟ كيف يمكن أن ينهار البرهان؟ يكاد يظهر في الأمر تناقض. فعن أية براهين نتحدث؟

يمكننا البحث معًا عن نقطة الانطلاق في الظاهرة، والتي سوف نتعاون على معرفتها، في محاولة التنويريين استخراج قيما أساسية قامت عليها أوروبا حتى بضعة عقود قليلة مضت، في الإطار الديني، وبصفة خاصة الدين المسيحي، والتي كانوا تاريخيًّا غارقين فيها. في عصر «المواجهة الدينية» كما يلاحظ راتزنجر، كان هناك بحث عن هذه القيم وهذه القوانين، عن «برهان يجعلها مستقلة عن الانقسامات المتعددة للفلسفات والأديان»، وتلك محاولة مفهومة، خاصة بعد الانقسام الذي جاءت به حركة الإصلاح الديني والصدامات التي تلته والتي سميت بالحروب الدينية بين المسيحيين، فقد كان هناك احتياج «لضمان أسس التعايش، وبصفة أعم، ضمان أسس الإنسانية»، بعيدًا عن أية إشارة إلى المسيحية، على أرض محايدة، أرض أكثر أمنًا، محمية من الخلافات، إذا جاز التعبير.

«وبدا هذا المشروع حينئذ ممكنًا لأن القناعات الأساسية العظيمة التي أنشأتها المسيحية قاومت إلى حدٍّ كبير، وبدت عصية على الإنكار»[2]. وساد التفكير بأنها لا تزال صالحة حتى وإن لم يكن الله موجودا. فماذا كانت نتيجة هذه المحاولة؟ ويؤكد راتزنجر هذا بعبارات لا لبس فيها: «إن

---

(١) J. Ratzinger, Fede, Verità, *Tolleranza. Il cristianesimo e le religioni del mondo,* Cantagalli, Siena 2003, p. 147.

(٢) J. Ratzinger, *L'Europa di Benedetto e la crisi delle culture,* op. cit., p. 61.

البحث عن اليقين المطمئن، والذي لا يمكن معارضته، ويتجاوز جميع الخلافات، قد فشل». إن هذه القناعات لم تنجح في اختبار «استقلاليتها»، حتى وإن لم يتخيل أحد سرعة غروبها. «ولا حتى الجهد العظيم حقًّا للفيلسوف كانط كان قادرًا على خلق اليقين اللازم الذي يمكن تقاسمه. «وإذا كان كانط، وهو ينفي معرفة الله في مجال العقل الخالص، قد حفظ لله دور «فارض» العقل العملي، التي تتضمنها السلوكيات الأخلاقية، وبعده تم تطوير المحاولة «لإدراج العناصر الإنسانية، بفصلها التام عن الله. خلافًا لما كان معتقدًا، يبدو أن هذا الانفصال يقودنا إلى «حافة الهاوية، وإلى الاستبعاد النهائي للإنسان»[٣].

التقط «رومانو جوارديني» بوضوح جذور هذه الظاهرة المذكورة، مشددا على الصلة بين تأكيد القيم الأساسية لما هو إنساني والمسيحية المعيشة: «لقد رأينا أنه منذ بداية العصر الحديث تتم صياغة ثقافة غير مسيحية. لمدة طويلة كان الإنكار موجهًا فقط لمحتوى الوحي نفسه، وليس ضد القيم الأخلاقية، فردية كانت أو اجتماعية، التي تطورت في ظل تأثيرها. والثقافة الحديثة، في الواقع، تزعم ارتكازها على تلك القيم، على وجه التحديد ووفقا لوجهة النظر هذه، التي اعتمدتها الدراسات التاريخية على نطاق واسع، فإن قيما مثل الشخصانية، وكرامة الفرد، والاحترام المتبادل، والتعاون المتبادلة، هي من الإمكانيات البشرية الفطرية التي كشف عنها هذا العصر الحديث وطورها. من المؤكد أن الثقافة الإنسانية في العصور الأولى للمسيحية قد شجعت على تجذرها،

(٣) المرجع السابق صفحات ٦١-٦٢.

فيما تطورت أكثر في العصور الوسطى بسبب القلق الديني على الحياة الداخلية وعلى أعمال البر النشطة، ولكن الاستقلالية الفردية بعد ذلك أدركت ذاتها وأصبحت من المكتسبات الطبيعية المستقلة عن المسيحية. ويتم التعبير عن هذا الرأي في أشكال كثيرة، وهو ممثل على نحو خاص في حقوق الإنسان في زمن الثورة الفرنسية»(٤). ويقارن كانط المسار التاريخي الذي قاد حركة التنوير إلى مراحل نمو الفرد من الطفولة وحتى مرحلة النضج. فالإنسانية في البداية كانت مثل الطفل، المحتاج لأم وأب، لأنه لا يستطيع أن يستقل بفكره، ولا يختار منفردا. ولكنه عندما يكبر يمكنه الاستغناء عن هذه الصلة ويعيش على نحو مستقل. إنه الخروج من حالة الأقلية. إن التاريخ كله حتى عصر التنوير قد يكون متوافقا مع مرحلتي الطفولة والمراهقة للإنسانية. ويعني هذا ضمنًا أنه ما أن تنقشع الغمامة عن استقلالية العقل، يمكننا أيضًا الاستغناء عما جعله ممكنا.

وكانت هذه هي المحاولة الأخرى للتأكيد على القيم بغض النظر عما جعلها تنبت وتتطور وتنمو. من هذا المنظور، إذا كانت الكنيسة مفيدة في الحصول على مستوى معين من الوعي الذاتي للإنسان، فإنه ما أن يتم الوصول إلى هذه الغاية حتى يمكن الاستغناء عنها. ولكن هذه المحاولة، كما رأينا، قد فشلت.

(٤) R. Guardini, *La fine dell'epoca moderna. Il potere,* Morcelliana, Brescia 1954, pp. 98-99.

ويدعو جوارديني إلى الانتباه إلى أن هذه القيم الأساسية «مرتبطة بالوحي»، وأنها دخلت التاريخ مع المسيح، لقوة شهادته وقدرته على إعادة العقل والحرية للإنسان. من خلال المسيحية.

«تتحرر في الإنسان قوى هي في حد ذاتها قوى «طبيعية»، ولكنها لا تتحقق خارج نطاق هذه العلاقة.» هنا تكمن القيمة الأساسية: «القيم في حد ذاتها واضحة»، (كقيمة الحياة وقيمة الشخص) وتصبح «مرئية للعين ومقبولة للإرادة «فقط بقوة المسيح والإيمان المسيحي، «وفي هذا الجو»، ثم تظل فيه. فقيمة الشخص، على سبيل المثال، إذا تناولناها في شكلها المكتمل، قد ظهرت في العالم مع المسيح، من خلال الشهادة على علاقة مع الإنسان المعروف قبل عصره، حتى أن كل من يلتقي به يتعجب من حاله: ولكن هل رأينا شيئا مثل هذا؟[٥] «يتمثل العنصر الأساسي لنظرة يسوع المسيح في وجود واقع أعلى من أي واقع موجود في الزمان والمكان داخل كل إنسان. لا يساوي العالم كله جزءا من إنسان، كما لا يوجد له مثيل آخر في الكون، من اللحظة الأولى للتفكير في خلقه وحتى الخطوة الأخيرة لشيخوخته المتهالكة. إن لكل إنسان مبدأ أصلي غير قابل للاختزال، وأساس لحق غير قابل للتصرف، ومصدر للقيم»[٦].

كل شيء بدأ من تلك النقطة، من خلال شهادة، ومن داخل بيئة ثقافية واجتماعية محددة. ولذلك، يضيف جوارديني فإن «فكرة أن هذه

(٥) انجيل مرقس 2,12.
(٦) L. Giussani, *All'origine della pretesa cristiana*, Rizzoli, Milano 2001, p. 104.

القيم وهذه المواقف تنتمي ببساطة إلى تطور الطبيعة البشرية تثبت أنها تسيء فهم حقيقة الأشياء؛ بل ينبغي في الواقع أن تكون لدينا الشجاعة لقول ذلك علنا، إنها تؤدي إلى إجحاف يعرفه المراقب المدقق مميزا للصورة الذهنية عن العصر الحديث»(٧). هذا الاجحاف هو ما يفسر السبب في وجود تفكير في إمكان مواصلة تأكيد تلك القيم مع قطع الصلة مع ما تسبب تاريخه في ظهورها.

ب) وهذه نقطة تمس علاقتنا بالسياق الحالي. إذا كنا لا ندرك المعنى التأسيسي للصلة بين المسيحية المعاشة والقيم، فإننا نظن أنه يمكننا الإصرار على الدفاع عن قيم معينة كما لو أنها واضحة وضوح الشمس للجميع. ليس الأمر كذلك، ولم يكن كذلك قبل المسيحية. إننا إذا سرنا وراء الخط العام لحديث جوارديني فسوف نجده يصل إلى استنتاج هو: «إن مرحلة مراهقة الشخص مرتبطة بالإيمان المسيحي. وقد يتأكد الشخص ويتربى لفترة من الزمن حتى وإن خبا هذا الإيمان، ولكن هذه الأشياء تختفي رويدا رويدا»(٨). ومن ثم فإننا إذا ثبتنا على القول إن بعض القيم واضحة لأننا ننطق بها على هيئة كلمات، فسوف ينتهي بنا الأمر باعتبار أن الآخرين أشرار لأنهم لا يقبلونها.

وأذكر في هذا الصدد حادثة مجموعة من النساء الإفريقيات المريضات بالإيدز قابلتهن في كمبالا. هل هناك شيء أكثر وضوحا لقيمة الصحة والحياة (ناهيك عن غريزة البقاء على قيد الحياة)؟ على الرغم من هذا لم

(٧) R. Guardini, *La fine dell'epoca moderna. Il potere,* op. cit., p. 99.

(٨) المرجع السابق، ص ١٠٠.

تكن تلك النسوة مهتمات بتناول أحدث أجيال أدوية هذا المرض والتي كان من شأنها أن توفر لهن فرصة أوسع للنجاة. تلك القيم تبدو غائبة، أو منقرضة. وقد التقيت مع الممرضة لمساعدتها في استعادة «الرؤية»، فتواصلت هي معهن وأوصلت إليهن مذاقا للحياة، وحركت شهادتها لديهن رغبة في الحياة كانت نائمة، وفتحت العقل على مصراعيه من جديد للتفكير في الأسباب والتعرف على القيم. وبفضل هذا اللقاء فقط، كشفن من جديد عن شخوصهن، وأصبح لديهم سبب وجيه لتعاطي الدواء. القيم هي في حد ذاتها واضحة، وقد أصبحت مرئية بالفعل ومفهومة، ولم يكن ذلك ممكنا إلا في أجواء انتجها اللقاء مع تلك الممرضة. دعونا نذكر قصة إلوانا انجلارو. لم يكن يكفي أن نقول: «إن الحياة قيمة مطلقة»، لأنها قيمة يمكن إخفاؤها. في تلك المرة كنا قد قلنا استعارة من لقاء مع إنزو يانوتشي: لمسة يد من الناصري»[٩] لكي نكتشف أن الحياة لها قيمة دائمة زمانا ومكانا. إنها الشهادة التي يمنحها كل يوم كثير من الأطباء والممرضات، الذين يدخلون غرف المرضى في مراحل مرضهم النهائية يحملون النظرة التي تلقوها، ويتلقونها في اللقاء المسيحي. دون لمسة يد الناصري، فإن قيما معينة، رغم وضوحها في حد ذاتها، تظل معتمة غامضة، وبهذا الطريقة تسقط وتختفي.

(٩) «حالة إلونا، كما يقول الملحد يانوتشي، صدمة توقف توقف العلاج»، مقابلة فابيو كورتي مع انزو ويتاكر، في صحيفة كوريري ديللا سيرا عدد ٦فبراير ٢٠٠٩، كانت إلوانا انجلارو (١٩٧٠-٢٠٠٩) تعيش في حالة خضرية دائمة (حالة مرضية لاضطراب الوعي الناشيء عن تلف بالمخ) لمدة ١٧ عامًا على إثر حادث سيارة، وحصلت عائلتها من السلطة القضائية الإذن بالتوقف عن الإطعام الصناعي لها. وأثار الحادث نقاشًا طويلًا في إيطاليا بشأن مسألة نهاية الحياة .

انهيار البراهين هو شفرة الأزمة الحالية، وشفرة الحالة الإنسانية في الغرب اليوم. وأمام التحديات التي يتم طرحها على المستوى الثقافي، لا يمكنك أن تعتبر شيئا لم يعد مضمونا على أنه مضمون. وفي هذا الصدد، فقد استشهدت في أكثر من فقرة بالبابا بندكت السادس عشر، في خطابه بالبوندستاج (مجلس النواب الألماني): «ما يتعلق بالأسئلة الأنثروبولوجية الأساسية هو الشيء الصحيح ويمكن أن يصبح قانونًا ساريا، وهو ليس واضحًا في حد ذاته اليوم. لم يكن سهلا العثور على إجابة على سؤالنا كيف يمكننا التعرف على ما هو صحيح حقا، ويستطيع بالتالي أن يخدم عدالة التشريع، واليوم، في ظل وفرة معرفتنا وقدراتنا، أصبح هذا السؤال أكثر صعوبة»[١٠]. ومن المدهش أن الذي أصدر مثل هذا التصريح هو البابا نفسه وليس عالم نسبية متحمس. ولكي نقدم إسهام المسيحيين في السياق الثقافي والسياسي الحالي نرى أنه من الأمور الحاسمة أن نعي ماذا حدث في العقود الأخيرة، نتيجة لعملية طويلة، وما هو الأمر الحقيقي المطروح دائما على طاولة البحث. إننا نواجه انهيار تلك البراهين التي أسست قواعد العيش المشترك لنا لعدة قرون؛ والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هو السبيل من أجل اكتشاف إيجابي لما ينتمي إلى حقيقة التجربة الإنسانية بالنظر إلى التأسيس المتجدد لأساس الحياة المشتركة في مجتمعنا التعددي.

هذه التنويهات إلى الموقف الذي نجد أنفسنا فيه تسمح لنا بفهم أفضل لما يقوله البابا فرانشيسكو عندما يدعو إلى التركيز على ما هو جوهري، مؤكدا على أننا لا نستطيع الإصرار فقط على المسائل المرتبطة

(١٠) بندكت السادس عشر، خطاب أمام البوندستاج في برلين، ٢٢ سبتمبر ٢٠١١.

بالأخلاقيات، في إطار شخصي واجتماعي. «إن التعاليم، سواء العقائدية أو الأخلاقية، ليست كلها معادلات. والتبشيرية الرعوية ليس لديها هاجس أن تنقل التعدد الفقهي الذي تريد أن تفرضه بإصرار نقلا غير متماسك. الإعلان ذو الطابع التبشيري الذي يركز على الجوهريات، هو ما يسحر ويجذب أكثر، وهو ما يجعل القلب يتوهج، مثل تلاميذ (بلدة) عمواس. لا بد علينا إذًا أن نعثر على توازن جديد، وإلا فإن البناء الأخلاقي للكنيسة سوف يتعرض للانهيار، كأنه قلعة من ورق، وسيفقد نضارته وعبق الإنجيل فيه. يجب أن يكون ما يطرح الإنجيل أبسط، وأعمق، وأكثر إشعاعا. ومن هذا الطرح تأتي النتائج الأخلاقية»[١١]. وقد وضع دون جوساني أهمية إعادة اكتشاف المسيحية وتوصيلها في عناصرها الأساسية في مركز الانتباه، واعتبر ذلك حدثا محملا بالجاذبية، يتناول الإنسان بجماله وتلبيته لاحتياجات القلب.

مشكلة الحرية

أ) بالإضافة إلى النقطة الأولى والحاسمة المتصلة بانهيار البراهين، ينبغي أن نبحث الآن عاملا ثانيا، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالأول، ألا وهو الدور الغالب الذي تلعبه الحرية في الثقافة الحالية. «تتحدد هذه الثقافة التنويرية أساسا بواسطة الحقوق في الحريات. وتنطلق من الحرية

(١١) «مقابلة مع البابا فرانسيس»، الذي حرره أنطونيو سبادرو، *La Civiltà Cattolica,* III/19 settembre 2013, p. 464.

كقيمة أساسية تناسب الجميع»[١٢]. «تبدو الحرية في الوعي الإنساني اليوم باعتبارها الأصل الأسمى، ويعتبر كل ما عدها من أصول تابعا لها»[١٣]. هذان التقريرين من راتزنجر يعنيان من ناحية أن الحرية يتم فهمها على أنها عنصر مميز للثقافة الحالية، ومن ناحية أخرى يدين فيها اتجاها واضحا نحو المطلقات بالمشاكل التي تحملها معها وهذا ما لن نعالجه هنا.

الحرية هبة، وملمح مؤسس للكائن البشري، يكاد يكون الأساس فيه هو «الحرية لـ » و«الحرية من» و«الحرية من أجل». إن علاقتنا بالواقع تتسم في كافة مستوياتها بالحرية، وتنطوي في هيكلها على لعبة الحرية، فكل منا يمكنه أن يختار التحقق أو الضياع، ويمكنه أن يقول نعم أو يقول لا لما يقوم به. وهذا هو الخطر الذي أراد السر الأعظم أن يخوضه بخلقه الإنسان حرا، وهذا هو الذي وفر لنا في كثير من الأحيان دوارا وخوفا يبلغ حد الفضيحة. يكفي أن تفكر في الوالدين عندما يرون ابنهم يسيء استخدام الحرية أو الكبار المنخرطين في تربية الصغار عندما يشاهدون لحظات معينة يضل فيها الصغار. من السهل تحمل فضيحة الحرية. ولهذا، وكما في العظة المشهورة، فإن يلزم نزع «الحشائش الضارة» من الحقل، لأنها خطر على الحرية. ولكن صاحب الحقل له رأي مختلف: إنه يترك كل شيء ينمو لأنه يعرف أن الأقوى هو الذي سيستمر. إنه اليقين لدى المسيح: قدرة البذرة سوف تكون أكبر. هذا ينطبق علينا اليوم: أي يقين

(١٢) J. Ratzinger, *L'Europa di Benedetto e la crisi delle culture*, op. cit., p. 42.

(١٣) J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza. Il cristianesimo e le religioni del mondo,* op. cit., p. 245.

يجب علينا امتلاكه حتى نتخلص من ذلك الشيء الذي يعرض المحصول للخطر!

إن الجمع بين هذين العاملين، انهيار الأدلة والحرية، يمكن أن يقود المرء إلى للتفكير في أن ممارسة الحرية تنطوي على مخاطرة، والطريقة الأكثر أمانًا للدفاع عن القيم هي فرضها، وبالتالي فإن الحرية سوف تضيع. لكن القدرة على اتخاذ القرار موجودة في طبيعة الإنسان، ولا يمكن إزالتها، فقط يتطلب الأمر تعديل بنية الأنا ذاتها. هذا باختصار، ما نحن جميعا منغمسون فيه، الواحد في مواجهة الآخر، والوالدان أمام أطفالهم، والأساتذة أمام الطلاب، ونحن أمام أنفسنا، وفي المنزل، وفي العلاقات: إنها دراما الحرية.

ب) في هذا السياق، قد يكون من المفيد النظر في تجربة الكنيسة، فقد كان عليها منذ البداية أن تواجه مسألة القيم والحرية. كان المسيحيون الأوائل مجبرين على أن يعيشوا الجدة الإنجيلية في عالم متعدد، حيث لم يتم الاعتراف بالقيم التي كانوا يحملونها ولم يتم قبولها. بعض الأمثلة السريعة يمكن أن تساعد وتفيد في هذا. مثلا الأحداث التي أظهرت على الفور أي جديد أثارته المسيحية في التاريخ، وكذلك كيف كانت تعلن عن نفسها.

المثال الأول يتعلق بالعبودية. انتهي الأمر بالقديس بولس في السجن وهو في زنزانة مع عبد، اسمه أنسيمس، ألقي القبض عليه لأنه حاول الهروب من سيده. كان الرق في ذلك الوقت ممارسة شائعة. ماذا فعل بولس

حينئذ؟ كتب رسالة لسيد أنسيمس- رسالة إلى فليمون الواردة في إنجيله هي هذه - لإقناعه أن يسامحه ويسترده: أَطْلُبُ إِلَيْكَ لأَجْلِ ابْنِي أُنِسِيمُسَ، الَّذِي وَلَدْتُهُ فِي قُيُودِي، الَّذِي كَانَ قَبْلاً غَيْرَ نَافِعٍ لَكَ، وَلكِنَّهُ الآنَ نَافِعٌ لَكَ وَلِي، الَّذِي رَدَدْتُهُ. فَاقْبَلْهُ، الَّذِي هُوَ أَحْشَائِي. الَّذِي كُنْتُ أَشَاءُ أَنْ أُمْسِكَهُ عِنْدِي لِكَيْ يَخْدِمَنِي عِوَضًا عَنْكَ فِي قُيُودِ الإِنْجِيلِ، وَلكِنْ بِدُونِ رَأْيِكَ لَمْ أُرِدْ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا، لِكَيْ لاَ يَكُونَ خَيْرُكَ كَأَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الاضْطِرَارِ بَلْ عَلَى سَبِيلِ الاخْتِيَارِ. لأَنَّهُ رُبَّمَا لأَجْلِ هذَا افْتَرَقَ عَنْكَ إِلَى سَاعَةٍ، لِكَيْ يَكُونَ لَكَ إِلَى الأَبَدِ، لاَ كَعَبْدٍ فِي مَا بَعْدُ، بَلْ أَفْضَلَ مِنْ عَبْدٍ: أَخًا مَحْبُوبًا، وَلاَ سِيَّمَا إِلَيَّ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ إِلَيْكَ فِي الْجَسَدِ وَالرَّبِّ جَمِيعًا! فَإِنْ كُنْتَ تَحْسِبُنِي شَرِيكًا، فَاقْبَلْهُ نظيري»(١٤). تبدو إيماءة القديس بولس كأنها لا شيء في محيط العبودية اللامتناهي، لا شيء مقارنة بكل الأعشاب الضارة المحيطة. من يستطيع أن يراهن على هذه الحقيقة البسيطة؟ على العكس كانت هذه البداية أدت مع مرور الوقت، وفقا لخطة غير متوقعة، إلى القضاء على العبودية.

والمثال الثاني يتعلق بالإجهاض. تكرّس الرسالة إلى ديوجينيتوس، وهي واحدة من أجمل كتابات المسيحية المبكرة، سطرًا، أو بالأحرى نصف سطر، للسؤال. ماذا تقول فيه؟ المسيحيون «يتزاوجون كغيرهم ويتوالدون. ولكنهم لا يهملون أولادهم»(١٥).

(١٤) فيلمون ١٠١٧،١.

(١٥) رسالة ديوجينيتوس، الخامس ، الفصل ٦. النص اليوناني موجود في PG II ، coll. 11671186.

نقطة. من أول السطر. لقد اتبعت هذه الديناميكية بداية التأكيد على بعض القيم، مثل تلك الخاصة بالحياة منذ الولادة.

وكما يبين هذا المثالان، من بين أمثلة أخرى كثيرة يمكن أن ننقلها هنا، فإن المناخ الثقافي لبداية العصر المسيحي كان مشابها لدرجة كبيرة بالمناخ الثقافي الحالي.

ج) لكن المسيحيين الأوائل اضطروا أيضًا لأن يكونوا شهودا على ما حدث لهم في سياق التعصب والاضطهاد. على الرغم من أنهم كانوا يصلون من أجل الأباطرة، إلا أنهم رفضوا أن يعبدوهم؛ ودافعوا عن حرية التعبير عن إيمانهم، وبالتالي حرية ضمائرهم، في مواجهة الإمبراطورية والسلطة، حتى على حساب الحياة، متحملين الشهادة، وصولاً إلى القانون العظيم لميلان عام ٣١٣، الذي منح حرية العبادة للجميع، حتى لأولئك، الذين تم رفض عبادتهم حتى ذلك الحين مثل المسيحيين[١٦].

لكن في أقل من قرن من الزمان، يتغير الوضع ويصبح هذا الحق في حرية العبادة موضع شك. كان إغراء الغطرسة، إذا استخدمنا المصطلحات الأقرب إلينا، كان متربصا. في الواقع، في عام ٣٨٠، مع قانون تسالونيكي، يؤكد الإمبراطور ثيودوسيوس أن المسيحية هي الديانة المشروعة الوحيدة. على الرغم من أن تطبيقه كان معنيا به في ذلك الوقت

(١٦) ١٦ لمناقشة الموضوع انظر. G. Lombardi, *Persecuzioni, laicità, libertà religiosa. Dall'Editto di Milano alla "Dignitatis Humanae",* Studium, Roma 1991; G. Del Pozo Abejón, *La Iglesia y la libertà religiosa,* BAC, Madrid 2007; A. Scola, *Non dimentichiamoci di Dio. Libertà di fede, di culture e politica, Rizzoli,* Milano 2013.

موقف القسطنطينية، فقد كان له تأثير كبير، على النقيض من القناعة المعلنة للمسيحية في القرون الأولى بأن الدين المسيحي على وجه الخصوص لا يمكن نشره بالعنف.

وينعكس تأثير هذه المرحلة على موقف اوغسطين، والذي كان له تأثير كبير على المسيحية اللاحقة. فحتى عام ٤٠٥ كان يعارض استخدام القوة العلمانية لإجبار المنشقين على الوحدة الكنسية: «في البداية كنت أرى أن أحدا لا ينبغي أن يجبر إلى الوحدة مع المسيح، ولكن علينا أن نعمل فقط بالكلمة، والكفاح بالمناقشة، والإقناع مع العقل، لتجنب الإكراه حتى لا يصير بيننا مسيحي منافق أولئك الذين عرفناهم فيما بيننا بلفظ [الزنادقة]»[١٧]. ولكنه بعد العنف المتكرر والوحشي الذي ارتكبه الدوناتيون[١٨]، يغير رأيه ويعلن أنه لتجنب الشر، يجوز استخدام القوة[١٩].

(١٧) Sant'Agostino, *Lettera* 93, 5.17, *in Le lettere,* vol. I, trad. it., Città Nuova, Roma 1969, pp. 830-831.

(١٨) حركة انشقاق واسعة أزعجت كنيسة إفريقيا من القرن الرابع فصاعدا. اتصل اوغسطين في هيبونة (الاسم القديم لمدينة عنابة الجزائرية) مع الدوناتيين وبدأ في محاربتهم بسلسلة طويلة من الكتابات.

(١٩) «أنت تفهم بالفعل – إن لم أخدع نفسي – أن حقيقة إجبار المرء يجب عدم النظر فيها، ولكن يجب النظر فيما إذا كان ما يجبر على القيام به هو أمر جيد أم سيء. لا أقول إنه يمكن للمرء أن يصبح طيبا بالقوة! أعني أن المرء، خوفا من العقاب الذي لا يرغب في أن يقع عليه، إما أن يتخلى عن العداء الذي يبقيه بعيدا عن الحقيقة المعروفة، أو يضطر إلى معرفة الحقيقة التي تم تجاهلها: الخوف الذي يمكن أن يدفعه إلى التنصل من الباطل الذي كان يكافح من أجله، أو يبحث عن الحقيقة التي لم يكن يعرفها ، وأخيرا يقبل عن طيب خاطر ما لم يكن يريده من قبل. قد يبدو من غير المجدي تكرار هذه الأمور بكلمات كثيرة ، إذا لم نستطع رؤيتها ثابتة في العديد من الأمثلة. لم يتعلق الأمر ببضعة أفراد، وإنما بمدن كاملة نراها اليوم وقد أصبحت كاثوليكية، الذين يمقتون من قلوبهم الانشقاق بتحريض من الشيطان ويحبون بحماس الوحدة. لقد استفادوا – دعنا نقول ذلك – من الخوف من العقوبات التي تزعجك، وأصبحوا كاثوليكيين على وجه التحديد بفضل قوانين الأباطرة» (*Lettera* 93, 5.16, in Le lettere, vol. I, op. cit., p. 830, sant'Agostino).

صحيح أنه في وقت لاحق تراجع القديس أوغسطين ، في «مدينة الله»، الذي جاء هي في سن أكثر نضجا، تراجع عن موقفه. ولكن تاريخيًا، وجد هذان النموذجان في عمله: ففي رسائله كان يعترف بضرورة الإكراه على الاعتراف بالحقيقة، وفي «مدينة الله»، كان الأفق هو تغليب الحرية على السلطة. ومع ذلك، فإن «الفكر المسيحي التالي، ابتداء من العصر الكارولنجي، سيعيد قراءة «مدينة الله على ضوء رسائل أوغسطين»[٢٠]. أي إضفاء الشرعية على محاولة الإجبار على قبول الحقيقة، وهذا - بالنظر إلى سلطة أوغسطين - لن يكون بدون عواقب.

لقرون عديدة، ما بين صعود وهبوط، لم يكن هناك إعادة تفكير صريح في مسألة حرية الدين. حتى مع حركة إصلاح لوثر، خلال الجدل الذي فصل بين الكاثوليك والبروتستانت، في كلا الجانبين، تبقى الفكرة أن المجتمع المسيحي لا يمكنه تحمل الهراطقة والمنشقين. في الواقع، كانت التطورات التي حدثت في «الإصلاح البروتستانتي» (بالنظر إلى مظاهرها المختلفة: اللوثرية، الكلفينية، الفالديسية، وحتى الأنجليكانية)، بدلاً من توسيع مجال الحرية الدينية، قيدتها، لأنها عززت تضافر السلطة السياسية والسلطة الدينية، مما أدى إلى ما يسمى الحروب الدينية. إن سلام ويستفاليا عام ١٦٤٨، الذي كان من المفترض أن يكون جوابًا للصراع الذي نشأ، كرس أخيرًا مبدأ «cuius regio، eius et religio» (معناه أن تكون الشعوب على دين ملوكهم)، الذي يُلزم الخاضع بالتوافق مع دين أميره.

(٢٠) M. Borghesi, *Critica della teologia politica. Da Agostino a Peterson: l*a fine dell'era costantiniana, Marietti, Genova-Milano 2013, p. 43.

ولذلك تفرض الدولة دينها وتتطابق حدود الدول القومية مع حدود دين مواطنيها(٢١).

من خلال رحلة لا ننوي أن نشير إليها هنا، وفي مفترق الطرق مع الأحداث والتغيرات التاريخية، لا سيما عبر تطورات الحداثة، ينمو وعي الكنيسة الذاتي حتى يصل إلى نقطة التحول التي حققها المجمع الفاتيكاني الثاني، والتي تؤكد رسميا على أن أي شخص لديه الحق في الحرية الدينية. لم يصل المجمع إلى هذا الموقف لأن الكنيسة، بعد أن خسرت الأرض، قررت أن تتخلى عن النهج السابق. وإنما حدث هذا بفضل تطور الوعي الذاتي للكنيسة: «يعلن مجمع الفاتيكان هذا أن الإنسان له الحق في الحرية الدينية. إن مضمون هذه الحرية هو أن البشر يجب أن يكونوا محصنين من الإكراه من قبل الأفراد والمجموعات الاجتماعية وأي قوة بشرية، بحيث أنه في المسائل الدينية لا يضطر أحد للتصرف ضد ضميره أو منعه، في حدود القيود المرعية، من التصرف وفقًا له: بشكل خاص أو عام، فرديًا أو جماعيا. وعلاوة على ذلك، يعلن أن الحق في الحرية الدينية يقوم فعلاً على كرامة الإنسان وهي التي اكتسبها من معرفة كلمة الله التي أوحى بها ومن العقل نفسه. يجب الاعتراف بحق الشخص في الحرية الدينية وإقرارها كحق مدني في النظام القانوني للمجتمع»(٢٢).

وقد حددت نيكولاس لوبكوفيتش بدقة نطاق نقطة التحول هذه: «إن الجودة الفائقة لإعلان كرامة الإنسان تتمثل في أنها نقلت موضوع

(٢١) Cfr. in proposito A. Scola, *Non dimentichiamoci di Dio,* op. cit., pp. 43-44.

(٢٢) Dichiarazione sulla libertà religiosa *Dignitatis Humanae*, I, 2.

الحرية الدينية من مفهوم الحقيقة إلى مفهوم حقوق الإنسان. وإذا كان الخطأ لا يرتب حقوقا، فإن الإنسان لديه حقوق حتى عندما يكون على خطأ. وبوضوح لا يتعلق الأمر بحق في حضرة الله. وإنما هو حق في مواجهة الآخرين والناس، والمجتمع والدولة»[٢٣].

في خطاب تاريخي في عام ٢٠٠٥ أمام الكوريا الرومانية، يؤكد البابا بندكت السادس عشر على أهمية النقلة التي أحدثها مجمع الفاتيكان الثاني. ويركز على المواضيع الثلاثة الكبرى التي كان على المجلس مواجهتها، وهي: العلاقة بين الكنيسة والعصر الحديث، وبين الكنيسة والدولة، بين الإيمان المسيحي والأديان الأخرى، من منظور التسامح الديني. بالإشارة إلى الموضوع الثالث، أي حول الحرية الدينية، تحدث البابا بندكت السادس عشر عن الرحلة التي قامت بها الكنيسة ووصفها بأنها «الجدة في الاستمرارية»، وبأنه «انقطاع [...] لا يتم فيه بأي حال التخلي عن الاستمرارية في المبادئ». فماذا تعلمنا الرحلة التي قطعتها الكنيسة؟ «في هذه العملية المتمثلة في أن الجدة تكمن في الاستمرارية، كان علينا أن نتعلم أن نفهم بشكل ملموس أكثر من ذي قبل أن قرارات الكنيسة التي تتعلق بالأمور الملحة- على سبيل المثال، بعض الأشكال الملموسة لليبرالية أو التفسير الليبرالي للكتاب المقدس - يجب بالضرورة أن تكون هي أخرى ملحة، لأنها على وجه التحديد تتعلق بواقع يعتبر متغيرا في حد ذاته. كان من الضروري أن نتعلم أن ندرك أنه في مثل هذه القرارات، تعبر

(٢٣) N. Lobkowicz, “Il faraone Amenhotep e la Dignitatis Humanae”, Oasis, n. 8, 1° dicembre 2008.

المبادئ فقط عن الجانب الدائم، ولكنها تبقى في الخلفية وتحفز القرار من الداخل. ومن ناحية أخرى، فإن الأشكال الواقعية المحددة التي تعتمد على الحالة التاريخية يمكن أن تخضع للتغييرات. ولذلك يمكن أن تظل القرارات الأساسية صالحة، بينما يمكن أن تتغير أشكال تطبيقها إلى سياقات جديدة»(٢٤).

العلاقة بين المبادئ والقرارات الملحة تجد مثالاً نموذجيًا لها في مجال الحرية الدينية. «وهكذا، على سبيل المثال، إذا كانت الحرية الدينية يتم اعتبارها تعبيرًا عن عدم قدرة الإنسان على العثور على الحقيقة، ومن ثم تصبح تقنينا للنسبية، فعندئذٍ ترتفع اجتماعيًا وتاريخيًا على نحو غير صحيح إلى مستوى الميتافيزيقية، وهكذا تحرم من معناها الحقيقي، مع ما يتبع ذلك من عدم القدرة على قبولها ممن يعتقد بأن الإنسان قادر على معرفة حقيقة الله، إلا أنه، وفقا للقيمة الداخلية للحقيقة، مرتبط بمثل هذه المعرفة. وشيء آخر مختلف تماما هو النظر إلى الحرية الدينية على أنها ضرورة ناشئة عن التعايش الإنساني، بل هي نتيجة مترتبة على الحقيقة ومتشابكة معها، ولا يمكن أن فرضها من الخارج، ولكن يجب أن يتم ذلك من قبل الإنسان وحده من خلال عملية الاقتناع»(٢٥).

هذه هي النقطة الحاسمة. تنحدر حرية الدين من الوعي بطبيعة الحقيقة والعلاقة بينها وبين الحرية. الحقيقة لا يمكن فرضها من

(٢٤) Benedetto XVI, *Discorso ai Membri della Curia e della Prelatura Romana per la presentazione degli auguri natalizi,* 22 dicembre 2005.

(٢٥) المرجع السابق.

الخارج، بل يجب احتضانها وامتلاكها من الإنسان الحر. ولكن على وجه التحديد في هذا الوعي المتجدد للعلاقة بين الحقيقة والحرية، يرتبط مجمع الفاتيكان بالتجربة الأصلية للكنيسة: «إن المجمع الفاتيكاني الثاني، إذ يعترف ويعتنق بمرسوم الحرية الدينية كمبدأ أساسي للدولة الحديثة، قد استعاد من جديد أعمق تراث للكنيسة. قد تكون مدركة أنها بهذا قد أصبحت في انسجام تام مع تعاليم يسوع نفسه (انظر متى ٢١،٢٢)، وكذلك مع كنيسة الشهداء، شهداء العصور جميعا. لقد صلت الكنيسة القديمة، بطبيعة الحال، من أجل الأباطرة والقادة السياسيين معتبرة ذلك من صلب مهامها (انظر ١ Tm 2: 2)؛ ولكن، بينما كانت تصلي من أجل الأباطرة، رفضت أن تعبدهم، ومن ثم رفضت بوضوح دين الدولة. مات شهداء الكنيسة الأولى بسبب إيمانهم بالله الذي تجلى في يسوع المسيح، وهكذا ماتوا من أجل حرية الضمير وحرية إيمانهم - دين ليست هناك دولة يمكنها فرضه، وإنما تتحقق بنعمة من الله، وبحرية ضمير».

ولذلك كان هناك تصحيح، ولكن للأحكام التاريخية والوقتية، وليس للمبادئ: « إن المجمع الفاتيكاني الثاني، مع التعريف الجديد للعلاقة بين إيمان الكنيسة وبعض العناصر الأساسية في الفكر الحديث، قد عدّل، أو ربما صحح بعض القرارات التاريخية، ولكنه في ظل هذا الانقطاع الواضح حافظ على طابعه الحميم وهويته الحقيقية، وعمقها»[٢٦].

---

(٢٦) المرجع السابق.

في هذا التعميق للوعي الذاتي، أعادت الكنيسة أيضًا النظر في علاقتها بالعصر الحديث. لقد استعادت الكنيسة مساهمة التنوير إلى نظرتها الخاصة بالابتعاد عن الإغراء الموجود «في رومانسية القرن التاسع عشر التي اتسمت بالحنين للقرون الوسطى» و «في الدوائر الكاثوليكية بين الحربين العالميتين»(٢٧)، وكذلك على ضوء وعيها المتجدد بالمساهمة الأصلية للمسيحية. هذه المسيحية في الواقع، «بوصفها دين للمضطهدين، للكافة، خارج حدود الدول والشعوب المختلفة، حرمت الدولة من حق اعتبار الدين جزءًا من نظامها. ولطالما اعتبرت البشر، كل البشر، متساويين دون تمييز، فهم جميعا مخلوقات الله الذين خلقهم على صورته، وأعلنهم من حيث المبدأ أن كرامتهم من كرامته، وحتى ولو في حدود الأنظمة الاجتماعية السارية. بهذا المعنى فإن التنوير كان من أصل مسيحي، وقد ولد في إطار الإيمان المسيحي وحده وبشكل حصري، ولم يكن ذلك بمحض الصدفة». ومن ناحية أخرى، فبما أن «المسيحية، بطبيعتها، قد أصبحت للأسف تراثا ودينًا للدولة»، فقد كانت «قيمة حركة التنوير في نكرانها لهذه القيم الأصلية للمسيحية وإضفاء للعقل على صوتها. وقد أكد المجمع الفاتيكاني الثاني، في دستوره حول الكنيسة في العالم المعاصر، مرة أخرى على الصلة بين المسيحية والتنوير، في محاولة للتوصل إلى مصالحة حقيقية بين الكنيسة والحداثة»(٢٨).

---

(٢٧) J. Ratzinger, *Chiesa, ecumenismo e politica,* Edizioni Paoline, Cinisello Balsamo (MI) 1987, pp. 216-217.

(٢٨) J. Ratzinger, *L'Europa di Benedetto nella crisi delle culture,* op. cit., pp. 57-59.

أدت عملية النضج إلى أن تعترف الكنيسة، باعتبارها أكثر إخلاصًا لحقيقتها، بتأكيد واحترام الحرية الدينية، والاعتراف باللحظات التي تصرفت بها بطرق أقل تطابقا معها على مر القرون. «ولهذا فإن الكنيسة، المخلصة للحقيقة الإنجيلية، تتبع طريق المسيح والرسل عندما تعترف بمبدأ الحرية الدينية كاستجابة لكرامة الإنسان ووحي الله، وترعى هذا المبدأ. وقد حرست العقيدة التي تلقتها من المسيح والرسل ونقلتها على مدار القرون. ومهما كانت هناك، من وقت لآخر، طرق للسلوك أقل تطابقا مع روح الإنجيل في حياة شعب الله، من خلال تقلبات التاريخ البشري، بل حتى مخالفة لها، إلا أن العقيدة الراسخة لدى الكنيسة من استحالة إكراه أحد بالقوة على اعتناق دين معين، لم تغب أبدًا»[٢٩].

د) لفترة طويلة، فإن معنى الحرية الدينية قد تم حجبه. كيف أمكن ذلك؟ السبب لا يختلف في ذلك عن القيم الأخرى: فالاعتراف بها ينطوي على العلاقة الضرورية والدرامية مع الحرية، والتي يُدعى كل جيل إلى العيش فيها من جديد ومن البداية. إن تراث القيم التي يتلقاها جيل من الجيل السابق يمثل «دعوة إلى الحرية»: دعوة يمكن تبنيها أو رفضها «لأنها قد لا تمتلك دليلا مماثلا لأدلة الاختراعات المادية»[٣٠].

---

(٢٩) Dichiarazione sulla libertà religiosa *Dignitatis Humanae,* II, 12.

(٣٠) Benedetto XVI, Lettera enciclica *Spe Salvi,* 24. ويؤكد بندكت السادس عشر: «يمكن للأجيال الجديدة أن تبني على المعرفة والخبرة الخاصة بمن سبقوهم، حيث يمكنهم الاعتماد على الكنز المعنوي لكل البشرية. لكن بإمكانهم أيضًا رفضه، لأنه لا يمكن أن يكون له دليل مماثل لأدلة الاختراعات المادية. والكنز المعنوي للبشرية غير موجود بمثل وجود الأدوات المستخدمة؛ بل موجود كأنه دعوة للحرية وكإمكانية لها». ويوفر لنا باقي المقطع عناصر ثمينة إضافية: «لكن هذا يعني أن: أ) الحالة الصحيحة للشؤون الإنسانية، لا يمكن ضمان الرفاهية المعنوية للعالم =

هنا، إذن، السؤال الضروري، إذا أردنا مواجهة التحديات الحالية دون موانع إيديولوجية ودون خلافات حميمة، فكيف يمكن «أن نقتنص الحرية من أجل الخير» بما أن «الالتزام الحر بالخير لا يتم بشكل تلقائي بسيط»؟ فقط من خلال أن تكون شاهدا، كما حدث في البداية. يجب أن تكون القيم حية داخل إنسان ما، كنتيجة لجذورها التي عاشها، حتى يمكن أن تعود إلى أن تكون «مرئية» وأن تستدعي الحرية. أن تكون شاهدا على الحقيقة هو وحده الذي يمكن أن يصل إلى قلب الإنسان. كما يلاحظ لوبكوفيتش بذكاء فيما يتعلق بالحرية الدينية: «على الرغم من أنه كان من الضروري أن تكتشف الكنيسة ما يمكن وما لا يمكن قبوله في المطالبة الحداثية بالحرية الدينية، فإن الكرامة الإنسانية هي تعبير عن «روح» مجمع الفاتيكان الثاني رغم أنه يصر دون غموض على الحقيقة، فلم تعد الكنيسة تريد المطالبة بأي حق في أي شكل من أشكال السلطة ولكن فقط الوصول إلى قلوب الناس، تمامًا كما فعل يسوع المسيح»(٣١).

= ببساطة عن طريق هياكل مؤسسية، مهما كانت صحيحة. هذه الهياكل ليست مهمة فقط ولكنها ضرورية ؛ ومع ذلك ، لا يمكنها ولا يجب عليها أن تعرض حرية الإنسان للخطر. حتى أفضل الهياكل تعمل فقط إذا كانت هناك قناعات حية في مجتمع قادرة على تحفيز البشر على الالتزام الحر بنظام المجتمع. الحرية تتطلب اقتناعا، والاقتناع لا وجود له في حد ذاته، ولكن يجب أن يستعاد مرة أخرى بشكل جماعي. ب) ولأن الإنسان يظل حرًا دائمًا ولأن حريته دائمًا هشة، فلن يوجد خير محدد ملموس في هذا العالم [لنتذكر مثل الأعشاب الضارة]. ومن يعد بعالم أفضل يمكنه أن يظل كذلك دائما دون رجعة، يقدم في الواقع وعدا زائفا يجهل الحرية الإنسانية. «يجب دائما أن يتم اقتناص الحرية من جديد من أجل الخير. الالتزام الحر بالخير لا يتم بشكل تلقائي بسيط. وإذا كانت هناك هياكل من شأنها أن تثبت بلا رجعة حالة – خيرة – محددة للعالم، فسوف تنعدم حرية الإنسان، وبناء عليه فلن تكون هناك بالضرورة أية هياكل خيرة» (المرجع السابق).

(٣١) N. Lobkowicz, "Il faraone Amenhotep e la Dignitatis Humanae", *Oasis,* n. 8, 1° dicembre 2008.

في هذه الحالة، يمكننا تقديم مساهمة بدأت للتو من طبيعة الإيمان: بالعيش في الواقع، بالعيش في عملنا، بالعيش في الرد على تحديات العيش انطلاقا من اللقاء مع حدث ظهور المسيح، يمكننا توثيق الاختلاف الذي جاء به في طريقه مواجهة كل شيء، يمكننا أن نكون مثل بذرة. «في مجتمع مثل هذا لا يمكننا خلق شيء جديد إلا من خلال الحياة: لا يوجد هيكل أو مؤسسة أو مبادرة يمكن أن يستند عليها. وإنما فقط حياة مختلفة وجديدة هي التي يمكن أن تحدث ثورة في الهياكل والمبادرات والعلاقات، أي في كل شيء»[٣٢]. كم من الوقت سيستغرق للبذرة أن تؤتي ثمارها؟ لا نعرف (يكفي أن نفكر في أمثلة القديس بولس عن العبودية أو رسالة ديوجينيتوس عن الإجهاض)، وليس من اختصاصنا تحديده. ولكن لا توجد طريقة أخرى، حتى لا تعتم البراهين إذا انفصلت عن جذورها الحية، وعن التجربة التي سمحت لها بالظهور بشكل كامل.

(٣٢) "Movimento, "regola" di libertà", a cura di O. Grassi, *CL Litterae Communionis,* n. 11, novembre 1978, p. 44.

٣

في انهيار البراهين، جيل لإنسان

لن نفعل شيئا ذي وقع وتأثير حقيقي دون إدراك صحيح لما يحدث، ودون إدراك لطبيعة سير الأمور، حتى لو أخذنا المبادرة – لأن كل واحد منا يتحرك وفقا لتصوره عن الأشياء، أو لاحتياج يشعر به. ولهذا السبب، فإن المساعدة المتبادلة على اكتساب نظرة حقيقية للواقع، وللظروف التي نعيش فيها، هو أول بادرة صداقة للعيش كبشر في مواجهة احتياجات العالم.

تصور مختلف للواقع

الهدية الأولى التي أهدانا إياها دون جوساني، التي بدأ بها في إنتاج القصة التي نعرفها، تمثلت في تصوره للواقع. أتذكر حواره مع الشباب في القطار أو مع طلاب المدارس الثانوية الذين اقتربوا منه للاعتراف، عندما

كان يذهب إلى أبرشية شارع لاتسيو في ميلانو في عطلة نهاية الأسبوع، في بداية الخمسينات[١].

وقد تكون لديه من الحوار والاعتراف إدراك واضح لما كان عليه الوضع، فقرر تغيير كل شيء، حتى منظوره الأكاديمي الخاص، فحار في أمره رؤساؤه: لقد فعل ذلك للرد على أمر رآه ملحا طارئا بطريقة واضحة. ومن هذا بدأ.

في حالة كحالة الكنيسة الأمبروزية في الخمسينات، والتي لم تكن فيها مشاكل خاصة بالعقيدة الأصيلة، وكان وكل شيء كان ينتقل بهدوء، التقطت عيناه - بنعمة من الله - مسألة حاسمة، بقدرته على قراءة علامات الزمن، تلك العلامات التي لم يرها حينئذ أحد تقريبًا. وما نراه الآن واضحا للجميع، لما حمل من نتائج رأيناها ونراها، لم يعترف به إلا القليل في البداية كما يحدث دائما. كان عبقريا، والعبقري تكفيه الإشارة لكي يفهم. هذه هي عبقرية الروح، التي يمكن أن تهب لإنسان نعمة الفهم. طوال حياته، قدم لنا الأب جوساني العديد من الإشارات على هذه النظرة المختلفة، والتي تختلف عن تلك الموجودة لدى الآخرين وتختلف أيضًا عن نظرتنا، لدرجة فاجأتنا نحن أنفسنا.

ما هو الخطأ في تلك السنوات؟ كانت العقيدة في تلك السنوات تنتقل بطريقة خالصة صافية، ولكنها لم تكن تتغلل في الحياة ولم تكن تتحول إلى تجربة وخبرة. أعطى دون جوساني الحياة لحركة (منخرطا في

(١) Cfr. A. Savorana, Vita di don. *Giussani*, op. cit., pp. 130ss, 145ss.

واقع الحركة الطلابية بميلانو) حتى يبدأ الاستجابة لهذا الوضع. لذلك، بدأ مرة أخرى بوضع التجربة محل نقاش، لأنه بدونها - أي إذا لم تدخل العقيدة حيز الحياة - فمن المستحيل فهم طبيعة الإيمان. منذ البداية وضع التجربة في مركز الاهتمام: «لست هنا لكي تزعم أن الأفكار التي أعطيها لك هي أفكارك، ولكن لكي تتعلم طريقة حقيقية للحكم على الأشياء التي سأخبرك بها»[٢]؛ وهذا يعني أنني لا أقنعك بشيء، ولكنني أعطيك الأداة التي تتمكن بها من تجربة نفسك واقناعها، أي أن تولد شخصيتك من خلال المقارنة المستمرة بين ما تعيشه والمعايير التي تدهشك من الداخل، وأن تلزم نفسك بالتحقق مما تتلقى من أطروحات..

ضعف الوعي. «كما لو أنه لم يعد هناك أي برهان حقيقي»

ولكن في مرحلة معينة، بعد سنوات عديدة من بدء الحركة، أدرك الأب جوساني أن شيئًا جديدًا كان يحدث وخاصة في حياة الشباب، لم يظهر - كما قد يعتقد البعض - في نوع من عدم الاتساق الأخلاقي. فلم يكن هذا يعني شيئا. لقد أدرك أن ضعف شباب الثمانينيات لم يكن مجرد ضعف في الاتساق، ولم تكن هشاشة أخلاقية وحسب:

«يبدو لي أن الفرق يكمن في زيادة ضعف الوعي اليوم، وهو ضعف غير أخلاقي، وإنما في طاقة الوعي. [...] يبدو الأمر كما لو أنه لم يعد هناك [اليوم] أي برهان حقيقي غير الموضة، لأن الموضة هي مشروع السلطة»[٣].

(٢) L. Giussani, *Il rischio educativo, Rizzoli,* Milano 2005, p. 20.
(٣) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987),* op. cit., pp. 181-182.

هذا الغياب للبرهان زاد بشكل كبير في السنوات التالية واستمر في النمو. واليوم يمكننا أن نفهم بشكل أوضح ما كتبه راتزنجر في عام ١٩٩٨وكان حينئذ كردينالا: «لقد أصبح انهيار اليقين الديني واقعا، وقد كان لا يزال يبدو صامدا قبل سبعين عاما. لذا، فإن الخوف من أن يؤدي هذا حتمًا إلى انهيار الحس الإنساني يصبح أقوى وأكثر انتشارا»(٤). لذلك، فإننا عندما نتحدث عن « انهيار البراهين»، فإنما نشير إلى شيء ما يميز سياقنا التاريخي بعمق. لم يترك جوساني نفسه للارتباك بسبب العواقب. هذا الانهيار، في الواقع، يحمل معه سلسلة كاملة من النتائج الأخلاقية والمعنوية، ولكن أصلها هو ما ينوي تحديده بوضوح. لم يعد هناك أي برهان حقيقي، فحقيقة أننا نجد صعوبة في إدراك هذا يدل إلى أي مدى نشارك نحن أيضًا في هذا الوضع. في الأصل، وفقا لجوساني، كان هناك انخفاض لقدر الإنسان، وقدراته الأساسية، مما أدى إلى عدم التعرف على البراهين.

ويتأكد هذا الانخفاض بتأثير السلطة. توجه السلطة هجومها الأساسي على «الأنا»، فتقلص منها، ومن الرغبة، ومن قدرة العقل على إدراك الحقيقة. وربما يتم تعريفنا بواسطة السلطة بأكثر مما يمكن أن يدور في خلدنا، وصعوبة إدراك نوع الانهيار الذي يميز عصرنا هو العلامة الأولى على ذلك. لذلك، يمكن للسلطة أن تجعلنا ننشغل بأشياء كثيرة، حتى لا نفهم هذه الظاهرة أو نقضي عليها، وهي النقطة التي ظهرت فيها

(٤) J. Ratzinger، Faith، Truth، Tolerance، op. cit.، p. 147.

جميع النتائج السلبية التي نراها، والتي لا يشكل عملنا فيها أية مشكلة للسلطة.

ذكرني صديق بعبارة لتشيسترتون: «ليس الشر ألا يعرف العلماء الإجابة، وإنما يكمن الشر في أنهم لا يرون السؤال»(٥)، أي أنهم لا يدركون المشكلة، فهم لا يلتقطون الأدلة، ومن ثم يصعب عليهم فهم كل شيء آخر. وهذا الكلام الاعتراضي ليس مشكلة الحشود الكنسية أو التقدميين أو المحافظين، وإنما مشكلة النظرة على الواقع الذي يهم الجميع. من ناحية أخرى، فإن المشكلة نفسها هي التي واجهها يسوع مع الفريسيين: عندما أكدوا بقوة على الأخلاق، فلماذا فعلوا ذلك؟ لأنهم لم يفهموا طبيعة المشكلة؛ ونتيجة لذلك فقد يصرون على مسألة الأخلاقيات. الكثير من حالة البيلاجانية (نظرية دينية تنفي سببية الخطيئة الأولى في التأثير على الطبيعة البشرية) التي غالبا ما نجد أنفسنا عليها يعتمد على حقيقة أننا لا ندرك طبيعة المشكلة الإنسانية. لهذا يمكننا أن نمارس لاهثين العديد من المحاولات للتوصل إلى حل، دون أدنى مواجهة لأصل المسألة. في بعض الأحيان يبدو يسوع في نظرنا ساذجًا ويجعلنا نحس بالعار عندما يقول: «انظروا، في أصل الأصل ليست هذه هي المشكلة»، يحس الجميع بالعار: «ولكن كيف! كيف يمكن أن يبدو ليسوع أن الذهاب لتناول الطعام في بيت زكا أهم من تلقينه درسا في الأخلاق؟» إن موقف يسوع يضلل الجميع. «كيف يمكن ذلك؟».

(٥) G.K. Chesterton, *Ortodossia,* Edizioni Martello, Milano 1988, p. 49.

إن لدى يسوع تصور مختلف للمشكلة الإنسانية، إدراك حقيقي. كم من الوقت سنحتاج لكي نفهمه؟ لقد حدث بالفعل شيء مماثل لهذا. في الواقع، لقد رأى الأب جوساني بعض الأشياء منذ البداية، ولكن الأمر استغرق وقتًا طويلاً حتى أصبح ما رآه واضحًا لنا، ثم أصبح الآن واضحا للجميع. إنها ليست مسألة احتشاد أو مناقشات أو جدل. التفكير في التعامل مع الوضع الذي نجد فيه أنفسنا بالديالكتيك هو بالفعل جزء من عدم القدرة على إدراك الدليل، والدليل «الأكثر دلالة » - ولتسامحوني على اللعب بالألفاظ - يتمثل في عدم القدرة على إدراك ما يحدث، إدراك الانهيار الذي نجد أنفسنا أمامه. إذا لم ندرك هذا، لا يمكننا أن نأمل في الاستجابة بشكل مناسب للتحدي الحالي، حتى ولو انفعلنا بكل طريقة.

انخفاض في القدرة على النظر

ما انخفاض القدرة على النظر إلا تصور للحالة الإنسانية في مجموعها، للإنسان بصفته إنسانا، وقد تحول إلى شيء آخر. إذا لم ندرك أن هذا هو تأثير السلطة علينا سوف نقتل قدرتنا على النظر إلى الواقع. وهو ما يعني أن مثل هذا التأثير لا يقلص قدرتنا الأخلاقية واتساقنا في الأساس، وإنما يقلص قدرتنا على النظر. والنتيجة هي انخفاض المعرفة بما يحدث وما يلزم لمواجهته: «إذا كنا منقسمين بشكل مخجل [داخلنا]، وممزقين، حتى أصبحت الوحدة مستحيلة حتى بين الرجل والمرأة، ولم يعد ممكنا الوثوق بأحد؛ وإذا كنا متشائمين جدا مع الجميع وفي كل شيء، وساخطين من

أنفسنا [كما لو كنا منفصلين عن أنفسنا]، كيف يمكننا أن نستخرج من هذا الوحل شيئا يعيد بناء جدراننا المهدمة، وأن نحصل منها على مادة نبني بها جدران جديدة؟ [...] بالنظر إلى حالتنا الجريحة، لا يمكننا أن نقول في الواقع: «دعونا نعيد بناء الإنسان!» إذا كنا مهزومين هكذا فكيف يمكننا النصر؟ [...] يجب أن يأتي أحد من خارجنا- [من خارج أفكارنا، من خارج قدرتنا العاجزة عن النظر؛ يجب أن يأتي شخص من خارجنا، من أجلنا الآن، وليس من أجلنا قبل أن نبدأ في العيش في المسيحية، وليس لأولئك الذين لم يصبحوا مسيحيين بعد، ولكن بالنسبة لنا نحن المسيحيون بالفعل - لكي يرفع جدران بيتنا الذي تهدم. [...] هذه هي الصعوبة الكبرى تجاه [...] المسيحية الأصيلة: من خلال شيء آخر - يأتي من خارجنا- يمكن أن يصبح الإنسان إنسانا»(٦).

لا أحب هذا. إننا نرى في أنفسنا مقاومة، لأن كل واحد منا يزعم أن أفكاره واضحة، ولكل منا حكمه على الوضع، على ما يلزم عمله: جميعنا يعرف! لهذا السبب، لو كان هناك شيء آخر، يأتي من خارجنا، لإعادة بناء جدراننا المدمرة، فإننا لن نحبه، «لأن [...] يستضيف شيئا لا يتوافق مع خيالنا ومع ملامح التجربة التي تبدو تجريدية المطالب. [هكذا] [...] نتوقف [هذه الجملة يجب علينا جميعا كشطها من الذاكرة!] [...] عند طموح عاجز عن العلاج أو عند مطالب احتيالية، كاذبة، أي: يتطابق العلاج مع ملامحنا [بصرف النظر عن ملامح وجه كل واحد] و [بإرادته

(٦) L. Giussani, “È sempre una grazia”, in *È, se opera,* a cura di C. Di Martino, suppl. *30Giorni,* febbraio 1994, pp. 57-59.

المنفردة] سوف يقوم بالعلاج [نخلق لأنفسنا صورة ونعهد لإرادتنا بعلاجها عن طريق تنفيذ ما يدور في أذهاننا] [...]. وهكذا يولد «الخطاب» حول القيم الأخلاقية، لأن الخطاب حول القيم الأخلاقية ينطوي على أن علاج الانحلال ينبع من قوة خيال الإنسان وإرادته: «لنتحد معًا، ونعالج معا!»(٧).

جاء المسيح لإيقاظ قدرتنا على معرفة الحقيقة

يذكرنا الوضع المبين بالكنيسة طوال تاريخها: «إن مفاهيم القانون الطبيعي [أي البراهين الكبرى التي لدى الإنسان] لا يدركها الجميع بوضوح وبداهة [بسبب تخفيض الأنا لدينا، والذي نعيشه جميعا]. في الوضع الحالي، تكون العفو والتجلي ضروريين للإنسان الخاطئ لأن الحقائق الدينية والأخلاقية (أي البراهين) يمكن أن تكون معروفة للجميع دون أي صعوبة، مع يقين ثابت ودون أي خلط»(٨). هذا هو الوضع: أكد عليه بالفعل في القرن التاسع عشر، عند الحديث عن معرفة الله، المجمع الفاتيكاني الأول، ثم تناوله مرة أخرى التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية. ولذلك، ففي وثيقة منذ بضع سنوات حول الموضوع نفسه، أعلنت اللجنة اللاهوتية الدولية ما يلي: «لذلك يجب أن نكون متواضعين وحذرين عندما نستدعي «برهانا «من مفاهيم القانون

(٧) المرجع السابق صفحة ٥٩.
(٨) *Catechismo della Chiesa Cattolica,* n. 1960.

الطبيعي»[٩]. وقد ساءت هذه الحالة بسبب تأثير العلمنة ويرجع ذلك إلى ما تتميز به حالة الإنسان المعاصر من انهيار البراهين.

لذلك لم يكن الأب جوساني شاردا عندما أوصل إلينا المسيحية، ليس لكي يقنعنا بأفكاره، ولكن حتى ننظر إلى الواقع كما هو، من أجل أن يرد على تيه إنسان عصرنا الذي أدركه هو بفطنته. لقد أخبرنا وشهد لنا بأن المسيح جاء لإيقاظ الحسّ الديني فينا، ولإحياء قدرتنا على معرفة الحقيقة. فإذا لم ندرك ذلك، سينتهي بنا الأمر برتق مؤقت لبعض العواقب المتفرقة زمانا ومكانا، ولكن دون أن نساعد الإنسان على أن يرى حقا. لقد تغير الوضع في الواقع بشكل جذري: ليس لأن الناس يرون البراهين وينكرونها - لأنها سيئة أو مغلقة - وإنما لأنهم لا يرونها حقا، وهذه هي أزمة انعدام ما هو إنساني الذي نشهده دوما. إذا أمكننا أن نقول إننا نرى، فذلك لأننا فقط مسيحيون، أي لأن حقيقة المسيح تضعنا في حالة الرؤية. وإلا سنفكر نحن أيضًا كما يفكر الجميع. ليس من الضروري أن نلوم الآخر لأنه لا يرى - يمكننا أن نفعل ذلك، لكنه غير مجدي! -: نحن بحاجة إلى إعطاء الآخر مساهمة حقيقية، لمساعدته على الخروج من هذا الوضع المسدود ورؤية الواقع مرة أخرى.

لقد أدهشتني ملاحظة للكاردينال سكولا، وردت في مقابلة مع صحيفة لا ريبوبليكا خلال انعقاد مجمع الكرادلة غير العادي. تبدو ذات قيمة بالنسبة لنا، ولهذا أنقلها هنا. يتحدث عن الكنيسة اليوم، فيقول:

---

(٩) Commissione teologica internazionale, *Alla ricerca di un'etica universale: nuovo sguardo sulla legge naturale,* 2009, n. 52.

«إن المقارنة مع الثورة الجنسية [باعتبارها المحاولة الأخيرة للفرد لإنقاذ نفسه، وفقا لجميع الصور التي يمكن أن يبنيها كل منهم] تمثل تحديا ربما ليس أقل من التحدي الذي طرحته الثورة الماركسية»[١٠]. هناك محاولتان، على المستوى الاجتماعي أو الفردي، لإنقاذ النفس من النفس.

دعونا نرى كيف تعامل الأب جوساني مع تحدي الثورة الماركسية في الستينيات وكيف كان يحكم على محاولتنا للرد عليها.

انعدام الأمان الوجودي هو ما جعلنا نسعى للحصول على الدعم من الأشياء التي كنا نقوم بها

على خلفية محاولات تلك السنوات، رغم أن الرغبة في الاستجابة للوضع المتولد عن حركة الاحتجاجات الطلابية كانت هناك - كنتيجة أولى لمواقف تم اتخاذها - «فكرة كفاءة الالتزام المسيحي مع التركيز على الاتجاه الأخلاقي». وزاد الأمر على مجرد التركيز، فتحول الأمر برمته إلى مسألة أخلاقية! [لأننا لم نفهم حقيقة، الأمر.] [...] والنتيجة الثانية [...] [كانت] عدم القدرة على إضفاء الطابع الثقافي على الخطاب، كيما يجلب التجربة المسيحية إلى المستوى الذي يصبح فيه الحكم عليها نظاميا ونقديا، وبالتالي طرحًا لسبل العمل. [...] والنتيجة الثالثة: الاستهانة

(١٠) سكولا «رفض الطلاق يبقى ولكنه ليس عقابا، والكنيسة كانت متأخرة في موضوع الإجهاض»حوار مع باولو روداري منشور في صحيفة لا ريبوبليكا يوم ١٢ أكتوبر ٢٠١٤ ص ١٩.

النظرية والعملية بالتجارب الرسمية للسلطة»[١١]. لماذا حدث هذا؟ بسبب السذاجة،

«سذاجة الإنسان الذي يقول: «الآن أجيء لإصلاح الأشياء» [...] كم هو أمر محزن هذا!»[١٢]. يا له من حزن، لأن الكثير من تلك المحاولات قد ولدت وتلد- ويمكننا رؤيتها حتى اليوم - من هذه السذاجة، وفي الوقت نفسه، «من انعدام الأمان الوجودي، أي من الخوف العميق، الذي يدفع للبحث عن الدعم من خلال التعبيرات الفردية. هذه الملاحظة، التي أبديناها ذات مرة، لها أهمية قصوى. الشخص المليء بانعدام الأمان، أو يعاني من خوف وقلق وجودي يهيمن على أعماقه، يسعى إلى الأمان في الأشياء التي يفعلها: الثقافة والتنظيم. [...] إنه انعدام أمان وجودي، وهو خوف أساسي، يجعل المرء ينظر إلى الأشياء التي تتسم بالثقافة والتنظيم كنقطة دعم، وسبب للوجود المشترك». لكن الشيء الأكثر فظاعة هو ما يلاحظه الأب جوساني على الفور: إذن كل الأشياء التي نقوم بها، «كل النشاط الثقافي وكل النشاط التنظيمي لا يصبح تعبيرًا عن ملامح جديدة لإنسان جديد». ويضيف: إذا كانت تعبيرا عن إنسان جديد فإنها قد لا تتحقق بسبب ظروف غير مواتية، عندها يستقيم حال الإنسان. ولكن الناس الموجودة هنا، لو لم تكن هذه الأشياء موجودة لما استقام حالها، ولن تعرف لماذا هي هنا، وإلى أي شيء تنتمي، ولن يصلح شيء، ولن يتماسك،

(١١) L. Giussani, "La lunga marcia della maturità", *Tracce-Litterae Communionis,* n. 3, marzo 2008, pp. 63-64.

(١٢) المرجع السابق ص ٦١.

لأن تماسكه كشخص مرهون بوجود الآخر»[١٣]. إذا لم نستفد من الكنز الذي توفره هذه القصة، حتى مع الاستمرار في أخذ زمام المبادرة، من خلال عملنا، ومن خلال المجاهدة، فإننا لن نلمس الأصل النهائي للسؤال وسنظل على سذاجتنا.

اكتساب الوعي بطبيعة الأنا

يبرز الأب جوساني، وهو يستكمل شرح تجربة الإنجيل، أن الشخص، الإنسان الذي قلصته السلطة، «يجد نفسه [من تلقاء نفسه] في لقاء حي، أي في حضور يتجلى فيه ويطلق جاذبيته»[١٤]. إذا لم يحدث هذا، فإن كل محاولاتنا للرد على التحديات الجديدة - على محاولات تقليصه التي يرضى فيها الإنسان عن الصورة التي كونها لنفسه، وفقا لمعايير اختلفت اليوم عن معايير ثورة الأمس - لن تكون لها أية نتيجة.. إذا لم يعثر الإنسان على نفسه، فلا يمكن له إلا أن يزيد تقليصه بسبب تعبه في حل المشكلة. لقد رأينا كم من المحاولات العديدة لمعاصرينا كانت عاجزة عن استيعاب طبيعة الأنا وبالتالي الاستجابة لاحتياجاتها النهائية.

ماذا يفعل يسوع لإيقاظ الإنسان، لإنقاذه من حالة التيه والاغتراب؟ كان يلتقي الناس، ويضع أمامهم وجوده الإنساني غير الناقص أو غير المتقلص. لأنه لا يمكن أن يوقظ إنسانية الناس وتصور حاجتهم إلا

(١٣) L. Giussani, *Uomini senza patria* (1982-1983), BUR, Milano 2008, pp. 96-97.

(١٤) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro* (1986-1987), op. cit., p. 182.

من خلال لقائهم بشكل مباشر، وحضور ووعيه الواضح بنفسه وبقدرته على إدراك قوة قلبه وتوقعاته. وبالتالي يساعدهم على عدم إضاعة الوقت في البحث عن حلول غير قادرة على الاستجابة بشكل مناسب. ولهذا السبب فإن حل المشاكل الناشئة في الحياة اليومية «لا يحدث مباشرة من خلال معالجة المشاكل، ولكن بتعميق طبيعة الشخص الفاعل الذي يواجهها»(١٥)، أي، من خلال إدراك طبيعة الأنا، بمعنى طبيعة رغبة المرء. فقط إذا أدركت الأنا هويتها يمكنها أن تتحرر من جميع الحلول المزعومة والصور التي كونتها في ذهنها والتي يمكن أن نقع فيها نحن أيضًا. مما تتكون رسالة المسيح؟ لم يبعث المسيح لحل مشاكل الإنسان، وإنما ليربي الحس الديني، أي يوقظ الأنا بوضعها في موضع صحيح لكي تواجه هذه المشاكل. «لم يأت المسيح إلى العالم ليحل محل العمل البشري أو الحرية الإنسانية أو للقضاء على التجارب البشرية – الشرط الوجودي للحرية –. إنما جاء إلى العالم لاستدعاء الإنسان لأصل جميع المسائل، في هيكلها الأساسي ووضعها الحقيقي. [...] ليست مهمة يسوع هي حل المشاكل المختلفة، وإنما استدعاء الوضع الذي يمكن للإنسان فيه أن يحاول بشكل صحيح حلها. ويختص التزام الإنسان الفرد بهذا المشقة، والتي تكمن وظيفتها الوجودية في تلك المحاولة»(١٦).

(١٥) A. Savorana, *Vita di don Giussani,* op. cit., p. 489.

(١٦) L. Giussani, *All’origine della pretesa cristiana,* op. cit., pp. 124-125.

«لا يلد أحد، إذا لم يتم توليده»

لذلك، أمام انهيار البرهان، فإن المشكلة برمتها تتمثل في أنك أنتجت شخصا قادرًا على أن يكون لديه هذا الوعي بطبيعته، وبحاجته الإنسانية، لا أن تغرقه هذه الصور المشوهة والحلول الجزئية، التي لا توفر أي شعور بالرضا. إن التجربة المسيحية عندما نعيشها حق العيش تجعل الأنا خالية من جميع المحاولات الجزئية، فهي تفيض بالفرح والامتلاء، وتضع أمام الجميع إنسانية مرغوبة فعلاً. في الواقع، ما هو يلفت النظر ليس اختلاف الآراء حول الأشياء، بل الإنسانية الكاملة الحقيقية، التي يصادفها المرء وجها لوجه. فهذه الإنسانية المختلفة، ومهما كان المكان الذي تعيش فيه، لا يمكن اختزالها، كما قال صبي عاش بضعة أشهر في تكساس. قال له من كانوا يتعاملون معه: «لم نر إنسانية من قبل بهذا الشكل». اليوم يتكرر رد الفعل نفسه الذي كان عليه الأوائل مع المسيح. ليست الآراء الدينية هي التي تحرك الناس، لكنها الإنسانية الكاملة. بعد ذلك سيكون من الضروري إعطاء كل أسباب هذا الاختلاف، لكن التداعيات الأولى هي اللقاء بإنسانية حقيقية، لا إنسانية مقلصة.

ما الذي يجب أن نعيشه نحن لكي نتمكن من تربية شخص حتى يستطيع مواجهة الواقع؟ «لا يلد أحد، إذا لم يتم توليده»[١٧]، أي أنك لا تستطيع أن تنتج شيئا إذا لم تترك نفسك تتولد من هذه القصة الذي أصبح المسيح فيها حقيقة ذات معنى لحياته، والتي تقدم له باستمرار كل الأدوات

---

(١٧) L. Giussani, “La gioia, la letizia e l’audacia. Nessuno genera, se non è generato”, *Litterae Communionis-Tracce,* n. 6, giugno 1997, p. IV.

اللازمة لاستكمال طريقه نحو النضج. كانت النعمة بالنسبة لنا أن الأب جوساني لم يكن لديه أي هم آخر سوى هذا الجيل، كما لو كان قد توقع الوضع الذي نحن فيه الآن. كان الجميع قلقين بشأن أشياء أخرى، ومع أنها كانت صحيحة، إلا أنهم اعتبروا الشخص الذي عليه مواجهة المشاكل امرا مسلما به. الشخص الذي قدم حياته كلها لهذا الجيل من «الأنا» كان الأب جوساني: لقد أنفق حياته لتوليد الكبار مثله، يفيضون بروح المسيح، سعداء جدا بتجربتهم مع المسيح، ليكونوا قادرين على أن يشهدوا أمام الجميع على من عساه يكون المسيح. يقول لنا البابا فرانشيسكو دائما: لا توجد طريقة أخرى إلا الشهادة على حياة تفيض بوجوده، حتى يكون كل من يلتقي بنا جزءًا من هذا الامتلاء التي أنعم بها علينا، وأن نواصل التلقي والاستقبال ببساطة حتى لا نفقد العلاقة مع الواقع.

إن النور الذي يأتي من تاريخنا هو مساهمة في العودة إلى الأصل: بهذه الطريقة فقط سنكون قادرين على العيش في السياق الحالي بمظهر مختلف ووفقًا للوضع الأصلي للوجود في الواقع. وكما قال البابا فرانشيسكو، دون نقطة دعم في أي شيء جوهري - لأن الجوهري هو المسيح -، فنحن لن نستطيع تحاشي الخوف أمام كل ما يستجد من تحديات. الجوهري، أي العودة للجوهري، الذي استدعاه الأب جوساني دوما والذي يدعو إليه البابا الآن، أمر بالغ الأهمية. وإلا سيكون من الصعب أن تكون حرا

بما فيه الكفاية للبحث عن أشكال وطرق جديدة لإبلاغ الحقيقة التي صادفتها، كما كتب البابا في الرسالة في اجتماع ٢٠١٤ (١٨).

مبادرات إنسانية جديدة تثير اهتمامًا

من خلال العودة إلى الأساسيات فقط سنكون قادرين على أن نضع أمام الجميع وجودًا، وطريقة جديدة للبقاء في إطار الواقع، بلقاء ا يمكن للناس من خلاله التغلب على الانزعاج العميق الذي يمنعهم من تحمل المسئولية الشخصية في ظل هذه الظروف. وللتعامل مع التحديات الحالية، يجب القيام بشيء لإعادة إيقاظ النفس بأكملها حتى تتمكن من البدء مرة أخرى في النظر في الأمور بوضوح كاف ولكي تنتمي من جديد إلى ما تتعرف عليه على أنه واضح. إذا لم نقم بتوصيل ما هو جوهري وقادر على اجتذاب الأنا وتحريكها، عن طريق العيش فيه، لن نكون قادرين على الرد أو إعطاء مساهمة حقيقية في حالة الضعف والفراغ الذي يوجد فيه إنسان اليوم.

إن مساهمتنا الأصلية، التي بدأ كل شيء فيها الأب جوساني، تتمثل في إعادة بناء شخص فاعل قادر على إدراك الحقيقة، والبراهين، والالتزام بها. وهذا هو ما يجعل اللحظة التاريخية التي نشهدها مثيرة: حقيقة أن الناس تدرك بعينها البرهان على شيء حقيقي من خلال تنشيط المبادرات، رغم ما تواجهه من لا مبالاة عامة (والتي هي من أعراض غياب الشخص

(١٨) Cfr. Francesco, *Messaggio per la XXXV edizione del Meeting di Rimini,* 24-30 agosto 201.

الفاعل)، فتبدأ في الاهتمام بهذا البرهان وتظل مأخوذة به. كيف تتسع إمكانيات الحياة الجديدة؟ «نحن لا نبني واقعًا جديدًا بالخطب أو المشاريع التنظيمية، ولكننا بأن نحيا المبادرات الإنسانية الجديدة في الحاضر»(١٩)، ونعني بهذا المبادرات التي يمكن للمرء رؤيتها، وأن يلمس بيده كل ما من شأنه أن يحقق ذاته. وعندما يكتشف المرء ذلك، يبدأ في التغير. ومبادرات الإنسانية الجديدة، أي مبادرات الصداقة، هي في الحقيقة من السمات التي تصف الوجود الأصيل للإنسان.

إذا أردنا أن نسهم إسهامًا حقيقيًّا في الوضع الحالي، يجب أن نتعرف أكثر على طبيعة التحدي. وإلا فإننا نحاول عزل النتائج، وربما يكون ذلك مفيدا لبعض الوقت، ولكنه لن يكون قادرا على التغيير. وهذا يعني أننا سنحتاج إلى الوقت: نبدأ بزراعة أشجار الزيتون مع العلم بأننا ربما لن نرى الثمار، إلا في أوقات معينة، في أشخاص معينين. ولهذا السبب بالتحديد، فإن الأمر الأكثر حسمًا هو أن نعرف كيف نحدد بشكل جيد الهدف الذي جعلنا نوجد في الدنيا. لقد فهم دون جوساني هذا جيدا قبل غيره: جاء المسيح لإيقاظ الإنسان؛ وقد وثّق وجوده بحقيقة أن أولئك الذين يعترفون به يتصلون بشكل مختلف بالواقع، ويعيشون بكثافة في كل الظروف التي عاش فيها. إننا إذا جربنا ذلك، يمكننا أن نبلغه للآخرين، مع تزودهم بأسباب إيماننا، وبالتالي ننقل شيئا إلى عقل المتلقي. وإلا فإن مساهمتنا ستساوي صفرًا.

---

(١٩) L. Giussani, *Dall'utopia alla presenza* (1975-1978), BUR, Milano 2006, p. 66.

٤

تحدي الحوار الحقيقي بعد هجمات باريس

كثر الكلام عن أحداث باريس منذ وقوعها[١]. لم يستطع أحد تجنب رد فعل عنيف من الضياع أو الخوف. وقدمت العديد من التحليلات منطلقات للتأمل ومحاولة فهم مثل هذه الظاهرة المعقدة. ولكن ما الذي تبقى بعد شهر واحد، عندما عاد روتين الحياة اليومية من جديد؟ ما الذي منع هذه الحقائق المزعجة من أن تمحى بسرعة من الذاكرة؟ لمساعدتنا على التذكر يلزمنا اكتشاف الطبيعة الحقيقية للتحدي الذي تمثله هجمات باريس.

نحن الأوروبيون لدينا ما أراده لنا آباؤنا: أوروبا فضاء للحرية، حيث يمكن للجميع أن يكون ما يريده. هكذا أصبحت القارة العجوز بوتقة لتعدد ضخم في الثقافات والأديان والرؤى في العالم.

---

(١) في ٧ يناير من عام ٢٠١٥ ، اقتحم رجلان مقنعان ومسلحان مكتب تحرير الصحيفة الأسبوعية الساخرة شارلي إبدو ، في قلب باريس ، وصرخا «الله أكبر». كان هدفهم «الثأر للنبي» بعد نشر الرسوم الكاريكاتورية التي اعتبروها مسيئة. قتل الإرهابيون اثنا عشر شخصًا: صحفيين ومصممين يعملون داخل الصحيفة واثنين من رجال الشرطة.

إن أحداث وثيقة باريس تفيد بأن هذا الفضاء الحر لا يمكن أن يحافظ على نفسه من تلقاء نفسه: يمكن أن يهدده من يخافون الحرية ويرغبون في فرض رؤيتهم الخاصة بالعنف. فما الرد على مثل هذا التهديد؟ من الضروري الدفاع عن هذا الفضاء بكل الوسائل القانونية والسياسية، بدءا من الحوار مع الدول العربية المستعدة لمنع وقوع كارثة من شأنها أن تضر بها أيضًا وفي إطار قانوني ملائم يضمن الحرية الدينية الأصيلة للجميع. لكن هذا لا يكفي، والسبب بديهي. إن منفذي مذبحة باريس لم يأتوا من وراء الحدود، فهم من الجيل الثاني للمهاجرين، ولدوا في أوروبا، وتلقوا تعليمهم وتدريبهم كمواطنين أوروبيين، مثل كثيرين آخرين عاشوا طويلا في بلادنا. إنها ظاهرة مستمرة، بفضل التدفقات المستمرة للهجرة والنمو الديموغرافي للسكان الذين يأتون إلى هنا من جميع أنحاء العالم، مدفوعين بالمعاناة والفقر.

ولهذا السبب فإن المشكلة داخلية في المقام الأول، داخل أوروبا، والمباراة الأساسية تلعب على أرضنا. والتحدي الحقيقي له طبيعة ثقافية، وأرضيتها هي الحياة اليومية. عندما يأتي إلينا أولئك الذين يتركون أرضهم بحثًا عن حياة أفضل، وعندما يولد أطفالهم ويكبرون في الغرب، ماذا يرون؟ هل يجدون شيئا قادرا على جذب إنسانيتهم، أو تحدي عقولهم وحريتهم؟ وتنشأ نفس المشكلة فيما يتعلق بأبنائنا: هل لدينا ما نقدمه لهم يستحق أن نطالبهم بالوفاء به أو يعني لهم شيئا؟ إن لدى الكثير من الشباب الذين ينشئون فيما يسمى بالعالم الغربي فراغ كبير، فراغ عميق، هو أصل هذا اليأس الذي ينتهي بالعنف. يكفي أن نذكر من يخرج من

أوروبا لكي يقاتل في صفوف الجماعات الإرهابية. أو أن نرى الحياة المشتتة والتائهة لكثير من الشباب في مدننا. ما يجب الرد عليه هو هذا الفراغ المدمر والعدم المتسع.

في مواجهة أحداث باريس، تصبح المعارضة عقيمة لو اعتمدت على فكرة، حتى لو كانت عادلة. فقد تعلمنا، بعد رحلة طويلة، أنه لا سبيل آخر للوصول إلى الحقيقة إلا من خلال الحرية. لذلك قررنا نبذ العنف الذي صبغ أيضًا لحظات من تاريخنا الماضي. واليوم لا يزرع أي منا حلم الرد على تحدي الآخر، بفرض الحقيقة مهما كانت. بالنسبة لنا، أوروبا هي فضاء للحرية: هذا لا يعني فضاء فارغا، خاليا من فرص للحياة. لأن الحياة في العدم مستحيلة. لا يمكن أن يستقيم حال أحد وأن تكون له علاقة بناءة مع الواقع، دون شيء يستحق العيش ودون معنى أساسي مفترض لها.

هذا هو العنصر الحقيقي الذي سيقرر مستقبل أوروبا: إذا أصبح في النهاية مكان لقاء حقيقي بين افتراضات ذات مغزى، رغم اختلافها وتعددها. وكما حدث لقرون في بعض بلدان الشرق الأوسط، حيث تمكنت مختلف الثقافات والأديان من العيش في سلام، بينما يضطر الآن المسيحيون إلى التخلي عن أراضيهم لأن الوضع جعل الحياة مستحيلة بالنسبة لهم. بهذه الطريقة فإن المشكلة لن تحل، بل تؤجل.

يجب أن تبدأ المراجعة الآن في أوروبا. فضاء الحرية يعني مساحة متاحة للجميع، أفرادا أو جماعات، وأمام الجميع. كل فرد يتيح للجميع رؤيته ورؤية طريقه في الحياة. هذا التقاسم سيجعلنا نلتقي، انطلاقا من

تجربة واقعية لكل منا، غير متأثرين بأنماط ايديولوجية كبرى تجعل الحوار مستحيلا. وكما قال البابا فرانشيسكو، «في مبتدأ الحوار لابد من[...] اللقاء. ومن اللقاء تولد المعرفة الأولى للآخر. والحقيقة أننا إذا انطلقنا من فرضية الانتماء المشترك للطبيعة الإنسانية فقد نتجاوز الأفكار المسبقة والزيف، ويمكننا أن نرى الآخر وفقا لمنظور جديد»(٢).

إن هذا الوضع التاريخي يمثل فرصة استثنائية للجميع: للمسيحيين أيضًا. يمكن لأوروبا أن تكون فضاء كبيرا لنا، وفضاء للشهادة على حياة متغيرة، مليئة بالمعاني، قادرة على احتضان المختلف وإيقاظ إنسانيته بمبادرات تتسم بالسخاء.

من خلال دعوة المسيحيين لتغذية الرغبة في أن يكونوا شهودا، شدد البابا فرانشيسكو على أنه «بهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نطرح الإعلان المحرر لحب الله وللخلاص الذي يمنحه لنا المسيح، بكل قوته وجماله وبساطته. بهذه الطريقة فقط يمكننا أن نعبر عن موقفنا الذي يحترم الناس»(٣). لكن هل مازلنا نحن المسيحيون نؤمن بقدرة الإيمان الذي تلقيناه على ممارسة جاذبيته على من نقابلهم وعلى السحر المنتصر لجماله الأعزل؟

---

(٢) البابا فرانسيس في جلسة مع المشاركين في اللقاء الذي نظمه المعهد البابوي للدراسات الإسلامية والعربية في ٢٤ يناير ٢٠١٥.

(٣) البابا فرانسيس في جلسة مع المشاركين في اللقاء الذي نظمه المجلس البابوي للعلمانيين في ٧ فبراير ٢٠١٥ .

الجزء الثاني
حدث للنهضة

٥

المسيحية في مواجهة تحديات الحاضر

«هل يمكن لمثقف أوروبي في أيامنا هذه أن يؤمن حقًا بألوهية ابن الله، يسوع المسيح؟»[١] تحدد هذه العبارة التي قالها دوستويفسكي التحدي الذي يواجه الإيمان بيسوع المسيح اليوم. والعبارة ليست عمومية تنطبق على جميع الأحوال، فهي لا تسأل عن إمكانية الإيمان بالمسيح على نحو مطلق. يكمن الجانب الحاسم في سؤال الكاتب الروسي في الإشارة إلى سياق محدد: أوروبا المعاصرة. ويستهدف ملتقيًا معينًا، وهو الأوروبي المثقف، المتعلم، الذي لا يتخلى عن استخدام عقله بما يترتب على ذلك من لوازم، ويضع على المحق حاجته إلى الحرية، وكل قدراته العاطفية، أي إنسان لا يتخلى عن أي شيء من إنسانيته. فهل يمكن لإنسان له هذه السمات أن يؤمن بيسوع المسيح؟ يصر دوستويفسكي في عبارته على وصف الإيمان بأنه إيمان حقيقي: «أن يؤمن حقا»، كما لو كان يؤكد على أنه إيمان يستحق حقا طبيعة العقل ومتطلباته.

(١) Cfr. F.M. Dostoevskij, *I demoni; Taccuini per "I demoni"*, a cura di E. Lo Gatto, Sansoni, Firenze 1958, p. 1011.

إصرار دوستويفسكي على الظروف التي تطلبت منا – لأكثر من قرن من الزمان! – أن نعيش الإيمان فيها تبين إلى أي مدى يعتبرها، عن حق، حاسمة. في الواقع، «الظروف التي يجعلنا الله نمر بها هي عامل أساسي وليس ثانويًا في دعوتنا،أي في المهمة التي يطلبها منا. إذا كانت المسيحية إعلانًا عن حقيقة أن السر قد أصبح متجسدًا في إنسان، فإن الظرف الذي يتخذ فيه المرء موقفًا من هذا، أمام العالم كله، مهم لتعريف الشهادة نفسها»(٢).

ندرك جيدًا الظروف التي نجد فيها أنفسنا، نحن المسيحيون، نعيش إيماننا اليوم. ويمكننا تلخيص سماتها في أنه عالم تعددي أصبحت المسيحية فيه، بفكرتها عن الإنسان والحياة التي يعيشها، خيارًا من بين خيارات أخرى متعددة. نحن مدعوون لكي نعيش الإيمان دون سياق يحمينا؛ ليس فقط من دون امتيازات، بل أيضًا مضطهدين في بعض الأحيان. وتتخذ الأنثروبولوجيا في أغلب الأحيان شكلاً قانونيًا معاكسًا تمامًا لتلك للانثروبولوجيا الإنسانية التي نعرفها، والتي كنا نتفق عليها حتى وقت ليس بعيدًا، حتى عندما كنا لا نزال غير مسيحيين.

يمكننا أن نعيش هذا الوضع بغضب، لأن مسار الأحداث يسير في اتجاه لا نشارك فيه، أو نقبل التحدي الذي يشكله، لأنه لا يسمح لنا بأن باعتبار الإصرار اليوم على ما كنا في الماضي تراثًا مشتركًا أمرًا مفروغًا منه، ويدعونا إلى البرهنة على أن الدين يمس احتياجات الحياة الشخصية

(٢) L. Giussani, *L'uomo e il suo destino. In cammino,* Marietti, Milano 1999, p. 63.

والاجتماعية. في مواجهة هذا التحدي غير المسبوق، ليس من المستغرب أن تنشأ بين المسيحيين أنفسهم تفسيرات مختلفة لكيفية التعامل معه. فإذا بدأنا بأولئك الذين ينسحبون إلى قوقعتهم، ويتخلون عن الإدلاء بشهادة الصلة العامة بالإيمان، إلى أولئك الذين يعتقدون أن الطريقة الوحيدة للدفاع عن القيم المسيحية هي اتخاذ موقف رد الفعل، دون أن يهتموا بأن يعثروا على سبب يجعلهم إيجابيين في سياق التعددية الثقافية التي نعيش فيها.

كلنا نرى عدم ملاءمة هذه المواقف. ولكننا لكي نتخلص منها لا يكفينا إظهار الرغبة في الابتعاد عنها أو تغذية الرغبة في عدم الاستسلام لها. من أجل التغلب عليها، نحتاج إلى اكتشاف طريقة للحياة حياة الإيمان، في سياق هذا الواقع الاجتماعي والثقافي التعددي، بحيث يمكن للآخرين إدراك وجودنا، ليس كشيء ينبغي الخوف منه، وإنما كإسهام في الخير الخاص والخير العام. نحن بحاجة إلى طريقة للحضور لا تنطوي على أية إرادة لفرض الوجود بالاستبداد والطغيان، ولا تنطوي في الوقت نفسه على التخلي عن الحياة حياة الإيمان المتجسدة في الواقع، التي بوسعها أن توثق عثور الإنسان على راحته في التمسك بالمسيح.

لقد أوضح لنا البابا يوحنا بولس الثاني أبعاد هذا التحدي: «العديد من الأوروبيين المعاصرين يعتقدون أنهم يعرفون ما هي المسيحية، لكنهم لا يعرفون ذلك حقا ... وكثيرون من المسيحيين المعمدين يعيشون حياة تبدو وكأن المسيح لم يكن موجودًا [...]. ودخلت على يقين الإيمان العظيم

مشاعر دينية غامضة عديمة الالتزام [...] (عندما يأتي ابن الإنسان، هل سيجد الإيمان على الأرض؟) (Lc 18,8)»(٣). وأكد البابا بندكت السادس عشر أن الوضع لم يتغير في السنوات التالية: «كثيرا ما نشعر بالقلق من العواقب الاجتماعية والثقافية والسياسية للإيمان، مع التسليم بأن هذا الإيمان موجود، وهو أمر ليس له من الواقع نصيب إلا القليل. ربما وضعنا ثقة مفرطة في الهياكل والبرامج الكنسية، وفي توزيع الصلاحيات والمهام؛ ولكن ماذا سيحدث إذا أصبح الملح لا طعم له؟»(٤) في كثير من الحالات لا يمكن الحديث عن انعدام الإيمان أو الرفض الصريح له، وإنما عن إيمان منخفض الدرجة، إيمان قد تحول إلى عادة أو ممارسة شعائر، وليس اختيارًا حرًا عاقلاً، يعتبر الإيمان وجودا مفروغا منه. نرى ذلك من أنه لا يصمد أمام هزات الواقع الحالي، وهو ما يبينه عدد من يهجرون الإيمان أو عدد من يعيشون فيه بلا اكتراث أو اهتمام.

ويوضح هذا توضيحا جليًا الحاجة الملحة إلى تعليم تربوي للإيمان يظهر أهميته لاحتياجات الحياة، بحيث يصبح قادرا على مقاومة تأثير الظروف المعاكسة. ويؤكد هذا غوديوم ايسبس في منتصف الستينات: «أما بالنسبة لعلاج الإلحاد، فإنه يجب أن يتوقعه من كل من التعرض الصحيح للعلوم الكنسية، ومن طهارة حياتها وحياة أعضائها. [...] ويتم

---

(٣) Giovanni Paolo II, Esortazione apostolica *Ecclesia in Europa*, 28 giugno 2003, 47.

(٤) Benedetto XVI, *Omelia nel Terreiro* do Paço, Lisbona, 11 mag- gio 2010.

الحصول على هذا في الواقع بشهادة إيمان حي ناضج، أي تم تعليمه على نحو مناسب لكي يتعرف بوضوح على الصعوبات ويستطيع التغلب عليها(٥).

وهكذا فإن سؤال دوستويفسكي يحتفظ بكل جاذبيته في أعيننا. في هذه الحالة، هل لدى الإيمان أي إمكانية لإغراء رجال عصرنا وجذبهم واحتضانهم؟ في مؤتمر عُقد في عام ١٩٩٦، أجاب راتزينجر، وكان كاردينالا حينها، على هذا السؤال بالقول إن الإيمان لا يزال بإمكانه أن يلهب المشاعر ويتم تلقيه بإيجابية «لأنه يجد ما يطابقه في طبيعية الإنسان. [...] ففي الإنسان طموح لحنين لا ينفصم نحو اللانهائي »(٦). ومع هذا أشار في نفس الوقت إلى الشرط الضروري لفهم هذه المطابقة: يجب على المسيحية من أجل إظهار كل إمكاناتها، وكل حقيقتها ، أن تلبي في الإنسانية طموحها الذي لا يشبع والذي يعتمل داخل كل واحد منا. ولهذا السبب على وجه التحديد، يشدد الأب جويساني بقوة على أنه «لن يكون من الممكن تحقيق إدراك كامل لما يعنيه يسوع المسيح إذا لم ندرك أولاً طبيعة الدينامية التي تجعل الإنسان إنسانًا. يطرح المسيح نفسه في الواقع بوصفه ردا على سؤال حول ماهية «الأنا»، وفقط عند اكتساب الوعي المنتبه، والرقيق الشغوف أيضًا، بماهيتي أنا، يمكنني أن أفتح الباب على مصراعيه وأتجهز لكي اتعرف على المسيح وأحبه وأشكره وأعيش فيه. دون هذا الوعي فإن المسيح يغدو مجرد اسم»(٧).

(٥) Costituzione pastorale del Concilio Ecumenico Vaticano II (7 dicembre 1965) *Gaudium et Spes*, 21.

(٦) J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza*, op. cit., p. 143.

(٧) L. Giussani, *All'origine della pretesa cristiana*, op. cit., p. 3.

الرغبة التأسيسية لقلبنا

لقد حدد القديس أوغسطين بشكل مثير للإعجاب احتياجات الإنسان الأساسية في عباراته الشهيرة عن الأرق: «خلقتنا يا رب من أجلك، وسوف يظل قلبنا مؤرقا حتى يسكن فيك»[٨]. لقد عانى تصور هذه الرغبة التأسيسية للقلب، التي دفعت الإنسان دومًا إلى البحث عن تحقيق كيانه، عانى من تأثير الأحداث التاريخية، فنرى انخفاضًا كبيرًا في القدرة على الانتماء للنفس وللواقع. وكلما أمعنا النظر في أحداث أيامنا هذه كلما أتضحت أكثر الصورة التي وصفها بفعالية دون جوساني في الثمانينيات، وهو يتنبأ بالوضع الذي يعيش فيه الإنسان اليوم: «كما لو أن شباب اليوم قد أصيب كله [...] بالإشعاع من تشيرنوبيل: الجسم على مستوى الهيكل ظل كما هو، ولكن على المستوى الديناميكي لم يعد كما كان. [...] [...] وبقوا [...] في علاقة مجردة مع أنفسهم، مفرغين من العاطفة [دون طاقة عاطفية للالتصاق بالواقع]، مثل البطاريات التي بدلا من أن تعمل لست ساعات لا تدوم أكثر من ست دقائق»[٩]. ومنذ ذلك الحين ، وصف مؤلفون مختلفون من مدارس أيديولوجية شتى، وبنبرات متراوحة في احساسها بالسعادة، هذه الدراما الإنسانية التي تظهر أوضح ما تظهر لدى الشباب.

(٨) Sant'Agostino, *Confessioni,* I, 1.
(٩) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987),* op. cit., p. 181.

في مقال مخصص للأجيال الشابة نشرته صحيفة لاريبوبليكا قال الكاتب بيترو تشيتاتي: «في الماضي كنا نكبر بسرعة جدا. [...] واليوم هناك سباق محموم نحو الصغر. وفي الماضي كان الصبي يطمح بشتى السبل أن يصبح ناضجا. [...] وكان الحصول على النضج يعني التخلي: التخلي. فعلي حين غرة يترك الصبي وراءه كل أحلامه [...]. [اليوم، لا يعرف الشباب] من هم. وربما لا يريدون أن يعرفوا: إنهم يسألون دائمًا ما هي الأنا الخاصة بهم، [...] إنهم يحبون [...] التردد! لا تقل أبدا نعم أو لا: قف دائما أمام عتبة باب قد لا يفتح أبدا. [...] ليس لديهم الإرادة: إنهم لا يرغبون في العمل [...]. بل يفضلون البقاء سلبيين [...]. انهم يعيشون مغلفين بسبات غامض. لا يحبون الزمن. زمنهم الوحيد هو مجموعة من اللحظات، لا يمكن عقدها في عقد أو نظمها في حكاية»(١٠).

أثار هذا المقال ردا من أوجينيو سكالفاري، مؤسس الجمهورية الإيطالية وواحدة من الدعاة الأكثر نفوذا لما يمكن أن نسميه اليسار التقدمي: «الجرح كان هو الملل، الملل الذي لا يقهر، الملل الوجودي الذي يقتل الوقت والتاريخ والشغف والآمال. لا أرى العذوبة في عيونهم. لا أرى الحزن العميق الذي نراه في وجوه شباب عصر النهضة التي رسمها لوتو وتيتسيانو. [...] وإنما أرى عيونا مذهولة، مغيبة، صماء، هاربة، جشعة دون رغبة، طامعة بلا طمع، منعزلة وسط الزحام الذي يحيط بها. أرى عيونا يائسة [...] أرى إنسانا محكوما عليه بالطفولة الأبدية، [...] جيلا

(١٠) P. Citati, “Questa generazione che non vuol crescere mai”, *la Repubblica*, 2 agosto 1999, p. 1.

يائسا [...] يزحف[...]. يحاول الخروج من الفراغ البلاستيكي الذي يحيط به ويخنقه. وفرصته في الخلاص لا تبرح قلبه. لا نستطيع أن نكتفي بالنظر إليهم بحب وخوف»[١١]. من كان يتخيل أن الملحمة الطويلة التي قادتنا، من حركة النزعة الإنسانية والنهضة - اللتين نشأتا لتأكيد مركزية الإنسان في الكون - والتي أوصلتنا إلى ما نحن فيه، قد انتهت إلى هذا الخمول وهذا الملل الوجودي؟

وفيما يتعلق بانزعاج أوغسطين حدد أوغوستو ديل نوتشه بشكل جذري شكل العدمية الذي يميز عصرنا: «العدمية الحالية هي العدمية المرحة، [بمعنى] أنها خالية من الأرق (ربما يمكن تعريفها بأنها عكس الأرق الذي يتحدث عنه أوغسطين)»[١٢]. يتشابك هذا مع ما أشار إليه بندكت السادس عشر بكلمة «النسبية»، أي تلك المواقف الإنسانية والثقافية التي يتساوى فيها كل شيء ولا توجد حقيقة: كل شيء نسبي، قابل للنقاش، ولا يمكن اعتبار أي شيء أكثر أو أقل صحة من الآخر، والخياران كلاهما لا اختلاف بينهما. هذه اللامبالاة الحاكمة لا تستبعد بالطبع الإيمان المسيحي. فكلما خنقنا المزيد من الحماس والرغبة في التململ، كلما ازداد ضعف قدرتنا على معرفة الحقيقة، أي الإجابة على أعمق تطلعاتنا. ولكن إذا لم يتعرف الإنسان على كل ما بوسعه أن يجتذب «الأنا» الخاصة به، فكيف سوف يتجاوز الخمول والملل اللذين وردا أعلاه.

---

(١١) E. Scalfari, "Quel vuoto di plastica che soffoca i giovani", *la Repubblica,* 5 agosto 1999, p. 1.

(١٢) A. Del Noce, *Lettera a Rodolfo Quadrelli* (1984), in *Tracce-Litterae Communionis,* n. 1, gennaio 2007.

كل هذا يساعد على توضيح طبيعة الأزمة التي نجد أنفسنا فيها. إنها ليست مشكلة دينية أو أخلاقية فقط: إننا نواجه أزمة إنسانية بمعنى الكلمة. يمكن لهذا الهبوط أن يتعايش مع ازدهار ديني، ولكنه تدين هابط هو الآخر، كما لاحظ المراقب الأمريكي الذكي، إرنست فورتين: «لقد حذرنا نيتشه منذ زمن طويل من أن موت الله يتوافق تمامًا مع» التدين البورجوازي «[...]. لم يفكر ولو للحظة أن الدين قد انتهى. ما تساءل عنه هو قدرة الدين على تحريك الإنسان وفتح ذهنه [...]. لقد أصبح الدين منتجًا استهلاكيًّا، وهو شكل من أشكال الترفيه الكثيرة، وهو مصدر راحة للضعفاء [...] أو محطة خدمة عاطفية، وهو موجه إلى تلبية بعض الاحتياجات غير العقلانية الذي لا يستطيع أي شيء آخر أن يلبيها على نحو أفضل منه. على الرغم من أنه قد يبدو من جانب واحد، فإن تشخيص نيتشه أصاب الهدف»[١٣]. هذا هو الموقف الذي يجب على المسيحية أن تظهر فيه أهميتها الأنثروبولوجية، وملاءمتها للإنسان ، بفضل قدرتها على «تحريك الإنسان وفتح ذهنه» ، لإيقاظه من الخمول والسلبية التي ذكرها تشيتاتي. سيأخذ إنسان اليوم الطرح المسيحي على محمل الجد، إذا اعتبره استجابة كبرى لحاجته الأساسية. ويمكن أن تعتمد المسيحية في هذا على حليف عظيم، فكل الصعوبات التي يواجهها الإنسان المعاصر لا يمكنها أن تقضي في قلبه على الأمل في أن يتحقق إنسانيًّا تحققا كاملا. إنها

(١٣) E.L. Fortin, "The Regime of Separatism: Theoretical Considerations on the Separation of Church and State", in Id., Human Rights, Virtue, and the Common Good, Rowman and Littlefield Lanham (MD), USA 1996, p. 8.
ترجمة بواسطة المؤلف.

طبيعة القلب نفسها التي تدفعه إلى أن يأمل. وإنما تدفعه، غالبًا، صعوبة العثور على إجابه إلى أن يشك في إمكانية وجود مصير إيجابي، لدرجة تجعله يبدو مثل الحلم.

وعبر ماشادو عن ذلك بعبقرية فريدة: «هل نام قلبي؟/ يا مناحل أحلامي،/ ألم تعودي تعملين؟ هل جفت/ ساقية أفكاري/ هل فرغت احواضها/ وهي تدور/ مليئة بالظل؟/ لا، إن قلبي لا ينام./ قلبي يقظ، مستيقظ./ لا ينام ولا يحلم، يشاهد،/ بعيون مفتوحة لامعة،/ علامات بعيدة وينصت/ إلى ضفة الصمت العظيم»(١٤).

هذه هي أعلى نقطة – في فتح القلب – يستطيع الإنسان الوصول إليها في محاولته للعثور على إجابة لا تستطيع التوقف عن الانتظار. في بعض الأحيان، عندما لا يأتي الجواب أو لا يتوافق مع صورة مسبقة معينة، قد يعتقد الإنسان أنه حلم، أو وهم. لكنه على الفور يتعافى ويصرخ بيقين: «لا، إن قلبي لا ينام./ قلبي يقظ، مستيقظ./ لا ينام ولا يحلم، يشاهد،/ بعيون مفتوحة لامعة،/ علامات بعيدة وينصت/ إلى ضفة الصمت العظيم». الإنسان، كما يكتب ماشادو، يلاحظ بعيون مشرئبة، وينصت، لكي يرى علامة تظهر من الصمت العظيم للسر الأعظم. قد يأتي أو لا يأتي، لكن كل واحد منا، مثل كل معاصرينا، لا يستطيع التخلي عن الرغبة في ذلك، حتى وإن كان في بعض الأحيان لا يستطيع الاعتراف بذلك لنفسه. من أفلاطون إلى كافكا، يمتلىء التاريخ بشهادات على هذا الانتظار السري.

(١٤) A. Machado, “S’è addormentato il mio cuore?”, LX, *Solitudini (1899-1907)*, in *Tutte le poesie e prose scelte*, Mondadori, Milano 2010, p. 107.

يظهر هذا الأمر أكثر وضوحا كلما ازداد وضع الإنسان تعقيدًا: فبدلاً من خنق الصرخة، يعليها، كما يعترف ماتشادو نفسه أمام الساقية الجافة: «حتى قلبي ينتظر،/ وهو للنور ينظر وللحياة ،/ معجزة أخرى للربيع»[١٥]. لا يمكن للإنسان إلا أن ينتظر هذه المعجزة، لأنه غير قادر على توليدها؛ يمكن أن تأتي فقط من خلال «الصمت العظيم». وبالتالي ، كان مونتالي على حق عندما قال: «شيء غير متوقع بات هو الأمل الوحيد»[١٦].

حدث غير متوقع

حدث «غير المتوقع» هذا في يسوع المسيح، الكلمة المتجسدة. دخل معه السر الأعظم التاريخ ليصبح رفيقا للإنسان، وقد طرح نفسه كإجابة على حاجته إلى السعادة: فمن يتبعه «يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ» (انظر أنجيل متى ١٩,٢٩). سوف يهتم إنسان اليوم بالمسيحية إذا استطاع أن يحافظ على هذا الوعد، وبالتالي ينتزعه من الخمول الذي يعيش فيه. إن المسيحية مدعوة لإظهار حقيقتها على أرض الواقع. إذا لم يجرب أولئك الذين يتعاملون معها المستجدات التي تعد بها، فمن المؤكد أنهم سيصابون بخيبة أمل.

(١٥) A. Machado, “A un olmo secco”, CXV, *Campi di Castiglia (19071917)*, in *Tutte le poesie e prose scelte*, op. cit., p. 257.

(١٦) E. Montale, “Prima del viaggio”, in *Tutte le poesie,* Mondadori, Milano 1990, p. 390.

من المخزي أن العديد من أولئك الذين ما زالوا يقتربون من الكنيسة بحثًا عن إجابة كثيرًا ما يجدون أنفسهم في مواجهة نسخ هابطة من المسيحية. يمكننا أن نتخيل ماذا سيحدث إذا التقى بعضهم مسيحيًّا مثل أولئك الذين وصفهم يوحنا بولس الثاني، الذين يعتقدون أنهم يعرفون المسيحية، بينما هم في الواقع لا يعرفون ماذا عساها تكون.

لندرس الآن بعض نواحي الهبوط التي تضعف قوة الدعوة المسيحية.

أ) بحلول منتصف القرن التاسع عشر، حدد الكاردينال جون هنري نيومان إحدى هذه النواحي عندما أكد أن "الدين، لأنه أمر شخصي، يجب أن يكون حقيقيًّا، ولكنه هنا في إنجلترا أبعد من أن يكون حقيقيًّا، باستثناء عدد قليل من الأفراد. [...] إنه ليس دينا قوامه بشر وأشياء [...]. وليس قوامه أعمال نابعة من الإيمان والتفاني المباشر؛ [...] ومذاهبه ليست أفعالا بمعنى الكلمة، قدر ما هي قشور مضخمة للأفعال، تخاف، إن جاز القول، أن تقترب من الأفعال. ويؤدي بمن يتبعه إلى الاكتفاء بهذه الرؤية البائسة المطفأة للحقيقة التي جاء بها الوحي [...]. أنا لا أنكر أن الموافقة التي يغرسها هذا الدين، ويحفزها إن جاز القول، هي موافقة أصيلة، ولكنني مع ذلك أرى أنها مجرد موافقة نظرية»[(١٧)].

(١٧) J.H. Newman, تم الاعتماد على الأصل الإنجليزي في الترجمة John Henry Cardinal Newman, An Essay In Aid Of A Grammar Of Assent, Longmans, Green, And Co., 39 Paternoster Row, London New York And Bombay, 1903, P. 58.
وكما أشار هنري دي لوباك، فإن جزءًا من علم اللاهوت الكاثوليكي قد ارتكب هذا الخطأ: «وعندما رغب الدين في حماية ما فوق الطبيعة من أي تلوث لم يفعل سوى أنه خرج فعليا من نطاق الروح الحاية والحياة الاجتماعية، وتركت المجالا حرا أمام غزو العلمانية. واليوم تواصل هذه العلمانية طريقها، وتبدأ في السيطرة على ضمير المسيحيين أنفسهم ... يبدو أن الكلمة الأخيرة للتقدم المسيحي والدخول إلى مرحلة النضج يتعايشان معا في العلمنة الكاملة =

لقد أصبحت المسيحية بالنسبة للكثير من المسيحيين - وهذا هو ما أدى إلى الهبوط الأول - تصورًا فكريًّا وليست حقيقة فعلية، أي مجموعة من المفاهيم ليست لها علاقة بالحياة الملموسة. فما هي الأهمية التي يمكن أن تكتسي بها مسيحية هبطت إلى مجرد أفكار وفقه لإنسان يعيش مغموسا في واقع، ينزل كل يوم معترك الحياة؟

لقياس مدى انتشار هذا النوع من المسيحية، يكفي أن نرى رد الفعل الذي يواجهه كل منا أمام شخص يعيش الإيمان كعلاقة مع الواقع الحالي للمسيح: سوف نفاجأ بأننا كأنما واجهنا شيئًا لم نسمع به من قبل. إن عدم وجود تجربة شخصية للحدث المسيحي يجعل الإنسان غير قادر على فهمه، وعلى فهم معنى الكلمات التي تصفه. يقول بيير روسيلوت: «إن تأكيد حقائق الإيمان دون التأثر بسحر الواقعية السماوية، إنما يعني فهم هذه الحقائق بمعنى مخالف لما أراده الله منها»[١٨]. ويتحدث مفسر الكتاب المقدس الكبير هاينريش شلاير عن «الابتعاد المتزايد، أو اغتراب الفهم العام (عقلية العامة) عن الإيمان المسيحي [...] للمدركات العمومية والجماهيرية، أصبحت المصطلحات المسيحية غير مفهومة إلى حد كبير». وبالتالي ، يجب على أولئك الذين يريدون استخدام كلمات مسيحية أن يضطلعوا بمهمة غير مسبوقة: يجب عليهم أولاً أن «يحفزوا على الشعور

= التي من شأنها أن تطرد الله، ليس من الحياة الاجتماعية وحدها، وإنما من الثقافة، ومن العلاقات الخاصة بالحياة الاجتماعية» (H. de Lubac, Il mistero del soprannaturale, Jaca Book, Milano 1979, p. 47).

(١٨) P. Rousselot, The Eyes of Faith, Jaca Book، Milan 1977, pp. 100-101.

بالمعنى الذي نريد أن نتحدث عنه»[١٩]. لقد أصبحت الكلمات الكبيرة المنقولة عن التراث غير مفهومة الآن. لذلك لا يمكننا العمل فقط بالصيغ القديمة، رغم أنها صحيحة، لأنها لم تعد مفهومة في عالم اليوم[٢٠].

فالمسيحية حقيقة، وهي حدث، وليست علمًا فقهيًّا. يكفي أن تقرأ صفحة من الإنجيل لكي تدرك ما هي المسيحية ولكي تتضح الهوة السحيقة البائسة التي تفصلها عن كل تصور مفترض لها. لقد تركت لنا الأناجيل شهادة كاملة عن الدهشة التي أثارها إنسان «تحدث من موقع سلطة، وليس مثل الكتبة»[٢١]. كان من دواعي هذه الدهشة أن قالت الناس: «لم نر شيئا مثل هذا من قبل»[٢٢]. ولم تأت في الأناجيل رواية شيء ليس حقيقيًّا، يستطيع كل إنسان أن يفهمه دون شروط، ودون متطلبات خاصة. وكما شدد بندكتس السادس عشر، «إن الجدة الحقيقية للعهد الجديد لا تكمن في الأفكار الجديدة ، بل في شخصية المسيح، الذي يجسد المفاهيم لحما ودما - بواقعية ليس لها نظير»[٢٣]. بدلا من المفاهيم المجردة، هناك دراما لإله يختلط في المسيح مع معاناة الإنسانية حتى يعطي الحياة لها: «الحقيقة أن الله احب العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية»[٢٤].

(١٩) H. Schlier, *Linee fondamentali di una teologia paolina*, Queriniana, Brescia 2004, pp. 12-13.

(٢٠) Cfr. Benedetto XVI, *Risposte del Santo Padre alle domande dei parroci romani*, 26 febbraio 2009.

(٢١) مرقس ١,٢٧.

(٢٢) مرقس ٢,١٢.

(٢٣) Benedetto XVI, Lettera enciclica *Deus Caritas* est, 12.

(٢٤) يوحنا ٣,١٦.

ب) خطأ آخر لا يقل انتشار هو تقليص المسيحية إلى مجموعة أخلاقيات وقيم. إنه إغراء قديم: وبالفعل لام القديس أوغسطين عليه البلغاء: «هذا هو السم الناقع المروع لأخطائكم: أن تجير نعمة المسيح في مثاله، وليس في وهبته لحياته»[٢٥]. لقد أصبح هذا التقليص تفكيرا واسع النطاق بسبب التقلبات التاريخية في العصر الحديث، لا نستطيع في هذا المقام إلا أن نشير إليها في عجالة.

بعد انهيار الوحدة الدينية الأوروبية عن طريق الإصلاح البروتستانتي، تم إطلاق العنان لما يسمى بالحروب الدينية. وعززت هذه الحقيقة الاعتقاد بأن الدين لا يمكن أن يستمر في كونه التراث المشترك الذي تستند إليه الوحدة الأوروبية. واضحت هناك حاجة إلى قاعدة مشتركة يتقاسمها الجميع. وبمجرد إزالة المسيحية، كان العنصر المشترك الوحيد هو العقل كما تصوره عصر التنوير. وقد عبر عنوان عمل كانط الشهير، «الدين في حدود العقل وحده»، عن هذا البرنامج بشكل جيد[٢٦]. وكان على الدين الجديد أن يحترم القيود المفروضة من العقل الذي صوره التنوير بأنه أداة للقياس. العقل، الذي تقلص إلى أداة قياس، كان كافيًا لتنظيم الحياة في هذا العالم. ولذلك، لم تكتس الشخصية التاريخية ليسوع الناصري بأية أهمية أخرى سوى تجسيد المثل الأعلى للشخص الراشد السوي نفسيًّا، كما يتصوره العقل سلفا. هذا المثل الأعلى، بقيمه التي تم تأسيسها عن طريق العقل، سيشكل مضمون الديانة الجديدة، التي انتشرت منذ ذلك

(٢٥) Sant'Agostino, *Contra Iulianum opus imperfectum*, II, 146.

(٢٦) I. Kant, *La religione entro i limiti della sola ragione, Laterza,* Bari 2014.

الحين دون أن تتوقف عن تشريب المسيحية وتقليصها أكثر فأكثر إلى أخلاقيات منبتة الصلة عن صلتها بالتاريخ.

هذا هو السبب الذي حدا بيوحنا بولس الأول لأن يقول «إن الدراما الحقيقية للكنيسة التي تحب أن تصف نفسها بأنها حديثة هي محاولة تصحيح دهشة حدث المسيح عن طريق قواعد تنظيمية»[٢٧]. وهو تشخيص تناولته بعد ذلك كلمات بنديكت السادس عشر: «الفكرة الواسعة الانتشار هي أن المسيحيين يجب أن يراعو الكثير من الوصايا، والمحظورات، والمبادئ، وما شابه ذلك، وبالتالي فإن المسيحية هي شيء متعب وقاهر في الحياة، وليصبح الفرد أكثر حرية بدون كل هذه الأعباء. لكنني أود أن أوضح أن دعمنا بالحب الكبير وبالوحي ليس عبئا، وإنما هي ضرب من الأجنحة»[٢٨].

لم تكن هاتان النسختان، النظرية والأخلاقية، هما اللتان أثارتا الاهتمام بالمسيحية منذ ألفي عام أو أعادت إيقاظها قبل خمسمائة سنة في زمن الإصلاح الكاثوليكي، ولن يكون الأمر كذلك لمعاصرينا أو حتى لأولئك الذين يشعرون بأنهم مسيحيون. «عندما لم يعد الإيمان الكاثوليكي ، في رأي الكثيرين، التراث المشترك للمجتمع ، وغالبًا ما ينظر إليه على أنه بذرة تقوضها وتحجبها «الألوهية" وأباطرة هذا العالم، أصبح

(٢٧) Giovanni Paolo I, *"Humilitas"*, n. 3, 2001, 10.

(٢٨) Benedetto XVI, *Intervista alla Radio Vaticana dedicata alla GMG di Colonia,* a cura di padre Eberhard von Gemmingen, 15 agosto 2005.

من الصعب جدا عليه أن يمس القلوب من خلال الخطابات الأخلاقية البسيطة أو باستدعاء خاص أو عام للقيم المسيحية»[٢٩].

من أين إذا يمكننا العودة إلى البداية؟ في حديثه أمام سينودس الأساقفة المكرس للعلمانيين في الكنيسة، قال الأب جيوساني في عام ١٩٨٧: «ما ينقص ليس التكرار اللفظي أو الثقافي للإعلان. ربما ينتظر إنسان اليوم، دون قصد، تجربة الالتقاء بالناس الذين تشكل لديهم حقيقة المسيح حضورا جعل حياتهم تتغير. إنه تأثير بشري يمكن أن يهز إنسان اليوم: حدث يردد صدى الحدث الأولي، عندما رفع يسوع عينيه وقال: «يا زكا اسرع و انزل لانه ينبغي ان امكث اليوم في بيتك»[٣٠]. هنا نشير إلى المنهج الذي حدثت بها المسيحية وتعود إليه دائما.

بعبارة أخرى، «الحدث المسيحي له شكل (اللقاء): اللقاء الإنساني». وبعبارة أخرى، فإن اللقاء هو «التقاء مع شيء مختلف يجتذب لأنه يوافق القلب، ولهذا يمر عبر المقارنة وعبر حكم العقل، ويحفز على الحرية في قدرتها الوجدانية [...]. إن ما يؤثر على القلب هم الناس، الوجوه، التي لها هوية حقيقية توافق القلب، ولا تحددها مجموعة العوامل التي يتكون منها المناخ الاجتماعي على النحو الذي تفضله السلطة ويتحمله الجميع»[٣١]. هذه هي الطريقة التي لفتت بها رسالة «الله محبة» انتباه الجميع من الأسطر

(٢٩) Benedetto XVI, *Incontro con i Vescovi del Portogallo,* Fatima, 13 maggio 2010.

(٣٠) L. Giussani, *L'avvenimento cristiano,* BUR, Milano 2003, pp. 23-24.

(٣١) L. Giussani S. Alberto J. Prades, *Generare tracce nella storia del mondo*, BUR, Milano 2012, pp. 36-38.

الأولى: «قبل أن نكون مسيحيين لم يكن هناك قرار أخلاقي أدى إلى ذلك، أو فكرة كبرى، وإنما كان هناك لقاء مع حدث، مع شخص، يعطي للحياة آفاقا جديدة، ومعها اتجاها حاسما.»[٣٢].

هذا هو بالضبط ، كما قلنا ، ما توثقه الأناجيل عن بداية المسيحية: لقاء مع شخص يسوع[٣٣]. وتتفق جميع الأناجيل على هذا، رغم الاختلافات الشكلية فيما بينها[٣٤]. فيصف الإنجيلي يوحنا الأثر الذي أنتجه شخص يسوع على أول شخصين التقيا به على ضفاف نهر الأردن، في نص قال عنه بيير جريلوت إن به «بصمة قصة كتبها أحد أبطالها»[٣٥]. تبعا يسوع بناء على إشارة من يوحنا المعمدان أثارت فضولهما، فالتفت إليهما وسألهما: «عما تبحثان؟» إن هذا السؤال، ببساطته العزلاء، يطرح حقيقة المسيحية في التاريخ، وهي أنها جاءت إجابة على بحث، بحث له طابع إنساني عام[٣٦].

(٣٢) Benedetto XVI, Lettera enciclica *Deus Caritas est*, 1.

(٣٣) «فِي بداية إيماننا نَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةِ اللهِ فِي سِرٍ: الْحِكْمَةِ الْمَكْتُومَةِ، الَّتِي سَبَقَ اللهُ فَعَيَّنَهَا قَبْلَ الدُّهُورِ لِمَجْدِنَا، (راجع ١ كورنثوس ٢,٧؛ رومية ١٦، ٢٥-٢٦)، وقد كشفت الآن» (يوحنا بولس الثاني، رسالة في الإيمان والعقل، ٧)

(٣٤) من أجل المقارنة بين الروايات التي طرحتها الأناجيل المتناظرة ورواية يوحنا بشأن اختيار التلاميذ، راجع RE Brown, El evangelio según Juan I-XII, Biblioteca Biblica Cristiandad, Madrid 1979, pp. 259-261 (cfr. R.E. Brown, *Giovanni. Commento al Vangelo spirituale,* Cittadella Editrice, Assisi 1979, pp. 55-121).

(٣٥) P. Grelot, *Jésus de Nazareth*, Cerf, Paris 1997, p. 260. ترجمة المؤلف.

(٣٦) لكي نرى هذا البحث في الواقع وبأشكاله الكثيرة، تلزم العودة إلى جميع المقابلات التي وردت في الإنجيل، مثل البحث عن المرأة السامرية، وعن السعادة التي لا يستطيع أزواجها الخمسة منحها لها (يوحنا ٤: ١١-١٧) ؛ ومثل شوق رئيس العشارين في منطقة أريحا، واسمه زكا، والذي لم تفلح جميع الأموال التي اختزنها، وليس دائما بشكل قانوني («كان غنيا جدا ،» كما يقول الإنجيل) ، في أن تشبع هذا الشوق (لوقا ١٩,١-١٠))؛ وفي الحاجة إلى شفاء أعمى أريحا، الذي استمر في الصراخ حتى عندما حاولوا تغطية فمه لمنعه من مضايقة المعلم (مرقس ١٠، ٤٦-٥٢). بدون هذا البحث لن يكون للمسيحية معنى ولن يمكن لأحد الانتباه إليها:=

ورد الاثنان، اندراوس ويوحنا، بسؤال آخر: «يا معلم، أين تمكث؟»، وقال لهما يسوع بطريقة جافة ومباشرة: «تعاليا وانظرا». وظل هذا التعبير في التاريخ تلخيصا وحيدا للمنهج المسيحي: «تعاليا وانظرا». المسيحية هي شيء يمكن رؤيته. توجد في مكان يمكنك الذهاب إليه. لكم تعجبت من أن يسوع لم ينفق كلمة واحدة للدعوة. وإنمنا استجاب فقط للتعطش البحثي لهذين بدعوتهما، حتى يتمكنا بنفسيهما من استخلاص استنتاجاتهما الخاصة. يا لها من ثقة لا حدود لها في قدرة قلب الإنسان على إدراك الحقيقة! وحتى لا نعتبر أن ما يصفه هذا المشهد ببساطاة لا مثيل لها أمرا مفروغا منه، يكفي أن يتساءل كل منا عن عدد المرات التي التقى فيها بشخص ثم عاد ليبحث عنه في اليوم التالي، من أجل فضول أثاره فيه، ثم عاد إليه مرة بعد مرة.. فقط أولئك الذين وافقوا على المشاركة في التعايش مع يسوع كان يمكنهم التأكد من شخصه، ومن نعمته التي قادتهم إلى الالتزام بالإيمان. كان التعايش هو الذي سمح لهم بتلقي المعطيات التي جعلت هذا الالتزام معقولاً، دون أن يضطروا بأي حال للتضحية باحتياجات العقل.

طبيعة المسيحية هي أن تكون حدثًا. لا توجد كلمة أخرى يمكنها أن تعرفها بشكل أفضل. المسيحية ليست علما، ولا أخلاق، وليست طقوسا، وإنما هي حدث، واقع لم يكن موجودا من قبل ودخل التاريخ في لحظة بعينها. كل شيء آخر ما هو إلا نتيجة لهذا.

= «لا شيء أكثر عبثا من الإجابة على سؤال لم يسأله أحد» (R. Niebuhr, *Il destino e la storia. Antologia degli scritti*, BUR, Milano 1999, p. 66).

«إنه في حالة دخول شيء جديد إلى حياتنا: ليس متوقعًا، ولم يتم تعريفه [...]، وعلى قدر "تهميشه" في إطار غير المتوقع، الذي لا يمكن التنبؤ به قبل حدوثه، على قدر ما يكون دقيقا واضحا ملموسا مستداما يمكن اعتناقه فعليًّا عند حدوثه [...] الله، والمصير، والسر، وأصل كل شيء، أصبح وجها إنسانيًّا. مستجد حقيقي واقعي، أن يكون إنسان له وجه وقلب إذا شئنا التفسير الحرفي (...) يقول إنجيل يوحنا في بدايته: (وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا). وجه إنساني جديد: هكذا ظهر الله في العالم»[٣٧].

معاصرة السيد المسيح

حدد سورين كيركجارد السمة الشخصية الأساسية للمسيحية باعتبارها حدثا: «في العلاقة مع المطلق لا يوجد إلا الزمن، هو الزمن

(٣٧) L. Giussani, *L'avvenimento cristiano*, op. cit., pp. 14-15. وفي نص آخر، يقول جوساني بإصرار: «المسيحية حدث. ولا توجد كلمة أخرى توضح طبيعتها: فهي ليست كلمة القانون، ولا كلمات «الإيديولوجيا» أو «المفهوم» أو «المشروع». المسيحية ليست مذهبا دينيا، ولا اتباع لقوانين أخلاقية، ولا هي مجموعة من الطقوس. وإنما المسيحية حقيقة، وهي حدث، والباقي كله مترتب على ذلك. وهكذا فإن كلمة «حدث» حاسمة. فهي تشير إلى المنهج التي اختاره الله واستخدمه لإنقاذ الإنسان: لقد أصبح الله إنسانًا على صدر فتاة تبلغ من العمر خمسة عشر أو سبعة عشر عامًا تدعى مريم، في «البطن التي استضافت رغبتنا»، كما يقول دانتي. الطريقة التي أقام بها الله علاقة بنا، لكي ينقذنا، هي حدث، وليست فكرة أو مشاعر دينية. إنها حقيقة حدثت في التاريخ تكشف عمن هو الله وتشير إلى ما يريده الله من الإنسان، وماذا على الإنسان أن يفعل في علاقته مع الله. في قدرة الله أن يختار طريقة للتواصل مع البشر، من خلال الوحي المباشر، ومن واجب الجميع أن يتبعوا ما أوحى الله إليه في فكره وفي قلبه. وهذه الطريقة ليست أبدا هي الأسهل والأكثر أمانًا، لأنها معرضة دائمًا لتذبذب المشاعر والأفكار. لكن الطريقة التي اختارها الله لكي يخلصنا بها هي الحدث، وليست أفكارنا». (L. Giussani S. Alberto J. Prades, *Generare tracce nella storia del mondo,* op. cit., pp. 23-24).

الحاضر، وما ليس معاصرا مع المطلق، ليس له مطلق فعلي. وبما أن المسيح هو المطلق، فمن السهل أن نرى أنه لا يمكن أن يكون له إلا وضع وحيد: ألا وهو المعاصرة »[٣٨].

والسؤال إذن هو: كيف يمكن لحدث المسيح، الذي يتسم بطابعه التاريخي والزماني، أن يظل حدثا معاصرا في الزمان والمكان، ولا يفقد خصائصه الجسدية والبصرية، أو وجهه التاريخي، ذلك الوجه الذي يمكن الالتقاء معه اليوم والافتتان به كما حدث في بدايته؟ مشهد تلاميذ عمواس هي الإجابة على هذا السؤال. إننا نرى فيه كيف أنه في الوقت اختفى فيه حضور المسيح من المشهد الذي افتتن فيه هؤلاء، عاد التلاميذ إلى البيت خائبي الأمل. وعلى الرغم من أنهم تعرفوا فيه على «نبي قوي في الأفعال والكلمات» ، إلا أن حكم الإعدام الصادر ضده أذهلهم لدرجة أن أملهم قد انهار[٣٩]. إن عبارة «كنا نأمل» كانت ستبقى إلى الأبد شاهدا على المغامرة التي عاشوها، لولا أنه حدث شيء غير متوقع لم يكن أحد يحسب له: وجوده الحي. لتفسير التقاء التلاميذ بعد فضيحة موت يسوع، لا تكفي الرغبة في مواصلة رفع لوائه، أو النية في نشر تعاليمه، أو الاهتمام بنشر وحيه. لم يكن أي من هذه الأسباب كافيًا لإعادة لم شمل هذه المجموعة وإعطائها الدافع التبشيري الذي ميزها منذ البداية والذي يبرر مثل هذا الانتشار السريع للمسيحية. يكفي أن نستطلع الوقائع: كيف أمكن للتلاميذ أن يتغلبوا على فضيحة الصليب؟ بعظمة البعث

(٣٨) S. Kierkegaard, *Esercizio del cristianesimo*, a cura di C. Fabro, Studium, Roma 1971, p. 126.

(٣٩) لوقا ٢٤، ١٩-٢١.

وحدها[٤٠]. وبالطريقة نفسها، دون وجود المسيح الحي[٤١]، لاستحال فهم انطلاق ونمو التبشير.

نحن إذن إزاء واقع إنساني تفسيره الوحيد المناسب يتمثل في الوجود الحيّ المهيب للمسيح، الذي يولد بقوة روحه الجماعة المسيحية التي ستجعله حاضرًا في التاريخ. لا يمكن اختزالها إلى منظمة، حتى لو بدا من البداية أن لها تنظيم. ولا يمكن كذلك اختزالها إلى إلهام داخلي خالص، لأنها منذ البداية قدمت نفسه كواقع يمكن التعرف عليه من الناحية الاجتماعية، وهو ما لم يكن ليوجد إذا لم يلمسهم المسيح بعد بعثه جميعا، واحدًا تلو الآخر، بوجوده الحي. يذكّرنا مشهد الرسول توماس بهذا على نحو فعال. يشرح التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية كيف قرر المسيح البقاء بيننا: «عندما تم استبعاد وجوده المرئي عن التلاميذ، لم يتركهم يسوع أيتامًا (راجع يوحنا ١٤: ١٨). ووعد بالبقاء معهم حتى نهاية الزمن (راجع متى ٢٨,٢٠)، أرسل لهم روحه (راجع يوحنا ٢٠، ٢٢، الأعمال ٢: ٣٣). بمعنى ما ، أصبح الاتحاد مع يسوع أكثر كثافة: (في

---

(٤٠) كما كتب عالم اللاهوت البروتستانتي بيتر شتولماخر: «عندما هبطت ليلة الجمعة الحزينة على يسوع ميتا على هيكل الصليب أسرع أصدقاؤه في نزعه منها ووضعوه في مقبرة منحوت في الصخر، كان بإمكان كل يهودي معادٍ ليسوع أن يقول، أو حتى من واجبه أن يقول مع سفر التثنية ٢١,٢٢-٢٣: إِذَا كَانَ عَلَى إِنْسَانٍ خَطِيَّةٌ حَقُّهَا الْمَوْتُ، فَقُتِلَ وَعَلَّقْتَهُ عَلَى خَشَبَةٍ، فَلاَ تَبِتْ جُثَّتُهُ عَلَى الْخَشَبَةِ، بَلْ تَدْفِنُهُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ، لأَنَّ الْمُعَلَّقَ مَلْعُونٌ مِنَ اللهِ.! ضد هذا التفسير المنطقي الرهيب لموت يسوع على الصليب (راجع يوحنا ٣١،١٩؛ أعمال الرسل 30،5؛ 10,39; Giustino, *Dialoghi,* 89,2; 90,1) أمكن لتلاميذه المنهارين والمعذبين بالشك والجزع أن يستردوا عافيتهم فقط في صباح يوم الفصح يوم ظهر الصليب في حياة إلهية». (Fr Stuhlmacher، Jesus of Nazareth Christ of Faith، Paideia، Brescia 1992، pp. 55-56).

(٤١) «معارضته [التجلي] [...] تجعل تطور المسيحية والتبشير بها غير مفهوم» (المرجع السابق، p.57).

الواقع، من خلال اتصاله بهم بروحه، تم تشكيل أخوته على نحو صوفي على صورته، فنادت بهم جميع الشعوب) (Lumen Gentium 7)»[٤٢]. لهذا السبب يستطيع يوحنا بولس الثاني أن يؤكد: «إن معاصرة المسيح للإنسان في كل زمان تتحق بجسمه، والذي يتمثل في الكنيسة»[٤٣]. ويظل المسيح في كنيسته، بما يجعل تلك المعاصرة ممكنة وتسمح للبشر من كل الأعمار بالدخول في علاقة مباشرة معه، باتباع الأسلوب الأسري نفسه الذي اتبعه تاريخيًّا في تجليه. ومن خلال المعمودية، يستمر المسيح في دمجنا بنفسه، بما يجعل منا جسده التاريخي. لأنكم عندما تعمدتم بالمسيح تلبستم المسيح. لم يعد هناك يهودي واغريقي، ولم يعد هناك عبد وحر، ولم يعد هناك ذكر وأنثى، لأنكم جميعا واحد في يسوع المسيح[٤٤].

يذكرنا المجمع الفاتيكاني الثاني أن «حياة المسيح - في الكنيسة - تنتشر في المؤمنين الذين، من خلال الأسرار، يتحدون بطريقة غامضة وحقيقية بالمسيح وبآلامه ومجده»[٤٥]. وهكذا يتم التواصل مع حياة المسيح بطريقة حقيقية بحيث يتم تحويلنا إلى «خلق جديد» (٢ كورينثوس ٥: ١٧)[٤٦]. من خلال هذا الحدث، الذي يستحيل على قوى البشر وحدها، يشهد المسيح على معاصرته. إن لدى الكنيسة وعيًا واضحًا بكونها «تجلي المسيح على العالم»، عندما لا تركز على كيانها

(٤٢) *Catechismo della Chiesa Cattolica*, 788.

(٤٣) Giovanni Paolo II, Lettera enciclica *Veritatis Splendor*, 25.

(٤٤) Gal 3,27-28.

(٤٥) Costituzione apostolica *Lumen Gentium*, 7.

(٤٦) Catechismo della Chiesa Cattolica, 788: «لا يطهر التعميد من الذنوب كلها وحسب، بل يحول المخلوق أيضًا إلى «خليقة جديدة» (كورينثوس٢ ٥: ١٧)».

المنفصل، بل كيانها المتحد معه: «هذه هي رسالتها وهذه هي مسيرتها: أن يكون حضور المسيح دائم بين الناس»(٤٧).

«إن حدث المسيح يصبح حاضرا الآن في ظاهرة إنسانية مختلفة: إنسان يصادفك فيها ويدهشك بوجهة جديدة للحياة فيها. [...] هذا اللقاء مع الإنسان المختلف إنسانيًّا هو شيء في غاية البساطة، وبدائي على نحو مطلق، ويأتي قبل كل شيء، قبل كل تعاليم كنسية، وقبل كل تفكير وتطوير. إنه شيء لا يحتاج إلى تفسير، ولكن فقط أن تتم رؤيته وتلقيه وأن يثير الدهشة والعاطفة وأن يشكل دعوة ويحرك تتبعا، بقوة تطابقه مع التوقع القلبي الجوهري»(٤٨).

يجب أن تدهش هذه الوجهة الجديدة في الحياة الإنسان في وجهه وفي حياته. وبدون معاصرة وجود المسيح في إنسانية جعلها هو مختلفة، لم يكن الإيمان المسيحي ممكنًا بوجهه العقلاني، لأنه سيكون من المستحيل التحقق في الزمان والمكان من قدرته على الاستجابة لإمكانية التحقق المنتظرة والتي تتجذر سرا بداخلنا جميعا. إن تحقق ما هو إنساني في شخص يشهد لنا بأن ما نريده موجود ويمكن الوصول إليه ويمكن أن نلمسه ونراه ونتعرف عليه. هذا هو ما يجعل المسيحية قابلة للانتشار،

(٤٧) Benedetto XVI, *Discorso all'aeroporto di Santiago de Compostela*, 6 novembre 2010. بمناسبة العظة المخصصة للكنيسة القديمة للعائلة المقدسة في برشلونة، قال بندكت السادس عشر في اليوم التالي: «الكنيسة ليس لها قوام من تلقاء نفسها؛ بل هي مطلوبة لكي تكون بمثابة علامة وأداة للمسيح، وفي وتحت سلطانه بصفاء وعذوبة خالصين، وفي خدمة رسالته خدمة كاملة».

(٤٨) L. Giussani, "Qualcosa che viene prima", *Tracce-Litterae Communionis,* n. 10, novembre 2008, pp. 1-6.

ولأن تقوم بتكوين تراثها، وأنها ليست فقط نشر للمحتوى الديني وإنما إعادة إنتاج متجددة للحدث الأصلي، للقاء مع الإنسانية المختلفة. وتسمح لنا العلاقة مع هذه الإنسانية الجديدة بالمشاركة في الاستحداث ومن ثم في اكتشاف الأسباب التي تجعل انتماءنا للمسيح اليوم عقلانيًّا، وكذلك ارتياح الإنسان للإيمان.

لا يتطلب هذا التحقق أي موهبة معينة، ولا يتطلب فرض رقابة على أي شيء إنساني فينا. بل على العكس، لا يمكن تحقيقه إلا إذا وضعت كل شيء على المحك، دون أن تترك أي شيء خلفك. وبهذه الطريقة فقط سنتمكن من اكتشاف من هو المسيح، من خلال القدرة التي يمتلكها في الكشف عن سر «الأنا»، للاستجابة لمطالب وجودنا، مما يؤدي به إلى كمال لا يستطيع الإنسان وحده الوصول إليه. «الإنسان الذي يريد أن يفهم نفسه في أعمق أعماقها - ليس فقط وفقًا لمعايير ومقاييس وجود فورية وجزئية وغالبًا سطحية، بل وحتى ظاهرية يجب أن يقترب من المسيح، مع قلقه وعدم يقينه وأيضًا مع ضعفه وخطيئته، وبحياته وموته. يجب عليه، إذا جاز التعبير، أن يدخل فيه بنفسه كلها، ويجب أن (يأخذ لنفسه) وأن يستوعب حقيقة التجسد والخلاص كاملة ليعيد اكتشاف نفسه. فإذا ما نفذ هذه العملية العميقة فيه، سينتج ثمارا، لا تتمثل في العبادة وحدها، وإنما في التعجب العميق من نفسه». هذا التعجب العميق «المتعلق بقيمة وكرامة الإنسان يسمى الإنجيل»[٤٩]. من يعيش هذه التجربة سوف يتعرف

(٤٩) Giovanni Paolo II, Lettera enciclica *Redemptor Hominis*, 10 . هذا التعجب العميق «المتعلق بقيمة وكرامة الإنسان يسمى الإنجيل، أي البشارة. ويسمى أيضًا المسيحية. كما يبرر هذا التعجب مهمة الكنيسة في العالم، ليس هذا فقط، وإنما أيضًا (في العالم =

بسهولة على تعبير الخطيب الروماني ماريو فيتورينيو: «عندما التقيت المسيح، اكتشفتني إنسانا»(٥٠).

وبالتالي، لا يخشى الإيمان المسيحي من الاستخدام الكامل للعقل (ومعه، فقط الحرية والحب)، بل يتطلب ذلك. لأنه من أجل التواصل بطريقة إنسانية، يحتاج الإيمان إلى إنسان يستخدم العقل بكل أبعاده، والعقل هو الذي يحمل في طياته حريته، حتى يستطيع أن يجرب الاستحداث الذي يأتي به العقل، ويجب أن تكون له رؤية نقدية أصيلة مستعدة لإخضاع العقل للتجربة التي يعيشها. كما يحتاج الإيمان المسيحي إلى أن نستخدم القلب، بكلّ ما يحتاجه، لكي نتمكن من فهم حدث المسيح الذي يحدث أمام أعيننا. بغير إنسانيتنا لن يكون هناك إيمان مسيحي، خاصة اليوم، ونحن في زمن أصبح فيه الإيمان محاربا ومحاصرا.

من خلال الإنسانية المختلفة التي جعلها ممكنة، يجذبنا المسيح ويعد شهوده الجدد في كنيسته، كما ذكر بعبقرية الكاردينال نيومان: «هم أولئك الذين يدعوهم الرب بوصف (المختارين)، أولئك الذين جاءوا إلى" الاجتماع به». هم أيضًا أولئك الذين قدرت العناية الإلهية أن يكونوا ملح الأرض - لمواصلة خلافة شهوده، بحيث لن يكون هناك ورثة في الخلافة الملكية، فيما يرسل الموت جيلا بعد الآخر للراحة وللاستمتاع بمكافأته. ربما التقوا بالمصادفة بمن كان مقدرا له أن يولدهم على الحقيقة،

= المعاصر). هذه الدهشة، هي اقناع ويقين في الوقت نفسه، وهي في أصلها العميق يقين الإيمان» (المرجع نفسه).

(٥٠) Cfr. Mario Vittorino, "In epistola ad Ephesios", *Liber secundus, Marii Victorini Opera exegetica,* cap. 4, v. 14.

دون أن يدرك عظمتهم الحقيقية على الفور. وربما وجدوا فيه من قبل تعاليما خيالية، بعضها غريب أو سلوكا مشكوكا فيه. قد تمر سنوات قبل أن نتغلب على هذه الأحكام المسبقة؛ ولكن شيئًا فشيئًا ستشاهدون عليه المزيد والمزيد من علامات الجلال الخارق للطبيعة. إننا عندما نشارك في العديد من المناسبات التي تفرضها تقلبات الحياة ندرك أن السمو الذي يرتقي إليه، هو مثل العمق الذي تهبط إليه قواعده، يتجاوز كل قدرة وكل مقياس. وهكذا يختتم المعتنق الكبير للمسيحية: «عندئذ يأتي أخيرا الإدراك بوجود المسيح، حاضرا أمامهم، [وأن حضور المسيح كان فيهم] وسوف يمجدون لله في خادمه (غلاطية ١: ٢٤) ، بحسب قول الكتاب المقدس: وفي الوقت نفسه سيصبحون هم أنفسهم على صورة رائعة كانوا يتأملونها، ويستعدون لخلافته في نشرها بين البشر»(٥١).

هذا التواصل مع الآخرين ليس له أصل آخر سوى جاذبية المسيح حيث يعيش الشاهد: «محبة المسيح تدفعنا إلى التفكير بأن واحدا قد مات من أجل الجميع، ومن ثم فالجميع ماتوا. وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الاحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام من أجلهم»(٥٢). فقط هذه التجربة يمكن أن تولد بطلًا جديدًا في التاريخ ، إنسانا حرًا ومتماسكا، لا يعتمد على العقلية العادية، قادرا على أن يتحول إلى موضوع للتحرر الذاتي، أي قادر على اتخاذ المبادرة لخلق أعمال تلبي

(٥١) J.H. Newman, Sermone V, *L'influenza personale come mezzo per diffondere la verità,* 22 gennaio 1832, n. 34, in *Opere. Apologia, Sermoni universitari, L'idea di Università,* UTET, Torino 1988, p. 535.

(٥٢) كورنثوس ٢ ٥، ١٤-١٥.

احتياجات الجميع ويمكنها توليد عملا لائقا؛ الأعمال التي تنشأ فقط عندما يكون لدى المرء الشجاعة لأن يقول: «أنا»، لأنها تعبير عن هبة النفس، هبة البر، هبة المخلوق الجديد.[٥٣] ليس هناك تحليل اجتماعي ولا أخلاقي ولا إيديولوجيا، قادرة على إثارة موضوع مماثل في التاريخ. في الوقت الحالي، حيث يزداد تدهور الإنسان ولا توجد أماكن للتعليم الحقيقي، تتاح للكنيسة الفرصة لإظهار وجهها الحقيقي وقوتها وجمال الحياة التي تتدفق عبر عروقها. يكفي أنها لا تخون طبيعتها الحقيقية وتشهد المسيحية على أنها حدث، لذلك فهي شيء يحدث الآن وقادر على إثارة الاهتمام بالإنسان، وإكسابه وعيه بنفسه وبالواقع الذي يحوله إلى بطل تاريخي حقيقي.

طريقة الوجود المسيحي في مجتمع تعددي: الشهادة

هذه التجربة في الحياة هي بالضبط ما دعينا لكي نشهد عليه في موقف يبحث فيه الكثيرون المنتمون إلى اتجاهات إيديولوجية متباينة عن مخرج من الارتباك. وهذا هو الواجب الأساسي للمسيحيين في مجتمع تعددي: أن تكون نفسك، وأنت تشهد حداثة الحياة التي تولد من اللقاء مع المسيح. «ما هي المساهمة المحددة والأساسية للكنيسة في أوروبا، التي سارت في نحو تكوينات ومشاريع جديدة في نصف القرن الماضي؟ إن

(٥٣) «البر ليس بالنسبة للكنيسة نوعا من نشاط المساعدة الاجتماعية والتي يمكن تركها للآخرين، وإنما ينتمي إلى طبيعتها، وهو تعبير لا يمكن التخلي عنه لجوهر وجودها» (Benedetto XVI, Lettera enciclica *Deus Caritas est*, 25a).

مساهمتها مركزية في مثل هذا الواقع البسيط والحاسم: الله موجود وهو الذي وهبنا الحياة. هو وحده المطلق، وهو الحب المخلص الثابت، والقبلة الخالدة التي تظهر خلف كل خير، وكل حقيقة، وكل جمال بديع في هذا العالم، ولكنه رغم روعته لا يكفي لقلب الإنسان.» ولهذا فهو وحده القادر على الاستجابة للشوق الذي تكابده قلوبنا وأن يسعدها: «لا يوجد كنز أعظم يمكننا تقديمه لمعاصرينا»(٥٤). لا يمكن اختزال حداثة المسيحية في الاتساق الأخلاقي. إذا لم يكن وجودنا شاهدا على اكتمال الحياة وتغيير العقلية، في التعامل مع كل الظروف التي يولدها الإيمان، فسوف يشهد على انخفاضه. «إن مساهمة المسيحيين حاسمة فقط إذا أصبح ذكاء الإيمان هو ذكاء الواقع»(٥٥).

لا يخاف بطل رواية مثل الذي وصفناه من العيش في مجتمع التعددية الثقافية الحالية. ولا حتى يشعر بأنه مغلوب من الادعاء أو الشكوى. في سياق الأزمة البشرية هذا، في سياق السبات الغامض والملل الذي لا يقهر يمكن أن يظهر الإيمان المسيحي كل ما يناسب الإنسان منه. سيحدث هذا إذا عرفنا كيف نتواصل، من خلال التجربة، وأن تقتنع بأن الإيمان يجعل الحياة أكثر إنسانية وأكثر قوة وأكثر قيمة. الله ليس «خصم الإنسان وعدو حريته»(٥٦)، لكنه الوحيد القادر على انقاذه، بإعلاء كرامته

(٥٤) Benedetto XVI, *Omelia nella Plaza del Obradorio,* Santiago de Compostela, 6 novembre 2010.

(٥٥) Benedetto XVI, *Discorso ai partecipanti alla* XXIV *Assemblea plenaria del Pontificio Consiglio per i Laici*, 21 maggio 2010.

(٥٦) «من المأساة أنه في أوروبا، وخاصة في القرن التاسع عشر، تم التأكيد على القناعة بأن الله هو خصم الإنسان وعدو حريته» (Benedetto XVI, Omelia nella Plaza del Obradorio, Santiago de Compostela, 6 novembre 2010).

وحريته. إن مفترق الطرق المعاصر هو مناسبة إلهية لنا نحن المسيحيين لاكتشاف الطبيعة الحقيقية للمسيحية وأهميتها الأنثروبولوجية، حتى نكون قادرين على نقلها إلى إخواننا كتجربة في الحياة. كما رأينا، بعد التجسد، الذي تحولت من خلاله المفاهيم (بل ويمكننا القول: القيم) إلى «الجسد» و «الدم»، لا توجد وسيلة أخرى لتوصيل الحقيقة إلا كما تجسدت في الحياة. وتسمى هذه «الشهادة»، وهي الفكرة التي نعتزم الإشارة بها إلى طريقة وجودنا كمسيحيين في المجتمع.

لفهم أي نوع من الوجود الضروري للشهادة على حدث للمسيح اليوم، قد يكون من المفيد إبراز الملاحظة التالية. عندما يتوجب علينا الدفاع عن شيء ما في سياق جدلي، فإننا لكي نجعل إجابتنا حاسمة مؤثرة فإننا دون وعي نقبل الطريقة التي يطرح بها الآخر سؤاله. إننا عندما نفعل هذا فإننا موقفنا يحدده نقيضه، وهو رد فعل، وليس فعلاً أصليًّا، أي موقف نابع من تجربتنا الإيمانية. وهذا يؤدي إلى تقليص المسيحية مرة أخرى أو هو الشهادة على إعادة طرح رؤية دينية وبعض القيم والأخلاقيات.

بواقعيته المعتادة، يحذرنا بندكت السادس عشر من أنه حتى لو كان الدفاع عن المبادئ «ضروريًّا ولا غنى عنه»، فإن هذا لا يكفي لإثارة الاهتمام بهم: «لا يصل البيان البسيط للرسالة إلى عمق قلب الإنسان، ولا يلمس حريته، ولا يغير الحياة. فما يبهج في الأساس هو الاجتماع مع المؤمنين الذين يجذبون من خلال إيمانهم، نحو نعمة المسيح ، شهودا

عليه»[٥٧]. كل واحد منا يعرف ذلك بالتجربة: الشهادة على جمال الحياة التي تغيرت يمكن أن تجذب إلى المسيح[٥٨]. ولا يترك اللقاء مع أناس مختلفين بعضهم عن بعض أحدا غير مبال خاصة إذا ثبت في حياتهم ذكاء جديد للواقع ، ورغبة استيقظت تمامًا، ومبادرة لا تكل، وقدرة على الحنان، واحتضان، وقوة، وحريات لا يمكن اقتناصها في العادة. هكذا يصفهم اللاهوتي البيزنطي نيكولاس كاباسيلاس: «أناي لديهم رغبة قوية داخل أنفسهم تفوق طبيعتهم، وهم يتشوقون ويرغبون أكثر من قدرة الإنسان على الرغبة، أناس بهرهم المسيح نفسه. هو نفسه أرسل إليهم شعاعًا بهيًا من جماله. إن حجم الجرح يكشف بالفعل كيف كان السهم، وتجعلنا شدة الرغبة ننجح في تخمين من هو الشخص الذي أطلق السهم»[٥٩]. إن شدة الرغبة المثارة لدى أولئك الذين يتركون أنفسهم بين يدي المسيح تسمح لهم بفهم من هو المسيح: هو الذي يوقظ الإنساني فينا من اللامبالاة ويدفعه إلى الاكتمال. يمكن أن يتحول الالتقاء بجمال

(٥٧) Benedetto XVI, *Incontro con i vescovi del Portogallo*, Fatima, 13 maggio 2010.

(٥٨) لا شك أن أسلوب الشهادة، الذي تقدم من خلاله الحقيقة المسيحية، لا ينتهك حرية الذين يتأثرون بجمالها، ولا يتركونها لمصيرها، بل يثيرونها ويدعونها إلى المضي حتى أقصى ما في طبيعتها، من تلقي هذا الجمال الذي يتحقق فيه القلب ويكتمل. في رسالته الدورية Redemptoris Missio, يكتب يوحنا بولس الثاني: «شهادة الحياة المسيحية هي الشكل الأول الذي لا بديل له لرسالة المسيح: المسيح، الذي نواصل رسالته، هو «الشاهد» بامتياز (الرسل ١،٥ ، ٣،١٤)ونموذج الشهادة المسيحية. يرافق الروح القدس رحلة الكنيسة ويربطها بالشهادة التي تعطيها للمسيح (يوحنا ١٥،٢٦-٢٧)». Cfr. Paolo VI, Esortazione apostolica, Evangelii Nuntiandi, 21.41; Concilio Ecumenico Vaticano II, Decreto Ad Gentes, 11-12; Giovanni Paolo II, Lettera enciclica Redemptor Hominis, 11.

(٥٩) N. Kabasilas in J. Ratzinger, *La bellezza, la Chiesa*, Itaca, Castel Bolognese (RA) 2005, pp. 15-16.

المسيح الذي يضيء في وجه إنسان إلى سهم يجرح الروح وبهذه الطريقة يفتح العينين، مما يسمح له بالاعتراف به. هذا هو ما ينتظره كل واحد منا، وما ينتظره معنا معاصرونا. سنكون قادرين على التواصل فقط من خلال الاستسلام لجاذبيته.

٦

الحس الديني، اختبار الإيمان

هل الحدث المسيحي قادر على إيقاظ النفس من سباتها، من ضجرها الذي لا يقهر؟

«عندما أرى النجوم في السماء تحترق؛/ أقول لنفسي مفكرا:/ لماذا كل هذا الشرر؟/ ماذا يفعل الهواء اللانهائي، وهذا الصفاء العميق/ اللامتناهي؟ ماذا تعني هذه/ الوحدة التي ليس لها حدود؟ وأنا، من أكون؟»[١] تعبر هذه القصيدة التي كتبها جياكومو ليوباردي بطريقة رائعة عن تجربة تكشف عن الحس الديني للإنسان. يطلق ارتطام الأنا بالواقع العنان للمسالة الإنسانية. نحن نولد وفينا سمة أصيلة تنشط حتما عند ارتطامها بالواقع، فتشحن كل الديناميات الشخصية لدينا. ولا يمكن لأي شخص تجنب بعض الأسئلة في حدود الأسلوب الذي يعيش به، بغض النظر عن انتمائه العرقي أو الثقافي: «(ما هو المعنى النهائي للوجود؟)، (لماذا يوجد

---

(١) G. Leopardi, “Canto notturno di un pastore errante dell’Asia”, XXIII, vv. 84-89, in *Cara beltà*..., op. cit., p. 69.

الألم، والموت، ولماذا نتجشم عناء العيش بعد ذلك؟). أو من وجهة نظر أخرى: (مما يتكون الواقع ولماذا؟)».

ويتطابق الحس الديني مع طبيعتنا وفقا لما عبرت عنه هذه الأسئلة، «فهو يتطابق مع ذلك الالتزام الجذري للأنا بالحياة، الموثق في هذه الأسئلة»[٢].

ولكن ما فائدة استدعاء نص الحس الديني الآن، في هذه اللحظة الدقيقة من التاريخ؟ لقد نشأ هذا من ملاحظة هشاشة الإيمان (حتى فينا نحن المسيحيين، رغم أن لديهم ميزة الانغماس في تاريخ بعينه) كشكل من أشكال المعرفة، وهي هشاشة تتميز بصدع بين المعرفة والمعتقد. «تعود أزمة الوعظ المسيحي، التي عايشناها باضطراد على مدى قرن من الزمان، في جزء صغير منها إلى حقيقة أن الاستجابات المسيحية تهمل أسئلة الإنسان؛ وكانت ولا تزال أسئلة عادلة، ولكنها كانت عديمة الأثر لأنها لم تنشأ من المشكلة التي أدت إلى ظهورها. لذلك تعتبر المشاركة في البحث

(٢) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 59. كان ذلك في عام ١٩٥٧ عندما استخدم الكاردينال جوفاني باتيستا مونتيني في رسالته الرعوية االأمبروزية هذه الكلمات: الحس الديني هو «ميل الإنسان نحو مبدئه ونحو مصيره الأخير. يومض في وعيه تنبيه طبيعي غير مباشر بكونه مرتبطا بمصيره ومسؤولاً عنه؛ هو التعبير الطبيعي عن علاقة الروح الأزلية بالكائن الأسمى؛ اللفتة الأصلية للطبيعة البشرية في موقف العبادة والدعاء؛ حاجة الروح للخلود الشخصي، مثل حاجة العين للنور، والزهرة للشمس - G.B. Monti- ni)» L. Giussani, *Sul senso religioso,* BUR, Milano 2009, p. 51). وبعد بضعة أشهر من كتابة هذه الرسالة، نشر لويجي جوساني الطبعة الأولى من كتابه «الحس الديني». بعد أربعين عامًا بالضبط، انتهى الأب جوساني من النسخة الأخيرة والنهائية من هذا العمل (وهو أيضًا المجلد الأول من كتابه الأساسي بعنوان PerCorso.

عن الإنسان عنصرًا أساسيًّا في الوعظ، لأنه بهذه الطريقة وحدها يمكن للكلمة أن تتحول إلى إجابة»[٣].

نحن أيضًا نشارك في تقليص الإيمان إلى مشاعر أو أخلاق. لا يحدث هذا عندما يصير طرح المسيحية وفقًا لطبيعة الحدث وحسب، ولكن أيضًا بسبب عدم وجود الإنسان فينا. في الواقع، يوجد في المسيحية «عيب» كبير: فهي تتطلب إنسانا حتى يعترف بها ويعيشها.

لقد اعتدنا على فهم «الحس الديني» على أنها مقدمة بسيطة للإيمان؛ لذلك يصبح عديم الفائدة، بمجرد الوصول إلى الإيمان. كما لو كان الحس الديني مجرد سلم نستعين به للوصول إلى الطابق العلوي: فإن وصلنا لم نعد بحاجة إليه. لا! لا نحتاج فقط إلى حس ديني دائم حتى يمكن الاعتراف بالمسيحية والعيش فيها على حقيقتها - كما ذكّرنا الأب جوساني مقتبسًا عن نيبور: «لا شيء أكثر عبثًا من الإجابة على سؤال لم يسأله أحد»[٤]، أو لم يعد يسأله أحد. وإنما يكشف اللقاء مع الحدث المسيحي، في المقام الثاني، عن الحس الديني في نطاقه الأصلي كليًّا، ويصل إلى وضوحه النهائي، ويتم تعلمه وحفظه. لقد جاء المسيح ليعلمنا الحس الديني. ومن ثم، يمثل الحس الديني الحي اختبارا للإيمان.

في هذا المعنى، رد الأب جوساني على سؤال من أنجيلو سكولا في سياق مقابلة طويلة جمعتهما في عام ١٩٨٧: «يستند طرحكم التربوي على الحس الديني للإنسان. هل هذا صحيح؟» «إن جوهر طرحنا»، رد جوساني، «هو

(٣) J. Ratzinger, *Dogma e predicazione*, Queriniana, Brescia 2005, p. 75.

(٤) R. Niebuhr, *Il destino e la storia*, op. cit., p. 66.

بالأحرى الإعلان عن حدثٍ حدث، يدهش البشر بنفس الطريقة التي أدهش بها إعلان الملائكة في بيت لحم الرعاة الفقراء قبل ألفي عام. حدثٌ يحدث، بغض النظر عن أي اعتبار، لرجل ديني أو غير ديني. إن إدراك هذا الحدث هو الذي يبعث أو يعزز الحس الأصلي بالتبعية، وهو نواة البراهين الأصلية لما يمكن أن نطلق عليه وصف (الحس الديني)»(٥). الحدث المسيحي يبعث أو يعزز الحس الديني، أي حس التبعية الأصلية والبراهين الأصلية .

إن علاقة الإيمان باحتياجات الحياة موثقة في قدرة الإيمان على إعادة إيقاظ الذات، وجعلها نفسها، والمحافظة عليها في المكان المناسب لمواجهة الوجود كله، بتجاربه وإشكالياته.

ومن خلال إعادة النظر في الحس الديني، والتعرف عليه من جانبنا، يمكننا التحقق من «فائدة المسيح لمسار الإنسان في علاقته بالأشياء، وهو يسير نحو مصيره. خلاف ذلك، إذا لم يكن المسيح يتمتع بهذا الحدث كوجود حقيقي، فسوف يعتبر شيئا لا علاقة له بالحياة، ولن تكون له علاقة بالحياة. ربما ستكون له علاقة بالحياة المستقبلية، ولكن لن تكون له أي علاقة بهذه الحياة، وهذا هو الموقف الصحيح للبروتستانتية»(٦). إذا كان المسيح حاضرًا فهو كذلك من خلال العلامات الدالة على وجوده، لا من خلال أقوالنا عنه، وهذه العلامات هي التي يجب

(٥) L. Giussani, *Un avvenimento di vita, cioè una storia*, a cura di C. Di Martino, Edit-Il Sabato, Roma-Milano 1993, p. 38.

(٦) L. Giussani, *L'attrattiva Gesù*, BUR, Milano 1999, p. 287.

أن نتعرف عليها. «هذا هو الحل، إذا صح»[٧]، هذه هي القاعدة التي كنا نسمعها دائما. أستطيع أن أكتشف أن المسيح حاضر من خلال اليقظة الإنسانية التي أراها تحدث في نفسي أو في الآخرين. إن حضوره موضوعي بقدر موضوعية العلامات التي تثبت ذلك.

عندها سنكون قادرين على التحقق مما إذا كان اللقاء مع المسيح قد «بعث أو عزز» الحس الأصلي بالتبعية، جوهر البراهين والاحتياجات الأصلية (الحقيقة، العدالة، السعادة، الحب) التي يطلق عليها الأب جوساني «الحس الديني» والذي يصحو من خلال لقاء الأنا مع الواقع. والآن، إذا كان صحيحًا أن ظهور مثل هذه الأدلة والاحتياجات الأصلية أمر حتمي، فمن الصحيح أيضًا أن الوعي بها قليل أو غائم أو منسي. وهو ما يمكن إدراكه في ضعف أو غياب الحس بالسر الأكبر في تصور الأنا، والذي تقلص بشكل مأساوي – في كثير من الأحيان أكثر مما نعتقد – إلى حاصل جمع الأداء وردود الفعل، تقلص إلى مجرد ناتج للسوابق التاريخية والبيولوجية، إلى مجرد ناتج للظروف. هذا هو السبب في أن الحس الديني المستيقظ، الذي لا يتعرض لعمليات إلغاء أو رقابة، يشكل علامة وإثباتًا للقاء مع شيء آخر أكبر منه.

ويمكن قول الشيء نفسه عن السبب، الذي تكشفه التجربة على أنه «حاجة منطقية لشرح الواقع بكل عوامله، حتى يتم تعريف الإنسان

(٧) L. Giussani, *L'opera del movimento. La fraternità di Comunione e Liberazione*, San Paolo, Cinisello Balsamo (MI) 2002, pp. 270-271.

على حقيقة الأشياء»[٨]. بتأثير من الالتقاء بالواقع لكي يتحقق العقل (وفقا لطبيعة «الانفتاح الذي لا ينضب») متحركا للبحث عن تفسير شامل لما هو موجود، فإن العقل يصل إلى ذروته الحقيقية، ويستشعر وجود منبع كل شيء ينبع، ويحال إليه كل شيء. «قمة انتصار العقل هي إدراك وجود موجود مجهول، لا يمكن الوصول إليه، مستقر لحركة الإنسان كلها، لأنها أيضًا تعتمد عليه. إنها فكرة السر»[٩]. فالشخص الذي لا يعوق الدينامية العقلانية التي يحركها الالتقاء مع الواقع سيصل إلى أن يعيش ضمير السر. وكلما عاش الواقع بكثافة، كلما أصبح السر مألوفًا له.

ولكن الإغراء بتقليص دور العقل هنا كبير جدًا، ولا يقاوم، من خلال استخدامه مقياسًا، وليس نافذة مشرعة «أمام الاستدعاء الدائب للواقع»[١٠]. النتيجة الحتمية هي تقليص مفهوم الواقع. وهذا ما يمكن ملاحظته في «إزالة المرئيات»، ومن تسطيح الظروف أو إفراغها مما يحدث لنا، ومما نفعله في العادة، أي الواقع الذي يعرض نفسه على عقولنا في الأصل كعلامة، والذي يتقلص في جانبه التصوري الفوري، ويفقد معناه وعمقه. هذا هو السبب في أن الظروف تخنقنا كثيرًا - يمكن لأي شخص التحقق من ذلك في تجربته الخاصة - فعندما يتقلص الواقع إلى مظهر يصبح قفصًا نحبس بداخله.

---

(٨) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 133.

(٩) المرجع السابق، ص ١٦٢.

(١٠) المرجع السابق، ص ١٣٤.

وكما لاحظ الكاردينال راتزينجر منذ سنوات، «أن إحدى وظائف الإيمان الأساسية هي أنه يمنح فرصة لإصلاح العقل كعقل، وعدم استخدام العنف معه، وعدم الاغتراب عنه، وإنما إعادته إلى نفسه »[١١]. ومرة أخرى يصبح تمجيد العقل، والتحرر مما يعوقه، ويقلصه، اختبارا للإيمان الحقيقي .

والآن يبقى السؤال: لماذا أصبح إيقاظ الحس الديني حاسمًا اليوم؟ وما هو الأمر الملح الذي يدفع إلى هذا؟ إنه أمر حاسم لأن الحس الديني هو المعيار النهائي لكل حكم حقيقي أصيل «لي» على الأشياء، إذا لم نكن نريد أن نصبح «مخدوعين، منفرين، عبيدًا لآخرين، مستغلين»[١٢]، يجب أن نعتاد على مقارنة كل شيء بهذا المعيار الأساسي والموضوعي الذي هو الحس الديني. بعد اللقاء المسيحي، نواصل العيش في العالم، مدعوين لمواجهة تحديات الحياة، مثل الجميع. يجب أن نواجه هذه التحديات في هذه اللحظة التاريخية الخاصة، التي يسيطر عليها الارتباك و«انحسار الرغبة»، التي تتميز من ناحية بالعقلانية الخانقة، ومن تقليص الواقع إلى مجرد مظهر، ومن تقليص القلب إلى مجرد شعور. إذا لم يؤثر المسيح فينا، ويعيد إيقاظ إنسانيتنا، ويوسع عقلنا، ويمنع تسطيح الواقع، سنجد أنفسنا نفكر مثل الجميع، بعقلية الجميع، لأن ذلك معيار الحكم الذي امتلكناه أصلاً - «القلب»، وهو العقل والعاطفة معا - سوف يظل مغلفا بالارتباك.

(١١) J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza*, op. cit., p. 142.
(١٢) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 13.

وهذا يعني أنه بإمكاننا الاستمرار في تأكيد «حقائق» الإيمان، ولكن لن نكون أبطال التاريخ، فلن يوجد بداخلنا أي اختلاف يمكن تمييزه.

ويؤدي هذا إلى إثارة التساؤل حول معقولية الإيمان، بالإضافة إلى جعلنا عديمي الفائدة للتاريخ (الذي تهيمن عليه «السلطة» بشكل متزايد، بما تهدف إليه من دفع الإنسان إلى الارتباك، وتقليص رغبته في استخدام العقل، وتشجيعه على ذلك). لماذا من المعقول أن تكون مسيحيًّا؟ ماذا يريح الإنسان في هذا الإيمان؟ إن السبب الذي يجعل الكثيرين يتخلون عن الإيمان هو أنه لا يمنحهم شيئًا يريحهم. وهكذا يمكن للسلطة أن توسع نفوذها على نحو متزايد، فيجد الإنسان نفسه أعزلا دائما. «كما لو أن السلطة، أي العقلية السائدة، أجبرت معلمينا، بما في ذلك الآباء، على تغيير بساطة طبيعتنا [«البراهين الأصلية»، كما قلنا في وقت سابق] من سن مبكرة. لذلك يجب علينا استعادة بساطة طبيعتنا. والحس الديني ليس أكثر من دعوة وحافز لاستعادة البساطة، أصالة طبيعتنا (ليس عبثا القول، في الفرضية الثالثة للحس الديني، أن الأخلاقيات الضرورية للمعرفة تسمى «فقر الروح») »[١٣].

قد نكون شركاء في تأثير السلطة، إذا اعتقدنا بشكل استباقي أن بإمكاننا الابتعاد عنها، من دون الوصول الذكي والفعال إلى النقطة الوحيدة التي منحنا إياها السر الأعظم والتي تنقذنا من العدم: ذلك اللقاء والخبرة الحية للكنيسة التي لمس بها المسيح حياتنا بطريقة مقنعة. قد

(١٣) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro* (1986-1987), op. cit., p. 162.

يكون الارتباك، حتى بيننا، عميقًا لدرجة أننا عندما نحاول الإشارة إلى حل للوضع الذي نعيش فيه، نجد أنفسنا نكرر الإجابات المعتادة من الجميع: يعتقد البعض أن الحل هو الاتفاق («ابقوا معًا»)، والبعض الآخر أنه في السياسة، من خلال تعزيز المشاركة في توزيع السلطة، أو في المسار الوظيفي، أو في مغامرة عاطفية جديدة، وهلم جرا. بعد ألفي سنة من التاريخ المسيحي، قد نجد أنفسنا في وضع الإنسان قبل المسيح: مجموعة لا حصر لها من المحاولات العاجزة، والتي يركز فيها كل إنسان على تحيزاته أو الجوانب الأكثر ملاءمة لشخصيته.

«من سيحررنا من هذا الحالة؟»، نقول مع القديس بولس. وما الذي يلزمنا لذلك؟ أي خبرة؟ المسيح هو الذي يحررنا من كل هذه المحاولات العاجزة. دعونا نحاول العودة إلى الأصل.

يشرح المسيح الحس الديني

يصف جوساني بطريقة تدعو إلى الإعجاب كيف وقع الحدث ويدعونا إلى التوحد مع إنجيل يوحنا.

«أخيرًا، جاء يوحنا هذا، المسمى بالمعمداني، ليعيش بطريقة جعلت كل الناس تتأثر بها، من الفريسيين إلى آخر الفلاحين، فغادر المنازل ليذهب كي يسمع صوته يتكلم، على الأقل مرة واحدة. وربما لم تكن مرة واحدة، وربما كانت هناك مرات كثيرة، لا نعرف. في تلك المناسبة، كان هناك شخصان ذهبا إلى هناك لأول مرة، وكانا متوترين، فاغران الفاه،

كمن يأتي من بعيد ويرى ما جاء لكي يراه بفضول ليس له حدود، بفقر روح، وطفولة، وبساطة قلبية[...]. عند نقطة ما يغادر الشخص المجموعة ويذهب على طول الطريق الصاعد نحو النهر. عندما يتحرك هذا الرجل، يبدأ يوحنا المعمدان في الصراخ وقد جاءه الوحي فجأة: «هذا هو حمل الله. الذي يرفع خطية العالم». الناس لا تلاحظ ذلك [...]. ولكن كان هناك رجلان ظلا، بأفواه وعيون مفتوحة مثل طفلين، ينظران إلى أين ينظر يوحنا المعمدان: وكان ينظر إلى ذلك الشخص الذي يمضي في طريقه. فقفل الرجلان يتبعانه، بشكل غريزي، بحياء وخجل. فيدرك أن أحدًا يتبعه. يلتفت إليهما: «ماذا تطلبان؟». «يا معلم- يجيبان - أين تسكن؟». «اتبعاني لتريا»، قال لهما بلطف. ويذهبان، ويريان أين يسكن، ويمكثان معه طول اليوم». إننا نتوحد بسهولة مع هذه الشخصين الجالسين يشاهدان الرجل يتكلم عن أشياء لم يسمعوا بها من قبل، ومع ذلك فهما قريبان منه، ملتصقان به، يرددان ما يقوله. [...] لم يكونا يفهمان، وإنما كان مسيطرا عليهما فقط، وقد شدهما هذا الحديث: كان يشاهدانه يتكلم. لأنه من خلال «المشاهدة» [...] أدرك بعض الناس أن هناك شيئًا نادر الحدوث بينهم: فالحضور ليس واضحًا فحسب، وإنما غير مفهوم أيضًا، ولكنه يظل شديد التغلغل. تغلغل يتوافق مع ما كانت قلوبهم تنتظر في ولا مجال لمقارنته مع أي شيء: فلم يعلمهم الأب والأم لم وهم صغار بهذه الفعالية وبهذا الوضوح أن أوقات حياتهم تستحق أن تعاش. لم يستطيعوا أو يعرفوا كيف يقولون ذلك له. قالوا الكثير من الأشياء الأخرى التي رغم جودتها لم تكن إلا شذرات من شيء ان يجب البحث عنه والتقاطه من

الهواء لكي يريا ما إذا كان الواحد منهما يصلح للآخر. في توافق عميق. [...] وكانت كلماته كلما وصلت إليهم كان يخترقون الرجل بنظراتهم وذهولهم وإعجابهم، كان يحسون بالتغير وبأن الأشياء تتغير، وصدى الأشياء يتغير، ومسيرة الأشياء تتغير».

لكن القصة لا تنتهي هنا، لأن جوساني يتخيل عودة جوفاني واندريا بعد اللقاء مع المسيح: «وعندما عادا، في المساء، في نهاية اليوم - على الأرجح كانا صامتين في طريق عودتهما لأنهما لم يتحادثا مع بعضهم البعض قط كما فعلا في ذلك الصمت الكبير الذي تحدث فيه الآخر، والذي استمر فيه في الكلام وعودة صداه بداخلهم - وصلا إلى البيت، وقالت زوجة أندريا، وهي تنظر إليه: «ماذا بك يا أندريا، ماذا بك؟» ونظر الأطفال، مندهشين، إلى والدهم: لقد كان هو، نعم، ولكن زاد فيه شيء، أصبح مختلفًا. لقد كان هو نفسه، لكنه كان مختلفًا. وعندما [...] سألته: «ماذا حدث؟»، عانقها، وقبل أطفاله: كان هو نفسه، لكنه لم يعانقها هكذا من قبل! كان مثل الغسق أو الفجر أو الشفق، إنسانية مختلفة، إنسانية جديدة، إنسانية أكثر صدقًا. كأنه أراد أن يقول: «أخيرا!»، دون أن يصدق عينيه. لكن كان من الواضح جدًا لماذا لم يصدق عينيه!»(١٤).

يصف هذا المشهد، بشكل أفضل من آلاف الكلمات، كيف تم توضيح المعنى الديني للإنسان تاريخيًا: لأنه وجد هدفه الحقيقي. بعد اللقاء مع

(١٤) L. Giussani, *Il tempo si fa breve. Esercizi della Fraternità di Comunione e Liberazione. Appunti dalle meditazioni,* Coop. Ed. Nuovo Mondo, Milano 1994, pp. 23-25.

يسوع، كان أندريا «هو نفسه، لكنه كان (أكثر)، كان مختلفًا» لأن هذا الرجل كان السر الأعظم وقد تجسد بشرا، وأصبح مألوفًا. في الواقع، فإن الهدف من المعنى الديني هو في نهاية المطاف السر الذي لا يسبر غوره أحد. لذلك، فعندما يفكر هذا الرجل بطريقة يمكن أن تعكس آلاف الأفكار الأخرى يصبح أمرًا مفهومًا. إن الحقيقة واحدة، لكن الإنسان لا يصل إليها. وهكذا أصبح السر واقعا بشريا، إنسان يمشي على ساقين، ويأكل بفمه، ويبكي من عينيه، ويموت: هذا هو هدف الحس الديني الحقيقي. ومن ثم يتجلى هذا الكشف للمسيح لي، فيتضح لي الحس الديني»[١٥].

هذا ليس سوى تطبيق قانون كوني منذ أن ظهر الإنسان على وجه البسيطة، - «يجد الإنسان نفسه في لقاء حي» -[١٦]؛ ولكن هنا، خلال اللقاء في حضرة السر، الذي أصبح واقعًا بشريًّا، يكتمل هذا القانون، ويتحقق بطريقة نهائية، لأنه «في لقاء أدرك فيه نفسي بنفسي. [...] تستيقظ الأنا من سجنها في قوقعتها، تستيقظ من قبرها، من ضريحها، من وضعها الأصلي المغلق - أو في قول آخر - «تبعث»، وتصبح على بينة من نفسها، من خلال اللقاء. ونتيجة اللقاء هو بعث الحس الشخصي. يبدو الأمر كما لو كان الشخص قد وُلد: صحيح أنه لا يولد فعليًّا في اللقاء، ولكنه في اللقاء يصبح مدركًا لنفسه، وبالتالي يولد كشخصية»[١٧].

(١٥) L. Giussani, *L'autocoscienza del cosmo,* BUR, Milano 2000, p. 17.

(١٦) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro* (1986-1987), op. cit., p. 182.

(١٧) المرجع السابق صفحات ٢٠٦-٢٠٧.

يمكّننا هذا اللقاء من اكتشاف سر أنفسنا. «لقد كان هو، لكنه كان» أكثر «منه»، وهكذا أصبح هو نفسه. لذلك، تساءل الأب جوساني في حوار معه حول نص الحس الديني: «لماذا وضعنا نحن كتابا عن الحس الديني [...]؟ لأننا التقينا بيسوع ونظرنا إليه وشعرنا به، فهمنا ما كان في داخلنا: قال القديس أوغسطينوس «من يعرفك يعرف نفسه». [...] لأننا لكي نعرف الحس الديني ونطور الحس الديني، كان علينا أن نلتقي بشخص ما: من دون هذا المعلم ما كنا لنفهم بعضنا البعض. لذلك أستطيع أن أقول للمسيح: «أنت حقا أنا». «أنت أنا» يمكنني أن أقول له ذلك، لأنني عندما أسمعه أفهم نفسي. في حين أن أولئك الذين يحاولون فهم أنفسهم من خلال التفكير في أنفسهم يتشتتون في مسارات لا تعد ولا تحصى، وفي أفكار لا تعد ولا تحصى، وفي صور لا تعد ولا تحصى»[(١٨)].

يشرح المسيح الحس الديني

بالتحديد لأن المسيح يكشف ويوضح المعنى الديني للإنسان، ويمكنه أيضًا أن يلقنه إياه. قد يفكر شخص ما – حتى أولئك الذين قابلوا المسيح بالفعل أو يعيشون في سياق مسيحي – أنه بما أن الحس الديني هو هبة أصلية، فلا حاجة لتعلمه، أو حتى ايقاظه، لأنه ينطلق تلقائيًّا، ويتحول إلى حجم بحجم كل لحظة. من الضروري أن نفهم إلى مدى هذا المعنى تجريدي: «خلال محادثة أتيحت لي الفرصة للمشاركة فيها، أفلتت

(١٨) L. Giussani, *L’autocoscienza del cosmo*, op. cit., pp. 17-18.

من أستاذ جامعي مرموق هذه الجملة: «لو لم أتخصص في الكيمياء، لكنت قتلت نفسي!» توجد بداخلنا دائما عبارة من هذا النوع، حتى ولو لم نقلها. هناك دائمًا شيء يجعل الحياة جديرة بأعيننا، وبدونه، حتى لو لم نكن نتمنى الموت، سيكون كل شيء عديم اللون ومخيبًا للآمال. ومن أجل هذا «الشيء» [...] يتفانى الإنسان. لا يمكن لأحد أن يتجنب أي تفسير أخير له: فمهما كان هذا الشيء، لن يكون سوى التدين الذي يعبر عن نفسه، مستوى من التدين يتحقق عندما يتطابق الضمير الإنساني مع الحياة. يمتاز الحس الديني بخاصيته المتمثلة في كونه البعد الأخير المحتوم لكل تحرك، ولكل عمل، ولكل نوع من العلاقات». ولكن سيكون من المربك الاعتقاد بأنه شيء لا يحتاج إلى أن يتم حفزه باستمرار. وفي غياب التعليم الكافي، يتم إخفاء همزه الوصل معه وتقليص نطاق تأثيره تدريجيًا. «إن غياب التوعية بالحس الديني [...] موثقة بدقة في هذا: توجد فينا كراهة أصبحت غريزية لأن يكون الدين مسيطرًا ومتحكمًا في كل أعمالنا الواعية. هذا هو بالضبط أهم أعراض ضمور وغياب تطور التطور الديني فينا: تلك الصعاب الممتدة والثقيلة والدخيلة التي نشعر بها عندما نسمع أنفسنا نقول إن «الإله» هو المحدد لكل شيء، هو العامل الذي لا نستطيع الهروب منه، هو المعيار الذي نختار به، وندرس له، ونستكمل به نتاج عملنا، ومن أجله ننضم إلى حزب، ونجري أبحاثنا، ونبحث عن زوجة أو زوج ، ونحكم أمة»[١٩].

---

(١٩) L. Giussani, *Perché la Chiesa, Rizzoli,* Milano 2003, pp. 7-8.

ويستطيع كل واحد تقييم مدى ما يعتمل هذا الرفض في نفسه لأن يترك كل شيء في حياته لإرادة الله. وعلى هذا النحو سيفهم كم يحتاج لأن يتعلم الحس الديني. «يجب أن يشجع تعليم الحس الديني، على الوعي بحقيقة التبعية الحتمية بين الإنسان وبين ما يعطي معنى لحياته من ناحية، ومن ناحية أخرى، يساعده بمرور الوقت على التغلب على الإحساس بالاغتراب غير الواقعي الذي يشعر بها تجاه وضعه الأصلي»[٢٠].

يفهم المرء، إذن، سبب التجسد: «إن الهدف الذي جعل الله يصبح إنسانًا هو تعليم الإنسان الحس الديني، لأن الحس الديني هو نقطة الانطلاق التي يملكها الإنسان تجاه كل الواقع والسر الذي خلق هذا الواقع. لذلك، فإن اتباع المسيح يتمثل في تكون في حالة مواجهة للواقع والسير نحو المصير بأفضل طريقة، وهو طريق الخلاص، كما نسميه هنا، ليس بالمعنى المحدد للمصطلح ولكن بالمعنى الإجرائي له. إذا اتبع المرء المسيح، يصبح في أفضل حالة لمواجهة الواقع ولمواجهة مشكلة المصير»[٢١].

لكن كيف نتعلم الحس الديني اليوم؟ بالمشاركة في حياة ذلك الواقع الذي يظل فيه المسيح معاصرا، أي في حياة الكنيسة. «إن وظيفة الكنيسة على المسرح العالمي تأتي ضمن إدراكها لكونها استمرارا للمسيح: أي وظيفة المسيح نفسها. إن وظيفة يسوع في التاريخ هي تعليم الحس الديني للإنسان والإنسانية (بالضبط من أجل «إنقاذ» الإنسان!)، حيث يعني

(٢٠) المرجع السابق ص ٨.

(٢١) L. Giussani, *L'attrattiva Gesù*, op. cit., pp. 286-287.

التدين أو الحس الديني - كما سبق أن قلنا- الموقف الدقيق كضمير وكموقف عملي للإنسان أمام مصيره»[٢٢].

ومن ثم فإن دوام السر في التاريخ أمر ضروري: إذا لم يظل المسيح معاصرًا ولم يستمر في تحدي الإنسان، فإنه يعود ليصبح وحيدًا على نحو لا رجعة فيه. ووحده، يعرف كل منا إلى أي هوة يمكن أن يسقط.

كيف نستطيع أن نتحرر من هذا السقوط الحتمي؟ لا يمكن لأحد أن يحافظ على نفسه في الموقف الصحيح الذي فتحه أمامه اللقاء مع المسيح على نطاق واسع. لذا فإن الجواب الوحيد على هشاشتنا هو الدوام الحقيقي لوجوده.

المسيح ينقذ الحس الديني

يشكل الوضع التاريخي الذي نجد فيه أنفسنا اليوم في الغرب، والذي يتسم بإضعاف للإنسان، تحديًا حقيقيًّا للمسيحية، التي تضطر إلى إظهار حقيقة زعمها بأنها تستجيب لاحتياجات الإنسان. لن تكون أية نسخة من المسيحية كافية لإيقاظ البشرية. لا يمكن لمسيحية متقلصة إلى خطاب («نظري» بالمعنى الذي يقصده نيومان للمصطلح) ولا المسيحية المتقلصة إلى أخلاق أن تكون قادرة على إخراج الإنسان من سباته (تحدث البابا بندكت السادس عشر عن «حلم بإيمان أصبح متعبًا»)[٢٣]،

(٢٢) L. Giussani, *Perché la Chiesa,* op. cit., p. 195.

(٢٣) Benedetto XVI, *Discorso alla Curia Romana*, 20 dicembre 2010.

ومن تسطيح يزداد قوة لرغبته، لدافعه الأصلي، لتذوقه للحياة. وإنما في القدرة على إيقاظ الإنسان باستمرار وهو ما سيتم توثيق أصالة المسيحية من خلاله.

فقط المسيحية التي تحافظ على طبيعتها الأصلية، على معالمها التي لا لبس فيها للحضور التاريخي المعاصر – معاصرة المسيح – هي التي يمكن أن ترقى إلى الحاجة الحقيقية للإنسان، وبالتالي تثبت أنها قادرة على إنقاذ الحس الديني. هذه ليست مسلمة ينبغي قبولها، لكن من المستجدات الإنسانية مدهشة التأثير: الإعلان المسيحي يخضع لهذا الاستجواب، في محكمة التجربة الإنسانية. إذا حدث للإنسان الذي يقبل أن ينتمي إلى المسيح من خلال الكنيسة، والذي يظهر بشكل ملموس ومقنع في تجربته (بفضل اللقاء مع الكاريزما)، حدث ما لا يستطيع هو نفسه أن يصل إليه من خلال قواه – صحوة لا يمكن تصورها وتحقق كل ما هو إنساني بجميع أبعاده الأساسية – فسوف تثبت المسيحية أن لها مصداقية وستكون قادرة على أثبات مزاعمها. «لأَنَّ كُلَّ شَجَرَةٍ تُعْرَفُ مِنْ ثَمَرِهَا»(٢٤): هذا هو المعيار المعرفي الهائل الذي يقدمه لنا يسوع نفسه .

لقد كان التغيير الذي تولد عن العلاقة مع المسيح الحاضر هو ما جعل القديس بولس لا يتردد في الصياح: «إذا ان كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الاشياء العتيقة قد مضت. هو ذا الكل قد صار جديدًا»(٢٥). المخلوق الجديد هو الإنسان الذي يتحقق فيه الحس الديني بكامله:

---

(٢٤) لوقا/ ٦,٤٤.
(٢٥) كورنثوس ٢ ٥،١٧.

العقل والحرية والمودة والرغبة، وغير ذلك يضحى مستحيلا. «المسيح بجماله يأخذني إليه كلي!»[٢٦]، هتف جاكوبوني دا تودي. إن هذا الجمال، كأنه وميض الحقيقة، هو الشيء الوحيد القادر على إيقاظ رغبة الإنسان بالكامل، ويحفز عاطفته بقوة بما يجعل استمرار انفتاح عقله على الواقع الذي أمامه ممكنا - «شرط العقل لكي يكون عقلا هو أن تغطيه العاطفة وبهذا يحرك الإنسان كله»[٢٧]. وتسهل جاذبية المسيح (ولا تنفذ آليا) هذا الانفتاح، وفقا لمقياس سيكون مستحيلا بدونها.

إن معاصرة المسيح تسمح للعقل أن ينفتح إلى أقصى درجة، بما يسمح له بالوصول إلى ذكاء لم يكن معروفا من قبل تجاه الواقع، فكل شيء، وكل ظرف، حتى أكثرها فظاظة، حين يتم التركيز عليه، يصبح علامة، «يتكلم»، ويصبح من المهم أن نعيشه. يمكن للإنسان الذي أيقظه ودعمه حضور المسيح أن يعيش في النهاية كرجل دين، وأن يعبر دوامة الحياة ، ظرفا بعد ظرف، وأن يكون قادرا على «الدخول في أي حالة وجودية بهدوء عميق، يحمل إمكانية السعادة»[٢٨]. لذا فإن معاصرة المسيح ضرورية لكي نعيش الحس الديني بالكامل، أي أن يتكون لدينا موقف صحيح تجاه الواقع .

أما إذا لم يتم لقاء المسيح على نحو عصري فإن العواقب لن تتأخر. إن انعدام وجود تجربة معاصرة المسيح يجعلنا نعود إلى الوضع الذي يسبق اللقاء بالمسيح، وحتى إذا واصلنا الحديث عن المسيح (كما يحدث في

---

(٢٦) Jacopone da Todi, “Lauda XC”, in *Le Laude*, Libreria Editrice Fiorentina, Firenze 1989, p. 313.

(٢٧) L. Giussani, *L’uomo e il suo destino*, op. cit., p. 117.

(٢٨) L. Giussani, *Il senso religioso,* op. cit., p. 148.

الغالب)، فإننا في الواقع نقلصه إلى اخدى التنويعات العديدة للحس الديني. «بالنسبة للإنسان الحديث [هذه ملاحظة لماحة للغاية تجعلنا ندرك الوضع الذي نعيش فيه]، فإن» الإيمان «لن يكون أي شيء آخر غير جانب» التدين «، وهو نوع من الشعور الذي نعيش به «البحث القلق عن الأصل والمصير، وهذا على وجه التحديد العنصر الأكثر إيحائية في كل «دين». ويتوتر الوعي الحديث كله كيما ينتزع فرضية الإيمان المسيحي من الإنسان ولكي يعيدها إلى ديناميكية الحس الديني ومفهوم التدين، وهذا الارتباك للأسف يخترق أيضًا عقلية الشعب المسيحي»[٢٩].

هناك فرق أساسي وغير قابل للاختزال بين ديناميكية الإيمان والحس الديني: «في حين يولد التدين من الحاجة إلى معنى يوقظه الاصطدام بالواقع، فإن الايمان هو الاعتراف بوجود استثنائي، له علاقة شاملة بالمصير الشخصي، والانتماء إلى هذا الوجود. الإيمان هو الاعتراف بحقيقة ما تقوله حقيقة تاريخية عن نفسها»[٣٠]. ويتضح هذا الفارق أساسا في أسلوب تحرك العقل. وفي الإيمان المسيحي، لم يعد هناك العقل الذي يفسر، بل العقل الذي ينفتح على تجلي الله نفسه، ويدرك نفسه متحققا في ديناميكياته. يتفهم المرء ، إذن ، لماذا يقول الأب جوساني إن «مشكلة الذكاء (وليس الشعور أو الحالة النفسية) تقع كلها ضمن» حدث جيوفاني وأندريا[٣١]، في اجتماع هذين مع هذا الرجل الذي لا مثيل له. «الإيمان هو

(٢٩) L. Giussani S. Alberto J. Prades, *Generare tracce nella storia del mondo*, op. cit., p. 34.

(٣٠) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣١) L. Giussani, *Si può vivere così?, Rizzoli*, Milano 2007, p. 273.

فعل العقل الذي يتحرك بدافع الطبيعة الاستثنائية لوجود ما». «الإيمان المسيحي هو ذاكرة الحقيقة التاريخية التي قال فيها رجل عن نفسه شيئًا تقبله الآخرون كحقيقة، والآن أقبلها أنا أيضًا بفضل الطريقة الرائعة التي تصلني بها هذه الحقيقة. يسوع هو رجل قال: «أنا السبيل والحقيقة والحياة». إنه حقيقة تاريخية: طفل، ولد من أم، وقيد بسجل مواليد بيت لحم، وكبر، وأعلن أنه إله: «أنا والأب شيء واحد». كن منتبهًا إلى ما فعله ذلك الرجل وقاله، حتى تصل إلى القول: «أنا أؤمن به»، وألتزم بحضوره مؤكدا حقيقة ما قاله، هذا هو الإيمان»[٣٢].

دعونا إذن نتخيل «ما هو التحدي الذي يمثله ادعاء الإيمان للعقلية الحديثة: أن هناك رجل - أستطيع أن أخاطبه - وأن هذا الرجل يقول: «بدوني لا تستطيعوا أن تفعلوا أي شيء»، وأن هناك رجل/ إله. هذا الادعاء لا يختبر أبدا إلى نهايته، ولا يتعرض له الناس ولا أعظم الفلاسفة بأبعد من هذا، وإذا تعرضوا له فإنما لكي يدعموا الفكرة المسبقة السلبية المستمدة من العقلية السائدة. يمكننا أن نستنتج الإجابة على المشكلة المسيحية - «من هو يسوع؟» - من المفاهيم المسبقة عن الإنسان والعالم. أما يسوع فيجيب قائلا: «انظر إلى أعمالي»، أي «انظر إلي»، وهو نفس الشيء. ونحن لا ننظر إليه، بل نلغيه. وبالتالي، فإن عدم الإيمان هو نتيجة طبيعية مستمدة من تصور مسبق، وهو فكرة مسبقة مطبقة، وليس نتيجة لبحث عقلاني»[٣٣].

(٣٢) L. Giussani S. Alberto J. Prades, *Generare tracce nella storia del mondo,* op. cit., pp. 34-35.

(٣٣) المرجع السابق صفحات ٣٥-٣٦.

لكن ما يهمنا الآن هو التركيز على نتيجة رفض الطريقة التي اختارها الله للاستجابة إلى الحاجة إلى المعنى الكلي الذي يحدد الحس الديني للإنسان: «من دون الاعتراف بالسر الأعظم الموجود، يتقدم الليل، ويعلو التشويش، وعلى هذا النحو، على مستوى الحرية - يتقدم التمرد، أو تملأ خيبة الأمل بدرجة يبدو معها وكأننا لم نعد ننتظر شيئا، ونعيش دون أن نرغب في شيء، إلا الإشباع السطحي أو الاستجابة السطحية لمطلب صغير»[٣٤]. بدون الاعتراف بمعاصرة السيد المسيح، فإن ما يتم إلغاؤه هو الجانب الإنساني الحقيقي، أي زخم الحس الديني. أما من يعترف بذلك، فيرى أن إنسانيته قد تجاوزت الخيال: «إن انضمام ضميرنا وطريقتنا في التفكير وفي المحبة إلى المسيح، يعني أن يستمر هذا الوعي وهذه العاطفة، وينتقلان إلى حيث لا يظنّان، ويتم حثهما باستمرار على الظهور. من تلقاء نفسيهما، يخرجان من نفسيهما، يتم إحضارهما باستمرار إلى مجال تأثير وتطبيق، إلى أرض تتجاوز التصور والشعور القائم من قبل. والوعي والعاطفة يتم دفعهما دائما إلى المجهول، على نحو يتسع دائما، إلى أفاق غير متوقعة، تتجاوز المقاييس الذاتية»[٣٥]، والحياة تكتسب نفسا، وصولة، وشدة لم تكن معروفة من قبل.

تمثل هذه المقاطع في ذات الوقت وصفا ووعدا. ولكل منا معيار للتحقق من رحلته مع الإيمان، من تعلمه الحس الديني، ألا وهو التركيز

(٣٤) L. Giussani, *Tutta la terra desidera il Tuo volto,* San Paolo, Cinisello Balsamo (MI) 2015, p. 116.

(٣٥) L. Giussani, *La familiarità con Cristo,* San Paolo, Cinisello Balsamo (MI) 2008, p. 135.

على الإنسانية الأصيلة. وَقَالَ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَرْجِعُوا وَتَصِيرُوا مِثْلَ الأَوْلاَدِ فَلَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ»[٣٦]. ربما تكون هذه هي الصيغة التخليصية للتعليم الحقيقي للحس الديني. ولهذا السبب يصف المسيح بأنهم مباركون أولئك الذين يعيشون هذا الانفتاح الأصيل: «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ»[٣٧]. تُظهر لنا هذه النصوص الهدف الحقيقي لتعليم الحسّ الديني: أن نفتح ذواتنا على مصراعيها حتى يمكن أن تمتلئ بواقع لا نستطيع أن ننتجه نحن، ولكن علينا أن نقبله ونرحب به ونعانقه كأنه هدية. فقط أولئك الذين لديهم بساطة الأطفال ومسكنة الروح هم المستعدون لتلقي هذا الواقع. ومن ثم فإن تحققنا كأشخاص والمساهمة التي يمكن أن نعطيها لأشقائنا من البشر يعتمد على ذلك.

(٣٦) متى/ ١٨,٣.
(٣٧) متى/ ٥,٣.

٧

«السر الخالد لكينونتنا»

ارتباك الأنا

«وراء كلمة» أنا «هناك قدر كبير من الارتباك اليوم، ومع ذلك فإن فهم ما هي ذاتي هو اهتمامي الأول. والحقيقة أن ذاتي تقع في المركز، وفي الأصل، من كل أعمالي (فالعمل هو أيضًا فكرة). والعمل هو الديناميكية التي أدخل بها في علاقة مع أي شخص أو شيء. إذا أهمل المرء «الأنا»، فمن المستحيل أن تكون العلاقات مع الحياة هي علاقاتي أنا، وأن الحياة نفسها (السماء، المرأة، الصديق، الموسيقى) هي حياتي أنا [...]: والكلمة نفسها «أنا» تثير للأغلبية الساحقة حيرة واضطرابا، وهو مصطلح يستخدم استسهالا بقيمة مجردة استرشاديه مثله مثل (مثل «الزجاجة» أو «الكوب»). لكن وراء هذه الكلمة القصيرة لا يوجد أي شيء يمكن أن يشير إلى تصور أو شعور بأية قيمة داخل الإنسان عن «الأنا» الخاصة به. ولهذا يمكن القول إننا نعيش في أزمنة تبدو فيها إحدى الحضارات

على شفا النهاية، والحقيقة أن تطور الحضارة يكمن في هذا المقياس الذي يحبذ ظهور ووضوح قيمة «الأنا» الفردية. وعصرنا على العكس يحبذ الارتباك الكبير حول محتوى كلمة أنا»[١].

هذا ما يصفه فيليب روث - لإعطاء مثال واحد من بين العديد من الأمثلة- في واحدة من رواياته: «كل ما يمكنني أن أقوله لك بشكل مؤكد هو أنني «أنا» ليس لدي أي «أنا»، ولا أريد أو لا أستطيع إخضاع نفسي لمقالب أي «أنا». إن ما لدي في مكان الأنا هو مجموعة متنوعة من التفسيرات التي يمكنني من خلالها إنتاج نفسي، وهي ليست تفسيرات تخصني وحدي، وإنما تخص فرقة كاملة من الممثلين الذين استوعبتهم، فرقة مستقرة يمكنني التعامل معها عندما أحتاج إلى الأنا، رصيد ينمو باستمرار بالكتابات والأدوار التي تشكل الربرتوار الخاص بي. لكن بالتأكيد لا أملك «أنا» مستقلة عن محاولاتي الفنية الخادعة للحصول على «أنا» واحدة. وأنا لا أريد ذلك. أنا مسرح ولا شيء سوى مسرح»[٢].

إن الخبرة التي لا تستجيب لتحدي هذه العقلية واسعة الانتشار، حتى لو تم اتخاذ العديد من المبادرات، هي خبرة مهزومة! إننا نشارك اليوم في أفول الإنسانية كما يقول هيشيل: «إن العجز عن إدراك قيمتنا [...] هو في حد ذاته عقاب رهيب»[٣]. نراه يوميًّا في أنفسنا.

(١) L. Giussani, *Alla ricerca del volto umano*, Rizzoli, Milano 1995, pp. 9-10.
(٢) P. Roth, *La controvita*, Einaudi, Torino 2010, p. 388.
(٣) A.J. Heschel, *Chi è l'uomo?*, Rusconi, Milano 1976, p. 42.

لكن لماذا حدث هذا؟ «الملاحظة الأولى في بداية أي تحقيق جدي في تكوين الشخصية الخاصة بنا هو أن الارتباك الذي يسيطر اليوم خلف القناع الهش (الذي يكاد يكون غشاء رقيقا) للأنا الخاصة بنا ينشأ، جزئيًّا، من تأثير خارجي على شخصنا. من الضروري أن نضع في اعتبارنا التأثير الحاسم الذي يمارسه علينا ما يسميه الإنجيل «العالم» والذي يظهر نفسه على أنه عدو للتكوين المستقر والكريم والمتسق للشخصية الإنسانية. فهناك ضغط قوي للغاية من العالم من حولنا (من خلال وسائل الإعلام، أو حتى المدرسة) يؤثر فينا وينتهي إلى أن يسيطر على أية محاولة لاستعادة الوعي بالأنا الخاصة بنا، ويحولها إلى فكرة مسبقة[٤]».

هذا التأثير الخارجي، هذا «العالم»، ما هو؟ هذا هو ما أسماه بازوليني السلطة، التي لا تبقى خارجية بالنسبة لنا (كما يقول برنانوس، متحدثًا عن الرأي السائد: «أمامها، تتلاشى الطاقات، وتصبح الطباع فقيرة، ويفقد الصدق وضوحه»)[٥]، ولكنها على العكس، تخترقنا بعمق حتى نصبح غرباء على أنفسنا. ربما كان ذلك مجرد اضطهاد خارجي وربما ظل وعينا الذاتي سليما! وإليكم كيف تعمل السلطة على الأنا: «العقلية المشتركة، التي أوجدتها وسائل الإعلام وشبكة كاملة من الأدوات التي تملك سلطة، والتي تزداد كثافة، لدرجة جعلت يوحنا بولس الثاني يقول أن خطر العصر الذي نمر به هو أنه يلغي «الإنسان من جانب السلطة – ويغير الإحساس بالذات ، والشعور بالذات، وبصورة أدق، يشل الحس

(٤) L. Giussani, *Alla ricerca del volto umano*, op. cit., p. 10.
(٥) G. Bernanos, *Un uomo solo, La Locusta*, Vicenza 1959, p. 44.

الديني، ويدمر القلب، أو يخدره تماما (التخدير الذي يمكن أن يتحول إلى غيبوبة، ولكنه تخدير)»[٦].

والعلامة على هذا التغير في الإحساس بالذات، وهذه الغربة عن أنفسنا، هي القراءة التي نفهم بها احتياجاتنا. إننا في فك رموز احتياجاتنا «لا نبدأ ببساطة من تجربتنا الحقيقية، أي من التجربة في اكتمالها وصحتها. في الواقع، فإننا غالبًا ما نتعرف على التجربة ذات الانطباعات الجزئية، وبالتالي نقلصها إلى مجرد جذع، كما يحدث عادةً في هذا المجال العاطفي، وفي قصص الحب، وفي الأحلام حول المستقبل. وفي الغالب لا نزال نخلط بين التجربة والأفكار المسبقة أو المخططات التي ربما تم استيعابها من قبل البيئة دون إدراك». وهي «تنطبق» علينا لدرجة أننا نعتقد أنها خاصة بنا، ويصل أثر السلطة حتى هذه النقطة! أما النتيجة فهي أننا بدلا من «الانفتاح على هذا الموقف المرتقب منتبهين إليه بصدق وانتماء تتطلبه التجربة وتحث عليه، نفرض على التجربة تفسيرات تعيقها وتوقفها وتفسدها، على زعم أنها تحلها». إننا نفرض أنماطنا على التجربة: فنحن نغطي على الحقائق بتعليقاتنا، بدلاً من محاولة فهم معناها، مما يعني، بشكل أكثر جذرية، أنه لا توجد تجربة. «إن أسطورة» التقدم العلمي الذي سيحل في يوم من الأيام جميع احتياجاتنا «هي الصيغة الحديثة لهذا الافتراض، وهو افتراض متوحش وبغيض: إنه لا يفكر حتى في احتياجاتنا الحقيقية، ولا يعرف حتى ما هي عليه؛ يرفض أن يراقب التجربة بتمعن، وأن يقبل

(٦) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro* (1986-1987), op. cit., pp. 364-365.

الإنسان في كل ما يطلبه. لذا فإن حضارة اليوم تجعلنا نتحرك بشكل أعمى بين هذا الزعم الغاضب واليأس المظلم»[٧].

وكما يقول الباحث الفرنسي ري ، «لقد اعتدنا على هذا البؤس حتى عدنا لا نحس به»[٨]. نحن راضون بحالنا

ويتناسب تأثير السلطة هذا بشكل مباشر مع عجزنا الملازم له. في الواقع ، «لا يمكن أن تتحقق أي نتيجة إنسانية بشكل شامل بسبب ظروف خارجية فقط، لأن حرية الإنسان، التي صارت هي أيضًا هشة، تبقى علامة لا تُمحى لمخلوق الله»[٩]. الخطيئة الأصلية أضعفت نفسي، لكني بقيت مخلوق الله، وأنكر أن أكون جزءًا من آلية الظروف والسلطة. وهذا يعني أن مثل هذا التأثير القوي للسلطة يتحقق أيضًا من خلال تواطؤنا. ولكن ما قد يبدو اتهامًا، يصبح في الواقع موردا. الإنسان لا يهزم نهائيًّا: «نحن لا نتحدث عن السلطة لأننا خائفون، نتحدث عن السلطة لأننا يجب أن نستيقظ من نعاسنا. قوة السلطة هي عجزنا. [...] في أي حال، نحن لسنا خائفين من السلطة، ونحن نخاف من النائمين، الذين يسمحون للسلطة بنومهم أن تفعل بهم ما تشاء. أقول إن السلطة تجعل الجميع ينامون، قدر الإمكان. ونظامها العظيم، ومنهجها الأعظم هو التنويم أو التخدير أو الضمور. ضمور ماذا؟ ضمور قلب الإنسان، احتياج الإنسان، رغباته، فرض صورة الرغبة أو الاحتياج المختلف عن هذا الزخم

(٧) L. Giussani, *Il cammino al vero è un'esperienza,* Rizzoli, Milano 2006, pp. 84-85. ترجمة المؤلف.

(٨) O. Rey, *Itinéraire de l'égarement*, Seuil, Paris 2003, p. 17. ترجمة المؤلف

(٩) L. Giussani, *Perché la Chiesa*, op. cit., p. 45.

اللامتناهي الذي يحتويه قلب الإنسان. وهكذا يصبح نمو الناس محدودا، ضيقي الأفق وسجناء ولا حول لهم ولا قوة، أنصاف ميتين، أو بمعنى آخر عجزة»[١٠]. مثل هذا العجز هو مثل «نعاس التلاميذ»، الذي تحدث عنه بندكت السادس عشر، بأن «الفرصة المواتية لسلطة الشر تبقى لقرون»[١١].

كيف نعرف أن السلطة ليست على حق؟ «أنت تعرف ما في قلب الإنسان، لأنه في قلبك. ما هو المعيار الذي نفهم به حقيقة الإنسان [...]؟ هذا هو التفكير في أنفسنا من خلال الأعمال [وليس الأقوال المنسقة النظيفة!]. ليس هناك معيار آخر»[١٢]. ليس هناك معيار آخر! ومع ذلك ، كما تذكرنا حنة أرنت، «يبدو من الأسهل إقناع الناس بالتصرف بأكثر الطرق فظاظة وخزيًا، بدلاً من إقناعهم بالتعلم من التجربة، والتفكير والحكم بحق، بدلاً من تطبيق التفسيرات والصيغ المحددة مسبقًا في رؤوسنا»[١٣]. كبيرة هي المساعدة التي يمكن أن نقدمها لأنفسنا، إذا كان بإمكاننا حقًا أن نروض أنفسنا على التعلم من التجربة! ولن يمكننا فهم حالنا إلا إذا استطعنا أن نفاجئ أنفسنا أثناء العمل.

---

(١٠) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987)*, op. cit., pp. 173-174.

(١١) Benedetto XVI, *Gesù di Nazaret. Dall'ingresso in Gerusalemme fino alla risurrezione,* LEV, Città del Vaticano 2011, p. 172.

(١٢) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987)*, op. cit., p. 365.

(١٣) H. Arendt, *Responsabilità e giudizio*, Einaudi, Torino 2004, p. 31.

«السر الخالد لكينونتنا»

في الفصل الخامس من كتابه «الحس الديني»، يصف الأب جوساني طبيعة الأنا، وعلى وجه التحديد «أنا» غير متقلصة[١٤]. وعند قراءته، يمكن للجميع إجراء مقارنة بين الهزة البشرية لإنسان يبحث بلا هوادة عن إجابة وتسطيح الرغبة التي غالبًا ما نجدها تغزونا والتي فيها أسباب «ضياع الشباب وسخرية الكبار»[١٥].

«لا شيء مذهل بقدر الذهول من اكتشاف الأبعاد الحقيقية للذات» الأنا»، ولا شيء غني بالمفاجآت مثل اكتشاف الوجه الإنساني لنا»[١٦]. إنها مغامرة مثيرة. لكن للشروع في هذه المغامرة والانتصار على غربة أنفسنا، نحتاج إلى شخص ينظر إلى الإنسان فينا، شخص لا نخاف أمامه. على غرار ما كتبته فتاة إلى صديقها: «في الوقت الحالي أشعر بالحاجة إلى التحدث معك، الآن بعد أن انفجرت تلك الأسئلة التي ظلت مخبأة داخلي، حبيسة مقيدة، ثم انفجرت في النهاية. وأخيرًا ... تآمر كل شيء ويتآمر ضدي، كل شيء، حتى أن أمي قالت لي: «لا تنزعجي، سوف يمر هذا الحزن»؛ أو: «لا تفكري في الأمر» ... ولكن الحزن لم يمر أبدًا، ولم أتوقف عن التفكير أبدًا، فقد كان التفكير ضرورة ملحة لا تتركني أبدًا، وتعذبني كل يوم وفي كل لحظة، دون راحة. لقد حاول الجميع تهدئتي،

(١٤) Cfr. "Il senso religioso: sua natura", in L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., pp. 59-77.

(١٥) L. Giussani, *L'io, il potere, le opere*, op. cit., p. 168.

(١٦) L. Giussani, *Alla ricerca del volto umano*, op. cit., p. 9.

وطمأنتي، وجعلي لا أعاني وأن اتقبل كل شيء، ولكن قلبي لم يكن يهدأ بل يطلب دائما المزيد ولا يتوقف عن الرغبة. ثم وصلت أنت. لم يكن لدي أبدا صديق مثلك. أنت فقط الذي لم يخف أو يحس بالعار أمام ألمي وأمام طلبي اللامتناهي. لم ينظر إليّ أحد على هذا النحو من قبل أبدًا. ارتعد قلبي، اهتز كما لم يهتز من قبل أبدًا. لقد غزاني فجأة وعي مرير بأن أحدًا لم ينظر لي حتى الآن كما أردت، فقد استبعد الجميع احتياجي الملح غير المريح، وشاركوني كل شيء إلا ما كان حتميًّا. لكن الحياة التي لا يوجد فيها مجال لإنسانيتي، لطلباتي الشهوانية والحميمية، ليست حياة، ولا هي حتى موت، بل مجرد صرخة يائسة. إنني لا أستطيع أن استبعد احتياجاتي الحسية، وإلا اختنقت، وما استطعت أن استكمل طريقي، فكل شيء متشابه، مسطح، عديم الفائدة، ممل، ولا يطاق بشكل رهيب. لقد خلق اللقاء معك مطالب تجاه حياتي كلها، لكل ثانية فيها، وأصبحت لا أريد أن أعيش بأقل من هذه المطالب. لقد أشعلت داخلي شغفا لم أذق طعمه أبدًا. إنني أحتاج إلى أشخاص بجانبي يستحقون الفكر الذي يهيمن على حياتي، والذين يمكنني أن أتحدث معهم في أي لحظة عن أي موضوع يستحق الحديث حقيقةً. أريد أن أكون معك لأنك لا تختصرني، لا تنكرني، لا تسبني، لا تدمرني، ولا تحاول أن تعطيني إجابة، ولا تحاول أن تشتتني أو ترفع في وجهي المواعظ الأخلاقية الحميدة، لكنك تشاركني الترقب والسؤال ونبل الألم المشترك، وحجم هذه الرغبة المطلقة وما تخلقه من عدم تناسب. أحتاجك لأنك تجعلني أنظر إليك وجها لوجه، تجعلني أواجه هذا الألم الفظيع، ولكنه ألم عزيز عندي، وأواجه

هذا الفكر الرهيب ولكنه فكر عزيزي عندي، فهو يجعلني إنسانة لغاية حدود الإنسانية».

نفكر في المرأة السامرية: إن نظرة ذلك الرجل قد كشفت لها – كما كان الحال بالنسبة لصديق هذه الفتاة – الطبيعة الحقيقية لعطشها(١٧).

يساعدنا المثال المعروض على فهم أن «نقطة البداية لإجراء دراسة، مثل النقطة التي نهتم بها، هي من تجربة المرء، من خلال الفعل نفسه». بحكم نقطة الانطلاق هذه، يقدم العامل الديني نفسه على أنه «طبيعة «الأنا» الخاصة بنا، كما تعبر عن نفسها في صورة أسئلة معينة: «ما هو المعنى النهائي للوجود؟»، «لماذا يوجد الألم، والموت، ولماذا نتجشم عناء العيش بعد ذلك؟»(١٨).

أول ما يميز هذه الأسئلة هو أنها لا مناص منها: «تلتصق هذه الأسئلة بأساس كياننا: فهي لا مناص منها، لأنها تشكل النسيج الذي صنع منه»(١٩). يقول هيشل:

«على الرغم من الإخفاقات والإحباطات، لا نزال نشعر بالقلق من هذا الطلب الذي لا يمكن كبته، ولا يمكننا قبول فكرة أن الحياة فارغة ولا معنى لها»(٢٠). وكما يقول ليوباردي، على الرغم من الغرق العالمي، فإن السؤال – كيف يمكن «للفكر المسيطر» – أن يستمر: «كبرج/ في معسكر

(١٧) راجع يوحنا ١٥،١٤.
(١٨) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 59.
(١٩) المرجع السابق ص ٦١.
(٢٠) A.J. Heschel, *Chi è l'uomo?*, op. cit., p. 77.

انفرادي،/ تظل وحيدا، عملاقا، وسطها»[٢١]. هذا الفكر السائد – «رهيب، لكنه عزيزي عندي»[٢٢] – هو مؤشر لشيء لا يغرق في التناقضات، التي تبرز من الغرق العام، الذي لا يستطيع «الغرور اللانهائي لكل شيء»[٢٣] أن يزيله. نفكر في الابن الضال: عندما يدرك الغرور اللامتناهي للأشياء، يصبح احتياجه الإنساني الملح أكثر عمقا من ذي قبل.

السمة الثانية لهذه الأسئلة هي أنها لا تنضب، فهي تحمل بداخلها احتياجا للاكتمال: «في هذه الأسئلة، يتم تقديم الجانب الحاسم من خلال الصفات والأحوال: ما هو المعنى النهائي للحياة، أو بالأحرى مم يتكون الواقع؟ ماذا يفيد أن أوجد، وأن يوجد الواقع؟ هذه هي الأسئلة التي تستنفد كل طاقة العقل على التفكير. هذه أسئلة تتطلب إجابة كاملة تغطي كامل أفق العقل، وتشبع «فئة الاحتماليات» بأكملها. إنه اتساق العقل في الحقيقة الذي لا يتوقف أبدا، إلا إذا وصل إلى كامل التشبع. «تحت الزرقة الكثيفة/ للسماء تمضي بعض الطيور البحرية./ لا تتوقف أبدًا: لأن جميع الصور تحمل عبارة:/ (أبعد!)»[٢٤]. إن البدء في إدراك هذا «الأبعد» يعطي ضوءًا جديدًا لمسار الحياة، كما يقول الأب جوساني معلقًا على أبيات الشعر المقتبسة من مونتالي:

(٢١) G. Leopardi, “Il pensiero dominante”, XXVI, vv. 18-20, in *Cara beltà*…, op. cit., pp. 77-78.

(٢٢) المرجع السابق الجزء الثالث.

(٢٣) G. Leopardi, “A se stesso”, XXVIII, v. 16, in *Cara beltà*…, op. cit., p. 84.

(٢٤) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 61.

«لا تكمن المشكلة في الواقع في رؤية العلاقات كأنها « آلهة»، أي علاقات مع ما هو إلهي. إنما هي علاقات مع علامته، لذلك لا يمكن أن تكتمل دون أن تصبح سبيلا وعلامة، تحيل إلى الحس الديني كما جاء على لسان كلمنت ريبورا التي سبق وأشرت إليها: «ليس هنا، ليس لهذا»؛ كل الأشياء التي تأخذها تقول لك: «ليس هنا، ليس لهذا، ليس لهذا!» ويقول مونتالي، من وجهة نظر ملحدة: كل الأشياء تصرخ بغرابة، تحمل عبارة «أبعد». لذا لا يتعلق الأمر ليس بأنهم ربما يقولون: «أنا كل شيء»؛ وهذا يجعل الناس يستمتعون بالأشياء أكثر، لأنه من الأجمل أكثر أن تكون، على سبيل المثال، رفيق مسيرة على أن تكون متورطا في متعة وقتية»[٢٥].

يمكن لكل واحد منا اختيار الموقع الذي يجب أن يتخذه أمام الحياة. لكن الشخص الذي ينتبه حقًا للتجربة لا يمكنه إلا أن يعترف بالاختلاف الهيكلي الذي يشكل «الأنا» الخاصة بنا، والذي وصفه ليوباردي بطريقة تستعصي على المجاراة في هذا النص: «إن عدم القدرة على التشبع بأي شيء أرضي، أو كما يقال، بالأرض كلها، ومع الأخذ في الاعتبار الاتساع العصي على التقدير للفضاء، وعدد العوالم وضخامتها المدهشة، وأننا نجد كل هذا قليلا أو وضيئلا أمام قدرة أنفسنا، وتخيل عدد العوالم اللانهائي، والكون اللانهائي، والاحساس بأن النفس والرغبة لدينا قد تكون أكبر من مثل هذا الكون، والاتهام الدائم للأشياء بأنها غير كافية

(٢٥) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro* (1986-1987), op. cit., p. 385.

ومعدومة، والاحساس بالحرمان والفراغ، ولكن أيضًا بالسأم، يبدو لي أعظم علامة على العظمة والنبل اللتين نراهما في الطبيعة البشرية»[٢٦].

أي شعور بالعظمة هذا! «إن عدم استيفاء الأسئلة يرفع من حدة التناقض بين زخم الحاجة وحدود القدرة البشرية على البحث والتقصي»[٢٧]. هذا التناقض غير القابل للحل هو «السر الأبدي/ لوجودنا»[٢٨]، أو بمعنى آخر هو ما يساء فهمه اليوم، لسبب يسمى: التأثير الذي تملكه السلطة علينا، مع سكوتنا عليه. لا ينقص إله، وإنما تنقص «أنا»، وينقص معنى سر «الأنا»، ينقص هذا السر الأبدي لوجودنا! النتيجة هي أننا لسنا بحاجة لله، وبالتالي فإننا نبحث عن الإجابة حيث يبحث عنها الجميع.

لكن عندما يبدأ المرء في تمعن تجربة هذا السر الأبدي للوجود، يبدأ في سد فجوة الارتباك الذي يفسد الحياة ويكتشف في نفسه وضوحا لحكم فريد من نوعه. وها هو المثال الدرامي لشخص كتب يقول:

«متزوج وعند زوجة وأولاد، وقعت في حب فتاة. استغرق الأمر بعض الوقت لأفهم ذلك، لأنني في أعماقي لم أرغب في الاعتراف بذلك، لكن هذا صحيحا. حاولت أن أرفض هذه الأدلة من خلال بوضع «المسيح» علامة على صداقتنا، لكن كان من الواضح أنه لم يكن سوى عزاء نفسي حتى لا أدرك انحراف «الأنا» الخاصة بي. كانت كل شعرة في جسدي

---

(٢٦) G. Leopardi, “Pensieri”, LXVIII, in *Poesie e prose,* Mondadori, Milano 1988, vol. II, p. 321.

(٢٧) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 63.

(٢٨) G. Leopardi, “Sopra il ritratto di una bella donna scolpito nel monumento sepolcrale della medesima”, XXXI, vv. 22-23, in *Cara beltà*…, op. cit., p. 96.

تهتز عندما أرى وجه هذه الفتاة. بدأت بالتفكير بعمق في وضعي لكي أستطيع إدراك العوامل المكونة لل «أنا»، واكتشفت أنني كنت حقا بحاجة إلى قاع لا يستطيع حتى هذا الوجه الجميل الخلاب والصافي لهذه الفتاة أن تمنحه لي. لم يستغرق الأمر سوى اللحظة التي أدركت فيها هذا الدليل على الفور أن الحيرة التي يغذيها هذا الموقف قد انحلت، دون أن تزيل التضحية الهائلة بالانفصال عنها والألم الذي أشعر به عندما أفكر في زوجتي، التي أحبها حبا جما، ولأطفالي وهم الأجمل، ولأصدقائي وشهود العرس. ولأول مرة أفهم سر وجودي فهما تاما، واتساعه اللامحدود وفي نفس الوقت عدميتي وصغر شأني. المفاجأة هي أنني رأيت أمامي داخل كل هذا الألم، جمال وراحة المسيرة، التي تكل من طرحها على كلينا، بحسم وصدق، وهما العلامة الاكبر على رقة الله تجاه عدميتي. لو لم يكن للمسيح حضور حقيقي عندي، فلم أكن لأستطيع النظر إلى نفسي على هذا النحو، وأنا ممتن حقًا لذلك، لأنني لست مضطرًا إلى التخلص من أي شيء إنساني بداخلي، وكل ما يحدث لي في الواقع هو استفزاز يسألني: من أنا، ولمن أريد أن أعطي حياتي كلها. لا أريد أن أعيش أكثر لو لم يكن لدي رسم مخ بلا مشاكل».

بهذا الوعي فقط يمكن مواجهة مشكلة الحياة دون الوقوع في المواعظ الأخلاقية العقيمة. إننا إذا قبلنا أن ننظر بتعمق في سر وجودنا، ندرك أن كل شيء صغير بالنسبة لقدرة روحنا. ما كم التعقيدات تنشأ من عدم فهم هذا! لأن تعقب أو شيء يحدث لا يحل المشكلة، بل يعقدها أكثر، وفي النهاية نجد أنفسنا في البداية من جديد، ومن جديد يتوجب

علينا محاسبة أنفسنا على عدم التشبع. ولن نستطيع الإجابة على السؤال الذي طرحته الرسالة على نحو أخلاقي وحسب:

«لا لهذا، لأنه ممنوع»، وفي قلوبنا نعتقد: «ولكننا في النهاية نضيع الخيار الأفضل». قد يعني عدم فهم أي شيء عن نفسك وعن إنسانيتك! نحتاج لأن ننظر إلى أنفسنا من أجل فهم سر وجودنا. إن كل شيء، إذا نظرنا إليه من وجهة نظر دينية، يكتسب وضوحًا ونصوعًا.

إدراكنا لسر وجودنا هو الذي يجعلنا نفهم ما نجد أنفسنا فيه، وغالبًا ما يزعجنا ، مثل الحزن ، «الحزن العظيم وهو الطابع الاساسي للحياة الواعية بنفسها، «الرغبة في خير غائب» ، كما كان يقول سانت توماس»(٢٩). أشعر بالحزن، لأنني أريد خيرا لا يزال غائبا. ولكن عندئذ «الوعي بقيمة هذا الحزم يتطابق مع الوعي بطبيعة الحياة، ومع الشعور بمصيرها»(٣٠). وهكذا يمكن للمرء أن يشعر بحقيقة هذا الحزن كما وصفه دوستويفسكي: «هذا الحزن المقدس الأبدي الذي لا تستبدله، بعض النفوس المصطفاة، متى امتلكته، وذاقته وعرفته، مع أي شعور أرخص بالرضا»(٣١). وهو شيء مختلف تمام عن سوء الحظ! بالإشارة دائمًا إلى دوستويفسكي، يعمق الأب جوساني الإحساس بالحزن وعكسه، واليأس، بأن يقلب بديهياتنا: «إذا كان الحزن شرارة تنبع من» فرق الجهد «الحياتي بين الوجهة المثالية والنقص التاريخي، فإن تسطيح ذلك «الفرق»- كيفما حدث - يخلق العكس

(٢٩) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 67.
(٣٠) المرجع السابق ص ٦٨.
(٣١) F. Dostoevskij, *I demoni,* Garzanti, Milano 1993, vol. I, p. 43.

المنطقي للحزن واليأس: «بالفعل الفكرة الثابتة الوحيدة، أن هناك شيء أكثر عدلاً وأكثر سعادة مني بكثير، تشملني برقة ومجد هائلين، أوه، مهما كنت، ومهما فعلت! بالنسبة للإنسان الذي لا غنى له عن سعادته الخاصة، يعلم وفي كل لحظة ويعتقد أنه يوجد في مكان معين سعادة مثالية وهادئة، لكل شخص وكل شيء ... يتكون قانون الوجود الإنساني من هذا فقط: يمكن للإنسان أن ينحني دومًا أمام ما هو كبير بشكل لانهائي. إذا تم حرمان البشر من الكبر اللانهائي، فلن يعودوا يستطيعون العيش وسوف يموتون فريسة لليأس»[٣٢]. إن الوعي بقامة الإنسان، وتصور الطموح الذي يغلب على أعمالنا ويزعجها، قد عبرت عنها جملة قالها تشيزاري بافيزى، كثيرا ما نقتبسها منه: «ما يسعى إليه الإنسان في الملذات هو لانهائي، ولن يتخلى أحد عن الأمل في تحقيق هذه اللانهائية»[٣٣]. لقد لمس إحساسًا حادًّا من عدم التناسق البنيوي بين الهدف النهائي لرغبتنا وما يمكننا تحقيقه، وفي الوقت أدان الإصرار الذي لا ينتهي للتوتر من أجل ما يتحقق منه الرغبة: «هل وعدنا أحد بأي شيء؟ فلماذا ننتظر؟»[٣٤] ويبرز السيد جوساني حقيقة أن أحدا لم يفكر بأن «الانتظار هو هيكل طبيعتنا نفسه»، أي أنه « من الناحية الهيكلية فإن الحياة وعد»[٣٥]. نحن لا نقرر ذلك، فالأمر كذلك. إذا فاجئنا «الأنا» في العمل، إذا راقبنا التجربة، فإن الأنا لن تكون سوى وعد.

(٣٢) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 69.

(٣٣) C. Pavese, *Il mestiere di vivere*, op. cit., p. 190.

(٣٤) المرجع السابق ص ٢٧٦.

(٣٥) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 71.

وكلما دخل المرء في سر وجوده وتفاعل معه، كلما أدرك ما هي العزلة الحقيقية - وهو ليس الشعور الوقتي بالبقاء وحيدا، لأن ذلك لا يعتبر شيئا له معنى: - «يمكننا أن نقول بكل قوة إن الشعور بالعزلة يولد من صميم كل التزام جدي بالإنسانية داخلنا». وكلما كان الرجل أكثر جدية بإنسانيته، كلما أدرك، في الواقع، طبيعة احتياجاته ويشعر بكل عجز - عجزه هو نفسه وعجز غيره - عن الاستجابة لها. يستوعب كل هذا «من يعتقد أنه وجد الحل لحاجة كبيرة في شخص ما أو شيء ما: وهذا يختفي منه أو يمضي بعيدا أو يثبت عجزه. نحن وحدنا مع احتياجاتنا، باحتياجنا إلى الوجود والحياة بشكل مكثف. ولو كنت وحيدًا، في الصحراء، فإن الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو انتظار أن يأتي شخص ما. والذي سيمكنه الحل لن يكون الإنسان بالتأكيد؛ لأن ما يجب حله هو احتياجات الإنسان»[٣٦].

ولكن في هذه المرحلة يمكننا أن نبدأ في رؤية ما هي الرفقة الحقيقية. من ناحية، فإن السؤال النهائي الذي يعبر عنه الحس الديني يبرز القيمة الحقيقية للعزلة البشرية. وهذا السؤال «هو سؤال تأسيسي للفرد، وبهذا المعنى يصبح الفرد وحيدًا تمامًا: ويصبح هو نفسه السؤال، ولا شيء غيره». من ناحية أخرى، وبشكل أكثر عمقًا، فإنه «في اللحظة الذي يحدد فيها عزلتي، يضع أصلا لرفقتي، لأنه يعني أنني مكوّن من شيء آخر، حتى وإن كان غامضًا». فالدين إذن، «هو ذلك الذي يفعله الإنسان في عزلته»، كما يقول ألفريد نورث وايتهيد، «ولكنه كذلك ما يكتشفه من رفقته الأساسية. هذه الرفقة هي أكثر أصالة من العزلة، لأن بنية

(٣٦) L. Giussani, *Il cammino al vero è un'esperienza,* op. cit., pp. 85-86.

الطلب هذه لا تتولد عن إرادتي، وإنما تُعطى لي. لذلك، قبل أن توجد العزلة وجدت الرفقة التي تحتضن عزلتي، بحيث لا تصبح عزلة حقيقية، بل صرخة نداء إلى الرفقة المخفية»(٣٧). لهذا السبب، لا يمكن أن يخفق أولئك الذين يعيشون هذه العزلة، وهذا العجز، وهذا النقص، في الصراخ، كما هو الحال في شعر لوتسي: «هذا النقص مم ينقص،/ من قلب،/ يمتلئ به فجأة؟/ مم؟»(٣٨).

الحنين لمخاطب بأنت

هذه هي ذروة البحث، تلك الذروة التي نفاجئها في أنفسنا، عندما تعبر الأنا عما هي عليه، عندما لا يتم اختزالها. كما يوثق بشكل رائع شعر لاجركفيست: «صديقي مجهول، هو واحد لا أعرفه [لا أعرف من أبحث عنه، لا أعرفه]./ مجهول بعيدا جدا.

/ بالنسبة له قلبي مليء بالحنين./ لأنه ليس بالقرب مني./ هل لأنه لم يكن موجودًا على الإطلاق؟ من أنت الذي تملأ قلبي بغيابك؟/ تملأ الأرض كلها بغيابك؟»(٣٩). بكلمة «الحنين» يقول لاجركفيست بطريقة شاعرية ما يعبر عنه جوساني بهذه الصيغة المختصرة: «التأكيد على وجود

(٣٧) L. Giussani, *Il senso religioso,* op. cit., pp. 74-75.

(٣٨) M. Luzi, “Di che è mancanza questa mancanza”, vv. 1-5, in *Sotto specie umana,* Garzanti, Milano 1999, p. 190.

(٣٩) P. Lagerkvist, “Uno sconosciuto è il mio amico”, in *Poesie*, Guaraldi-Nuova Compagnia Editrice, Rimini-Forlì 1991, p. 111.

الجواب، متضمنا في السؤال نفسه»[٤٠]. إن الحنين هو في الواقع تجربة إنسانية مشتركة، ويمكننا من خلالها أن نفهم أن حقيقة وجودها تعني ضمنا أن الآخر موجود لدينا، وإلا فلن نفتقده، ولن يوجد أي حنين إليه. لا يمكن لأحد أن يشعر بالحنين لشيء ما، أو لشخص ما، إن لم يكن ذلك لأن هذا الشيء أو الشخص قد كان موجودا من قبل أو هو موجود الآن.

إن «الأنا» غير المتقلصة لديها هذا الحنين داخلها، الحنين إلى «مخاطب» حقيقي وغامض، وهو حنين فيه الحماس نفسه لمن يدخل في علاقة مع كل شيء. كما تشهد بذلك المزامير بطريقة فريدة:

«يَا للهُ، إِلَهِي أَنْتَ. إِلَيْكَ أُبَكِّرُ. عَطِشَتْ إِلَيْكَ نَفْسِي، يَشْتَاقُ إِلَيْكَ جَسَدِي فِي أَرْضٍ نَاشِفَةٍ وَيَابِسَةٍ بِلَا مَاءٍ، لِكَيْ أُبْصِرَ قُوَّتَكَ وَمَجْدَكَ. كَمَا قَدْ رَأَيْتُكَ فِي قُدْسِكَ. لِأَنَّ رَحْمَتَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْحَيَاةِ. شَفَتَايَ تُسَبِّحَانِكَ. هَكَذَا أُبَارِكُكَ فِي حَيَاتِي. بِـسْمِكَ أَرْفَعُ يَدَيَّ. كَمَا مِنْ شَحْمٍ وَدَسَمٍ تَشْبَعُ نَفْسِي، وَبِشَفَتَيْ لِبْتِهَاجِ يُسَبِّحُكَ فَمِي. إِذَا ذَكَرْتُكَ عَلَى فِرَاشِي، فِي لسُّهْدِ أَلْهَجُ بِكَ، لِأَنَّكَ كُنْتَ عَوْنًا لِي، وَبِظِلِّ جَنَاحَيْكَ أَبْتَهِجُ. اِلْتَصَقَتْ نَفْسِي بِكَ. يَمِينُكَ تَعْضُدُنِي»[٤١]. أو: «كَمَا يَشْتَاقُ الإِيَّلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ، هكَذَا تَشْتَاقُ نَفْسِي إِلَيْكَ يَا اللهُ. عَطِشَتْ نَفْسِي إِلَى اللهِ، إِلَى الإِلهِ الْحَيِّ. مَتَى أَجِيءُ وَأَتَرَاءَى قُدَّامَ اللهِ؟»[٤٢].

(٤٠) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 76.
(٤١) مزمور ٦٣ ٢-٩.
(٤٢) مزمور ٤٢ ١-٣.

الله لا ينقص، بل تنقص «أنا»، «أنا» مثل التي توثقها المزامير، لديها وبداخلها كل الحنين إلى الماضي، العطش لإجابة شافية. لهذا يقول يسوع: «طُوبَى لِلْجِيَاعِ وَالْعِطَاشِ»[٤٣]. طوبى! لأن «الأنا» المستيقظة العطشى يمكنها وحدها أن تتعرف عليه، وتنفعل به. ويؤكد ظهور النفس المستيقظة على معقولية المسار التعليمي الذي اقترحه الأب جوساني. يصبح النضال ضد السلطة على هذا المستوى: الأنا الموجودة في حد ذاتها تمثل الانتصار على السلطة، على محاولة تقليصها في رغبة، على تسطيحها. بالنسبة لأنا تشعر بالجوع والعطش، فإن عروض السلطة ما هي إلا فتات، لأنها تعلم أن أي عطاء لن يكفي، ولا يوجد مكان في الشمس يكفي لإشباع حاجتها. هذه الأنا تعرف أين تجد الراحة التي تتناسب مع ذروة احتياجاتها التأسيسية.

وكلما كان الإنسان مدركًا أن الله وحده يستطيع أن يشكل راحة حقيقية له ، وكلما تحرك بحقيقة أن الرب موجود هناك، لا يستطيع أن يتفادى الانفعال العاطفي، كما كان الأب جيوساني يقول مرارا وتكرارا: «قلبي سعيد لأن المسيح يعيش»[٤٤]؛ من الوجدان ومن الصمت: إن حضوره يملأنا بالصمت. «إِلَى اسْمِكَ وَإِلَى ذِكْرِكَ شَهْوَةُ النَّفْسِ»[٤٥]. لكن هذه الشهوة لا يمكن أن تستمر لبضع دقائق إذا لم تصبح سؤالا، لأن الشكل الحقيقي للرغبة هو السؤال: والسؤال يسمى «صلاة».

---

(٤٣) متى ٥,٦.
(٤٤) L. Giussani, *L'Alleanza*, Jaca Book, Milano 1979, p. 106.
(٤٥) اشعيا ٢٦,٨.

٨

توسيع العقل

في خطابه التاريخي في جامعة ريغنسبورغ، تحدى البابا بندكت السادس عشر الجميع «لتوسيع مفهومنا للعقل واستخدامه»[١]. هل توسيع العقل ممكن؟ وتحت أي ظروف؟

ناتج المسألة

إن أي نهج صادق ومخلص لهذه الدعوة لا يجب أن يجعلنا نتجاهل الصعوبات الموضوعية التي غرقنا فيها تاريخيًّا. كل إنسان - الذي كان عقله في الأصل هو «الانفتاح الذي لا ينضب» أمام «دعوة لا تنضب للحقيقية»[٢]، كما هو موثق في فضول الطفل اللامحدود - الذي يأتي إلى

(١) بندكت السادس عشر، اجتماع مع ممثلين عن العلوم في القاعة الكبرى لجامعة ريغنسبورغ، ريغنسبورغ، في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦.

(٢) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 134.

العالم ضمن السياق التاريخي لشعب[٣]. وكل شعب لديه ثقافة، أي طريقة للنظر إلى الواقع وتصوره، والدخول في علاقة معه. وكما يؤكد رومانو جارديني، فإن الثقافة هي «كل ما يخلقه الإنسان ويدخل في لقائه الحي مع الواقع الذي يحيط به»[٤]. لذلك يتم إدخال كل عضو جديد من الشعب في الواقع من خلال ثقافة شعبه، وتقاليده، ومنها يتم تعريفه تاريخيًّا. هل من الممكن لإنسان تميزه ثقافته بالضرورة أن يوسع عقله لكي يدخل في علاقات مع بشر آخرين متساويين في هذا التميز؟ لا يفلت أحد من ناتج هذا السؤال على الوضع التاريخي اليوم.

إن السياق الذي نجد فيه أنفسنا يتسم بوضوح بإمكانية حدوث هجرات جماعية والتقاء بين مختلف الشعوب، في وضع جديد تمامًا على تاريخ البشرية. إن صعوبة التعامل مع هذه المستجدات يمكن رؤيتها من منظور حتمية هذا المسار من جهة، ومن منظور الصدام بين الثقافات والحضارات، مع خطر التصعيد إلى العنف، من جهة أخرى، وعدم الاكتراث الذي يتم التعبير عنه تجاه التعددية الثقافية. لكن هناك حقيقة تضع أمامنا إمكانية أخرى.

(٣) لقد أدركت الفلسفة السياسية منذ أرسطو دائمًا هذه الحقيقة: «فقط في إطار شعب يمكن للفرد أن يعيش إنسانا بين البشر»، (H. Arendt، The Future Behind، il Mulino، Bologna 1995، p.21).

(٤) R. Guardini, Persona e *libertà. Saggi di fondazione della teoria pedagogica*, La Scuola, Brescia 1987, p. 50.

القيمة الثقافية للصداقة

يلتقي شخصان، أستاذ وباحث دكتوراه شاب، وائل فاروق وباولو، بدافع دراسة اللغة العربية. ينتميان إلى عوالم مختلفة: أحدهما مسلم والآخر كاثوليكي. كلاهما متأثر بالقطع بآفاق ثقافته الخاصة. لكن يحدث شيء غير متوقع: يصبحان صديقين. يجبر هذا الحدث الصديقين كليهما على محاولة فهم الآخر، ولفتح العقل وراء القيس المستخدم في تقدير الذات حتى تلك اللحظة. إنها الصداقة باعتبارها حدث حقيقي هي التي تشجع على توسيع عقل الصديقين، لأن كلا منهما يريد أن يتوحد مع صديقه، ويتعلم طريقة لاستيعاب الآخر واكتشافه بعيدا عن الصور النمطية المضخمة. تبدو وكأنها تجربة صغيرة ومصغرة إذا قارناها بالقضايا المعاصرة. لكن واقعة أن شخصين ينتميان إلى عالمين مختلفين غريبين يلتقيان ويصبحان صديقين ليست واقعة خصوصية، لأنها بناءة وتنويرية، فهي بداية رحلة تؤدي إلى المعرفة المتبادلة بفضل استعداد الاثنين لتوسيع العقل. ومن ثم فهذه الخبرة توسع نطاقها بما يجاوز محيط العلاقة بين الاثنين. وتشكل هذه التجربة أحد المستجدات الحقيقية في سياق يتأرجح بين المواجهة واللامبالاة. لكن قبل تعميق الناتج الثقافي لقصتهما الشخصية، دعونا نتوقف للحظة حتى نسبر غور هذا الحدث.

ما الذي يسمح لك بأن تصبح صديقًا رغم أنك محكوم تاريخيًّا بالتقاليد والثقافات المختلفة؟ هو وجود شيء داخل كل واحد منا – مهما كان المكان الذي ولد فيه على وجه البسيطة – يتمثل في التجربة الأولية،

وهي عبارة عن «مجموعة متشابكة من البراهين والاحتياجات الأصلية، وهي أصيلة إلى حد أن كل ما يقوله الإنسان أو يفعله

يعتمد عليها»(٥). يمكننا الإشارة إلى هذه الهوية البشرية التأسيسية بكلمة «قلب» كما جاءت في الكتاب المقدس. «الحاجة إلى الحقيقة، إلى الحب، والعدالة، والسعادة: تشكل هذه الحاجات قلب الإنسان، وتشكل جوهر العقل، أي الوعي الذي يمتلكه الإنسان عن الواقع وفقًا لشمولية عوامله»(٦). وقد أشار الكاردينال راتزينجر (آنذاك) إلى هذا الجوهر المشترك بين جميع البشر باعتباره الشرط الجذري لإمكانية الالتقاء والصداقة بين الناس والثقافات والتقاليد. وقد صرح في عام ٢٠٠٣: «التقاء الثقافات ممكن لأن الإنسان، رغم كل الاختلافات في تاريخه وإبداعاته المجتمعية، هو كائن متطابق وفريد. هذا الكائن الفريد الذي هو الإنسان، في عمق وجوده، تصل إليه نفس الحقيقة»(٧). عن هذا العمق تحديدا، وعن هذا القلب الذي يتوق إلى المعنى الحقيقي للأشياء، يتعامل كتاب «الحس الديني» للويجي جوساني، وهو فرصة لإعادة اكتشاف الخبرة البشرية في كل اتساعها وعمق احتياجاتها، حتى بالنسبة للأشخاص الذين ينتمون إلى ثقافات وتقاليد مختلفة عنا. هذا هو التحدي المتمثل في نشر الترجمة العربية - في هذه اللحظة التاريخية - لنص الأب جوساني، الموجه صراحةً إلى جمهور ينتمي في جزء كبير منه إلى الدين الإسلامي.

---

(٥) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 9.

(٦) L. Giussani, *L'io, il potere, le opere*, op. cit., p. 36.

(٧) J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza,* op. cit., p. 67.

أسبقية الحقائق

وقد أدرك الفيلسوف الفرنسي آلان فينكيلكراوت إدراكا ممتازًا الأهمية الثقافية لحدث معين. ففي كتابه «نحن، المحدثون»، تأمل قيمة الأحداث في تطوير فهمنا وفي التغلب على المخططات والإجراءات الراسخة: حتى لتوضيح المسألة الميتافيزيقية يجب أن نتبع «درس الاحداث». يبدأ الكتاب باستطراد طويل أخذ يستمع فيه إلى واقعة: «في ١٣ أغسطس عام ١٩٧٧، دون رولاند بارت في مذكراته: «فجأة، أصبح حدث أنني لم أعد حديثا بالنسبة لي غير ذات أهمية». وهي عبارة مذهلة، إذا ما فكرنا فيها مليًّا. ففي ذلك الوقت، في الواقع، كان يوصى بشدة أن نكون حديثين، بل كان ذلك حيويًّا للغاية، وفي حقل علم الجمال كان بارت نفسه هو من يوزع هذه الصفة الثمينة على غيره. في ذلك الوقت كان مؤلف كتاب «درجة الصفر في الكتابة» في الواقع من بين هؤلاء، النادرين والمختارين، الذين أملوا قانونهم في أمر الحداثة. وكان من أهم من يختار أعضاء فريق المحدثين. كان بارت قاطعا فاصلا بين القديم والحديث. فكان يفصل باستمرار بين العصري والرجعي، بين الحي المعاصر والميت القديم. وفجأة، أدرك من تلقاء نفسه أن الخط الفاصل يمر من خلال قلبه. كان القاضي وفي الوقت نفسه المتهم. كان يمارس على نفقته الخاصة الحق في الحياة والموت في أمور الروح. كان يستبعد ما كان يحبه هو نفسه؛ وتدين قيمه المعلنة بعض ميوله العميقة. وكانت ذائقته تعاني من أحكامه، ولكنه لم يجرؤ على الاعتراف بذلك خوفا من أن يصير غير

حديث. حوله خوف غريب عنيد إلى منشق سريع على عقيدته الخاصة. وفجأة، سقط الخوف. توقف بارت عن أن يخاف. أناه الأخرى خرجت من مخبئها، وأخيرًا بدأت تتنفس الهواء الطلق»(٨).

هذه الحدث له مغزى. لا يمكن لمحدث مثل بارت، اعتاد على استخدام العقل كإجراء وتوزيع تسمية «الحداثة» الثمينة على من يشاء، أن يتجنب، في لحظة معينة، أن يتصالح مع إنسانيته الخاصة، إلى درجة أن يصبح القاضي هو المتهم أمام قلبه. وهنا يبدأ الصراع، في داخله، بين القيم المعلنة والميول العميقة. يوجد شيء فينا يقاوم كل التفسيرات وفي نفس الوقت يكشف عنها، عندما يثبت أنها غير مبرر وعنيفة. هناك شيء ما فينا ينجو من عاصفة التفسيرات: الميول العميقة. وقد تلقى بارت ردا على هذا العنف من خلال الخبرة: معاناة ذائقته من أحكامه. وهكذا يواجه الخيار الحقيقي: اتباع الميول العميقة التي تظهر في التجربة والتي تتكشف في ذائقته، أو يظل ملتصقا بالأفكار المسبقة في أحكامه. وهنا يتم استدعاء الحرية للمخاطرة وهنا قد يسيطر عليها الخوف. وهو إغراء شجبه فرانز كافكا، عندما قال إن الإنسان يفضل في بعض الأحيان أن يخنق وجوده وكيانه للهروب من الحرية والمسئولية(٩). لكن بارت يفوز بهذه المعركة بالطريقة الوحيدة الممكنة: الاستسلام لبرهان التجربة. والتوقف عن الخوف. عندما يحدث هذا، كما يلاحظ فينكيلكراوت ، يخرج غروره من مخبئه ويتنفس في النهاية الهواء الطلق.

(٨) A. Finkielkraut, *Noi, i moderni, Lindau,* Torino 2006, pp. 11-12.

(٩) Cfr. F. Kafka, *Aphorismen*, n. 34.

ما الذي يمكن أن يسبب مثل هذا التغيير الجذري؟ يتابع فينكيلكراوت: «قبل أسابيع قليلة من رفضه السوبر إيجو الحديثة دون سابق إنذار، يدون بارت هذه الملاحظة في مذكراته: «أرى موت للوجود العزيز، وأنا يائس لذلك، إلخ.» والوجود العزيز هو الأم المحتضرة. وهناك صلة بين هذا اليأس وذلك الرفض. لقد توقف بارت عن إعلان نفسه حديثًا، وعن القيام برحلات مكوكية بين معاييره وذائقته عندما رأى أمه تموت. «فجأة، أصبح حدث أنني لم أعد حديثا بالنسبة لي غير ذات أهمية». لا يأتي الموقف المختلف من تفكير عقائدي، بل من حدث بسيط. حدث حميم وضئيل مقارنة بالقيم الفنية والسياسية التي يؤمن بها من خلال تمسكه بالحداثة. إنه الحزن الخاص الذي دفع ببارت لإدانة صورته العامة»[١٠].

ولذلك كان «الحدث البسيط» - وفاة الأم - وليس التأمل الفكري، هو الذي دفع بارت لتوسيع عقله. حدث، «حميم وضئيل»، إذا شئت أن تصفه بذلك، مقارنة بالقيم التي يؤمن بها من خلال تمسكه بالحداثة، ولكنها حاسمة في كشف الحقيقة له. لهذا فإن فينكيلكراوت يعتبر الحدث هو المنهج الأسمى للمعرفة: «الحدث هو شيء يدلف من الخارج. شيء غير متوقع. وهذا هو المنهج الأسمى للمعرفة. يجب أن نعيد إعطاء بداية جديدة للحدث في بعده المعرفي التأسيسي أو الأنطولوجي. فهو بمثابة انفجار للجديد، يكسر التروس التي تدير أية عملية»[١١]. ولهذا

(١٠) A. Finkielkraut, *Noi, i moderni*, op. cit., p. 25.

(١١) A. Finkielkraut, «Tirerò Péguy fuori dal ghetto», intervista a cura di Stefano M. Paci, *30Giorni*, n. 6, giugno 1992, pp. 58-61.

السبب فبدون الحدث لا توجد معرفة، بل نظل عالقين في تروس المعرفة المعروفة. إنه الحدث الذي يخلق الإجراء، الذي يجبر العقل على التوسع، ويحركه.

ويمكننا أن نلمس نتاج الحدث من التغيير الذي يسببه. إذا كان «أن تكون حديثا» معناه - كما يقول بارت - «الانفصال»، أي استخدام العقل منفصلا (مطلقا) عن علاقته بالواقع، فإن التغيير يكون في الانتصار على هذا الفصل. ويواصل فينكيلكراوت: «في مؤتمر عقد في عام ١٩٧٨ في كوليج دو فرانس، اعترف بارت برغبته في مقاطعة (الطبيعة الفكرية موحدة النسق) في كتاباته السابقة، لبدء حياة جديدة، وهي ممارسة الكتابة التي تسمح له بالخروج على نفسه ، ونقلها بعيدا عن «غطرسة التعميم» ، إلى التعاطف مع الآخر»[١٢]. هنا هو التغيير الذي يبدأ في اخراج أنا جديدة: «الخروج من النفس للانفتاح على الآخر. إنه انتصار التعاطف على الانفصال. كان لبارث بالتالي الجرأة ليكون معقولا حقا، وفقا لمبدأ جان غيتون الأساسي: «المعقول» تعني الشخص الذي يقدم سببًا لتجربته»[١٣].

(١٢) A. Finkielkraut, *Noi, i moderni*, op. cit., p. 26.

(١٣) J. Guitton, *Arte nuova di pensare*, Edizioni Paoline, Roma 1981, p. 71.

طبيعة العقل

يمكن للمرء أن يلمس الأهمية التاريخية للانتصار على الانفصال الذي ندد به بارت، إذا فهم الطبيعة الحقيقية للأزمة التي غرقنا فيها. لقد حددت ماريا زامبرانو بشكل جيد جوهر المسألة بتأكيدها أن وجودنا في أزمة هو فعليًّا الرابط الغامض الذي يوحد وجودنا مع الواقع، وهو رابط عميق وأساسي حتى أنه يصبح مصدر دعمنا الأكثر حميمية(١٤). هذه المقاطعة مع الواقع ليست خالية من المغزى لفهم مسألة العقل واستخدامه. وكما رأينا في حدث الصداقة بين وائل فاروق وباولو، وحدث بارت، فإن ترك النفس للتأثر من الواقع هو الذي يطلق العنان لطاقة العقل، ويكشف عن أصالته الطبيعية.

إن الحياة اليومية تشهد على أن العقل يميل إلى فصل نفسه عن التجربة، لكي يعالج الواقع ويتعامل معه وفق الأحكام المسبقة والمبادئ المخزونة – غير الواعية أحيانا – التي لا يرغب في التشكيك فيها، وحتى وإن كان هذا الميل هو ما يظهر فعليًّا بالضرورة. بهذه الطريقة ينتهي بنا الأمر إلى قبول جزء فقط من الواقع، أي ذلك الذي يدخل ضمن تفسيرنا الخاص الذي نستطيع تقديمه. ووراء ذلك تقع شفرة الإيديولوجية وفقًا للملاحظة الفعالة لحنة أرنت: «الأيديولوجيات تعتقد أن فكرة واحدة كافية لتفسير كل شيء يرد في مقدماتها، وأنه لا يوجد خبرة يمكن

(١٤) Cfr. M. Zambrano, *Verso un sapere dell'anima,* Cortina editore, Milano 1996, p. 84.

أن تعلم أي شيء حيث يتم تضمين كل شيء في هذه العملية المستقة للاستنتاج المنطقي»[١٥].

القاعدة العظيمة للمعرفة، على العكس من ذلك، يمكن أن تشير إليها هذه الصيغة الهامة التي كتبها الأب جوساني: «يصبح الواقع واضحا بالخبرة»[١٦]. يعبر مارتن هايدغر عن نفسه من وجهة نظره بطريقة مماثلة: «الخبرة هي الطريقة المناسبة لفعل الحضور»[١٧]. فالشيء موجود عندما يدخل أفقي ويتداخل معي. وإلا فهو دخيل، ويظل مجهولا، هو والعدم سواء. وإذا تفكرت مليًّا فإن واقع العقل نفسه يمكن أن يبدو لنا دخيلا.

لذا من الأفضل العودة إلى الخبرة. في خبرة اللقاء مع الواقع، يتم الكشف عن العقل على أنه ضرورة للمعنى الكامل، والذي يتم التعبير عنه في المسألة المستعصية: «لماذا؟» وهو لا يقنع بالحلول الجزئية أو غير النهائية، وإنما يريد أن يصل إلى المعنى النهائي، ولهذا يظل مفتوحا على مصراعيه على الواقع، أي على العمل. وهذا يفسر تعريف العقل على أنه «الوعي بالواقع وفقًا لجميع عوامله»[١٨]، حيث مفهوم العقلانية برمته الذي يكمن وراء الحس الديني.

(١٥) H. Arendt, *Il pensiero secondo. Pagine scelte*, BUR, Milano 1999, pp. 136-137.

(١٦) L. Giussani, *In cammino (1992-1998)*, BUR, Milano 2014, p. 311.

(١٧) M. Heidegger, *Sentieri interrotti*, La Nuova Italia Editrice, Firenze 1968, p. 168.

(١٨) L. Giussani, *Si può (veramente?!) vivere così?*, BUR, Milano 2011, p. 79.

لذلك، فالعقل ليس أداة للحيل الفكرية التي يمكن للمرء أن يستغني عنها. ولكنه حاجة وجودية ملحة. كما يلاحظ أغوستينو جيميلي، «لا يعيش الإنسان سلبيًّا [...] بل يعيش لأنه شاء ذلك»[١٩]، أي أراد ورغب وأمل وأحب. وبالتالي، لا يوجد أي شيء أكثر لاإنسانية من التصور الذي يدعي بفصل النشاط المعرفي والفكري عن الأنا الراغبة والمحبة، كما لو أن الحاجة إلى العمومية الكامنة في العقل تتطلب بالضرورة إزالة الموضوع الحي الملموس. «هناك وحدة عميقة، هناك علاقة عضوية بين أداة العقل وبقية شخصيتنا. الإنسان واحد، والعقل ليس آلة يمكن أن تفككك من بقية الشخصية لجعلها تعمل بمفردها مثل الزنبرك في اللعبة. العقل جوهري لوحدة الأنا فينا»[٢٠]. هذه الوحدة هي الشرط الذي يتحقق به العقل على نحو سليم: «الشرط لكي يصبح العقل عقلاً هو أن تكسوه العاطفة وبهذا يحرك الإنسان كله»[٢١]. وكما رأينا، في الواقع، فإن المودة والصداقة والتعاطف مع الآخر وتجاه الآخر هو الذي يسمح للعقل بالحفاظ على انفتاحه، دون الخضوع لإغراء أن يصبح مقياسًا، مما يجعل المعرفة الحقيقية ممكنة. ولهذا لا يوجد عقل دون عاطفة. لقد أدى بنا تقليص العلاقة مع الواقع، نتيجة لعقل تم تصوره على أنه مقياس، إلى العدمية. ما هو شكل العدمية اليوم؟ لها شكل إفراغ الواقع ومحوه. الواقع مفرغ، فلم يعد يحتوي أي شيء إلا ما يمكن قياسه، وحسابه،

(١٩) A. Gemelli, *L'anima dell'insegnamento*, Vita e Pensiero, Milano 1930, p. 69.

(٢٠) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 32.

(٢١) L. Giussani, *L'uomo e il suo destino*, op. cit., p. 117.

وقد تقلص إلى شيء يمكن استخدامه فقط: إنه نفي للواقعي كعلامة، أي باعتباره يحمل بداخله وعدا لنفسه. وكما يؤكد هايدجر فإن «جوهر العدمية» هي القصة التي لا يوجد فيها عن الكينونة نفسها [أو سرها] شيء»[٢٢]. هذا هو ثمرة عقل تم تصوره منطقيًّا، ولأنه لم يكن قادرًا على السيطرة على المنطق فقد أغلق أبوابه دون بعدي العمق والمعنى (فلم يعد يعترف إلا بما هو قابل للحساب وقابل للقياس). ولكنه فعل أكثر من ذلك: فقد أزال السؤال حول المعنى النهائي للأشياء (لأن عقل القياس لا يهتم إلا بالسؤال «كيف» حول الظاهرة، أما «لماذا» فهو سؤال نسبي في النهاية، وليس نهائيًّا).

أصبحت هذه الإزالة الآن تراثًا مشتركًا؛ ويتم العيش فيها دون رثاء، وعلى ما يبدو، دون دراما. لم تعد العدمية اليوم نظرية، بل هي ممارسة لحياة لاهية ومشتتة. ما هو رائج اليوم هو «العدمية المرحة»، بمعنى أنها خالية من الأرق، والتي قهرت الأرق الذي يتحدث عنه أوغسطين. ولم يحدث هذا دون ثمن: وكما أوضح البابا بندكت السادس عشر بطريقة فائقة، فإنه يترتب عليها أولا وقبل كل شيء «تقليص جذري للإنسان، واعتباره مجرد منتج للطبيعة، وهو على هذا النحو ليس حرا حرية حقيقية, ومن ثم يصبح عرضة لأن يعامل معاملة أي حيوان آخر»[٢٣].

(٢٢) M. Heidegger, *Nietzsche,* Adelphi, Milano 1994, p. 812.

(٢٣) Benedetto XVI, *Discorso ai partecipanti al IV Convegno Nazionale della Chiesa Italiana, Verona,* 19 ottobre 2006.

من ناحية أخرى، عندما تأخذ العدمية دورها النظري القوي وتؤكد أنه في أساس الأشياء والأنا لا يوجد شيء، ومن ثم فكل شيء سيكون وهمًا، ويصبح الموجود لا معنى له، فإن خبرتنا الخاصة هي التي سوف تتمرد على هذا التأكيد، لأن كل واحد منا يختبر وجود الأشياء باعتبارها من المعطيات الأولى غير القابلة للزوال، أي باعتبارها منحة تسبق كل فكر وكل تأمل ننغمس دائما فيه. و«إذا كانت الأشياء» توجد، «فلا يمكن تفسيرها بـ «عدم الوجود»»[٢٤]. يكتب الفيلسوف الاسباني خافيير زبيري عن ذلك، ويرسم عواقب ذلك على المستوى المعرفي: «ما ينتمي إلى العقل ليس أدلته المفترضة، ولا صرامته العلمية أو المنطقية، ولكنه فوق كل شيء قوة الانطباع بالواقع، ووفقًا لها يفرض الواقع العميق قسريًا نفسه في العقل الفطن. ولا تتخلى صرامة المنطق عن كونها التعبير الشعري عن قوة الواقع، عن القوة التي يفرضها علينا الواقع الذي نوجد فيه انطباعيًّا بالفعل. ولذلك، فإن مشكلة العقل لا تتمثل في التأكد مما إذا كان من الممكن للعقل أن يتوصل إلى الحقيقة، بل العكس تمامًا: كيف يجب علينا الحفاظ على أنفسنا في الواقع الذي نوجد فيه بالفعل. إنها ليست مسألة أن نصل إلى الوجود في الواقع، وإنما في عدم الخروج منه»[٢٥].

هذه هي مهمة الحرية. الشرط الأول للتفهم هو قبول المعطيات كما يتم تقديمها لنا. أول شيء نحتاج إلى معرفته هو أن نسمح بوجود ما نراه، وليس الاستحواذ من خلال التصنيف الموضوعي على المواد الجاهزة سهلة

(٢٤) L. Giussani, *In cammino (1992-1998)*, op. cit., p. 257.

(٢٥) X. Zubiri, *Inteligencia y razón*, Alianza Editorial, Madrid 1983, pp. 95-96. ترجمة المؤلف.

الإدراك، بل أن نضع أنفسنا في خدمة الكائن، أن نعبد[٢٦]. «إنها السلبية التي تشكل نشاطي الأصلي، وهي التلقي والملاحظة والتعرف»[٢٧].

عظمة الواقع لا تترك العقل غير مكترث. الواقع يعمل عليه كدعوة لا تقدر بثمن لاكتشاف معنى الصديق أو الحقيقة. إن منع هذه الديناميكية يعني إيقاف المعرفة: «إن الطريقة التي يطرح بها الواقعي نفسه هي حثه على شيء آخر [...] الواقعي يحثني [...] للبحث عن شيء آخر، يتجاوز ما يظهر أمامي على الفور. يمسك الواقع بوعينا بطريقة تجعل هذا الوعي يشعر بشيء آخر ويفهمه. في مواجهة البحر والأرض والسماء وكل الأشياء التي تتحرك فيه، لست مغلقا على نفسي، بل متحرك، مائج، منفعل بما أراه، وهذه الحركة هي البحث عن شيء آخر»[٢٨].

الواقع يقدم نفسه للعقل كعلامة. وهذا ما تعبر عنه الأبيات الرائعة من شعر مونتالي: «تحت الزرقة الكثيفة/ للسماء تمضي بعض الطيور البحرية./ لا تتوقف أبدًا: لأن جميع الصور تحمل عبارة:/ (أبعد!)»[٢٩]. أو في صورة وليام شكسبير: «أرني فتاة يمكن أن يقال إنها جميلَة، فلا أرى في جمالها إلا تنويها عمن هي أجمل منها»[٣٠].

---

(٢٦) Cfr. H.U. von Balthasar, *Herrlichkeit. Eine theologische Ästhetik*, Johannes Verlag, Einsiedeln 1961, vol. I, pp. 448-449.

(٢٧) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 141.

(٢٨) المرجع السابق ص ١٥٣.

(٢٩) E. Montale, “L’agave su lo scoglio – Maestrale”, vv. 17-20, *Ossi di seppia, in Tutte le poesie,* op. cit., p. 73.

(٣٠) W. Shakespeare, *Romeo e Giulietta*, atto I, scena I. (ترجمة المؤلف).

ولا تصبح ديناميكية هذه العلامة كاملة ما لم تصل إلى ذروتها، أي حتى الاعتراف الكامل بالدهشة من وجود السر الأعظم الذي يفعل كل الأشياء: «قمة انتصار العقل هي إدراك وجود موجود مجهول، لا يمكن الوصول إليه، مستقر لحركة الإنسان كلها، لأنها أيضًا تعتمد عليه. إنها فكرة السر»(٣١). ويقول أيضًا:

«العالم علامة. والواقع يدعو إلى واقع آخر. والعقل، ليكون وفيًّا لطبيعة هذه الدعوة ، مجبر على الاعتراف بوجود شيء آخر يكمن وراء كل شيء ، يفسره»(٣٢). ولكن اتباع ديناميات العقل، وفتحها وتفعيلها من خلال فرض الواقع، دون عرقلة ومراقبة، ليس بديهيًّا على الإطلاق، بل ينطوي على التزام مخلص لا يكل.

تعليم التفكير كمهمة للجامعة

إن التحدي المتمثل في توسيع العقل يستدعي احتياجا أكبر وحاسما دائما، وتزيد الحاجة إليه اليوم على وجه الخصوص، وهو التعليم. وإذا كان هناك من مكان يطلب إليه على نحو بارز تعليم استخدام العقل، فهذا المكان ليس إلا الجامعة. وهذا هو سبب وجودها الحقيقي. فإذا لم تشجع الجامعة على الاستخدام الحقيقي للعقل فإنها تكون قد فشلت في مهمتها.

(٣١) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 162.

(٣٢) المرجع السابق ص ١٩٥.

أما إذا ثقفت العقل فقد قامت بمهمتها الحقيقية. لكن كيف يمكن للجامعة أن تنجز هذه المهمة؟

عندما تذكر بنديكت السادس عشر حياته الجامعية، استدعى معنى «العالمية»، أي أننا «رغم كل الاختصاصات التي تجعلنا أحيانا غير قادرين على التواصل فيما بيننا إلا أننا نشكل معا كلا لا يتجزأ ونعمل في كل شيء بالعقل بأبعاده المختلفة، ولأننا نتحمل معا أيضًا المسئولية المشتركة عن الاستخدام الصحيح للعقل - أصبحت هذه الحقيقة تجربة حية»[٣٣].

١) العنصر الأول الذي أريد التأكيد عليه - وهو أيضًا الأكثر حساسية وحسما- هو هذا التوتر بين التخصصات والعقل واحد. الجامعة - بهيكلها الحالي - تساهم في تعليم العقل من خلال دراسة فروع المعرفة المختلفة، أي الاختصاصات المختلفة. يتم التقاط الفرد من خلال تفضيلاته التي تحمله على تطوير حبه والتزامه على نحو معين. والواجب الذي يقع على عاتق المربي المعلم هو ألا يغلق هذا الجانب من خلال الإهدار، وإنما عليه إعادة إطلاق العملية المعرفية على أنها انفتاح على مجمل الأمور التي تبدأ من التفصيلة التالية: «إن العقل الحديث للعلم الطبيعي [...] يحمل في ذاته [...] استفهاما يتجاوزه بإمكانياته المنهجية»[٣٤].

أصبح العقل الوحيد اليوم هو العقل العلمي، ويتم تحديد نطاق تأثيره بشكل حصري مع تلك الحقيقة التي يمكن صياغتها في مصطلحات

(٣٣) بندكت السادس عشر، اجتماع مع ممثلين عن العلوم في القاعة الكبرى لجامعة ريغنسبورغ، ريغنسبورغ ، في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦.
(٣٤) المرجع السابق نفس الصفحة.

رياضية واخضاعها لبروتوكول التجربة. كل ما لا يمكن ترجمته إلى لغة رياضية ولا يخضع للبرهنة التجريبية لا يُعتبر أمرًا قابلاً للمعرفة، وإنما أمر ذاتي وحسب، حيث يمكن للجميع أن يقول ما يريده: كل يقول ما يشعر به. هذه هي عقيدة العقلانية العلمية الجامدة: «يسمح لنا اليقين المستمد من تآزر الرياضيات والتجريبية وحده بالحديث عن العلم. وما يزعم بأنه علم يجب أن يقاس بهذا المعيار»(٣٥). وقد شجب جوساني هذا أيضًا: «فقط في المجال العلمي والرياضي يمكن فهم حقيقة الشيء وتأكيده. في نوع آخر من المعرفة مثل مشكلة القدر، والمشكلة العاطفية، و المشكلة السياسية، لا يمكننا أبدًا التوصل إلى اليقين الموضوعي، أي معرفة حقيقية الأشياء»(٣٦).

لذلك، ووفقًا للاجتهاد المسبق المألوف للمعرفة والمعرفة اليقينية يجبى الحديث فقط عندما يمكننا المضي قدمًا وفقًا للطريقة العلمية، أي عندما نكون قادرين على «حساب» موضوع البحث وتطبيق العقل الحسابي فيه (المثل الأعلى للعلوم الحديثة هو العلم الديكارتي العام)(٣٧). ريضنة (القياس الكمي) الواقع على أساس «علميته»: كل ما هو غير قابل للقياس الكمي والحسابي، واختزاله إلى رياضيات، لا يمكن معرفته لهذا السبب معرفة يقينية، ولا ينتمي إلى دائرة الظواهر التي يمكن معالجتها بعقلانية. الاستخدام الوحيد للعقل المقبول والمعترف به ثقافيًّا هو العقل الرياضي

(٣٥) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣٦) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 36.

(٣٧) Cfr. in proposito E. Husserl, *La crisi delle scienze europee e la fenomenologia trascendentale. Introduzione alla filosofia fenomenologica,* il Saggiatore, Milano 1972, § 9, pp. 53ss.

التجريبي. بالنسبة لنا، في الختام، فإن «اليقين» («اليقين عقلانيًّا») يعادل: «المثبت من خلال الحساب والمؤكد من خلال التجربة».

وهكذا يتم اختزال مجال المعرفة «الأصيلة» إلى حقل صغير من الحقائق المجردة والشكلية، مع ما يترتب على ذلك من تطبيقات تقنية-علمية. ما هي نتيجة هذا التقييد غير المسبوق، لهذا المجال من العقلانية العلمية؟ هذا العقل وتلك المعرفة لم يعد لديها علاقة بالحياة، وبمسائل الحياة، وبالخبرات والتساؤلات البشرية. يفصل العقل نفسه عن الوجود. وقد وصف بندكت السادس عشر العواقب المدمرة تماما قائلا: «إذا كان العلم في مجموعه هو هذا فقط، فعندئذ يكون الإنسان نفسه هو الذي يخضع للتقليص بسببه. لأننا لن يمكن أن تجد الأسئلة البشرية الصحيحة مكانا لها، أي الأسئلة المتعلقة بـ «من أين» و«إلى أين»، وأسئلة الدين والروح، لن تجد لها مكانا في العقل العام الذي يصفه العلم على ذلك النحو الموصوف، وسوف يتوجب نقلها داخل نطاق ذاتي»[٣٨]. وحتى الآن «فالموقف العلمي - بالمعنى الصحيح للمصطلح - نعلم بالفعل أنه لا يمكن استنفاد الانتباه في التجربة. فقط «من خلال التجربة» نحن نعيش انساقا وظواهر لا تتقلص إلى المجال البيولوجي والكيميائي- الفيزيائي»[٣٩].

ولكن من قال إن العقل تتحد هويته بحركة واحدة وظاهرة واحدة فقط؟ «إن العقل أوسع من ذلك بكثير. إنه الحياة، إنها حياة تواجه

(٣٨) بندكت السادس عشر، اجتماع مع ممثلين عن العلوم في القاعة الكبرى لجامعة ريغنسبورغ، ريغنسبورغ ، في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٦.

(٣٩) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 133.

تعقيدا وتعددا في واقعها، تواجه ثراء الواقع». وهو «يحمل في طياته طرقا أو إجراءات، أو عمليات مختلفة، وفقًا لنوع الأشياء»[٤٠]. سيكون من غير العقلاني التظاهر باستخدام الأسلوب نفسه في واقع مختلف اختلافًا ظاهرًا.

هكذا يعبّر الفيزيائي العظيم إروين شرودنغر عن نفسه:

«أعتبر العلم جزءًا أساسيًّا من جهودنا للرد على هذه المشكلة الفلسفية الكبرى التي تشمل كل المشاكل الأخرى [...]: من نحن؟ وأكثر من ذلك لا أعتبر هذا أحد الأهداف وحسب، بل هو هدف العلم الوحيد الجدير بالاعتبار»[٤١]. فقط في هذا الربط لكل فرع من فروع المعرفة الإنسانية إلى مجموع الفروع، وإلى وحدة الفروع جميعا، يمكن للتخصصات المختلفة أن تنقذ العقل في طبيعته. ويشرح ادموند هسرل هذا المفهوم جيدا إذ يقول: «العلوم المجردة بالأمر الواقع تخلق بشرا مجردين بالأمر الواقع. [...] في بؤس حياتنا – فيما سمعنا – ليس لدى هذا العلم ما يقوله لنا. إنه يستثني من حيث المبدأ تحديدا تلك المشاكل التي هي الأكثر الحاحا للإنسان، الذي يشعر، في أزمنتنا المعذبة، بأنه تحت رحمة القدر ويعاني من مشاكل المعنى وعبثية الوجود الإنساني ككل. ألا تتطلب هذه المشاكل، في عموميتها وضرورتها، بالنسبة لجميع البشر، [...] حلا قائما

(٤٠) المرجع السابق ص ٢٤.

(٤١) E. Schrödinger, *Scienza e umanesimo. La fisica del nostro tempo*, G.C. Sansoni Editore، Florence 1953، pp. 60-61 .

على العقلانية؟»[٤٢]. وإلى أبعد من ذلك، يكتب هسرل دائمًا: «عند إجراء فحص دقيق، فإن هذه المشاكل، مثلها مثل كل تلك التي تم استبعادها، لديها وحدة لا يمكن الفصل بينها في هذا: بشكل صريح أو ضمني، بمعنى أنها تحتوي على مشاكل العقل - العقل في جميع أشكاله الخاصة»[٤٣].

من جانبه، يقول العالم جون بارو:

«من بين كل الأكوان الممكنة، فإن كوننا استثنائي لأنه مناسبة للحياة [...] هذه حقيقة استثنائية حقا، ويجب تفسيرها بغية تفسير وجودنا في الكون علميًّا. [...] عندما يأتي العلم ليطرح أسئلة أساسية مثل تلك المتعلقة بميلاد الكون، يطفو على السطح صدى عميق للفكر الديني»[٤٤]. وهذه النقطة حاسمة: فليس معناها أن يأخذ العلم خطوة إلى الوراء بعيدا عن الواقع أو يتخلى عن مهمته، وإنما أن يكون هو نفسه، فيخلق تناسقًا عميقًا بينه وبين الحس الديني. يبدو أن لجنة جامعة هارفارد قد التقطت هذا المعنى وهي تراجع المناهج الدراسية بعد ثلاثين عاما، من أجل اقتراح المناهج الجديدة في «العقل والإيمان»، وذلك قبل أن يغرق الطلاب في

---

(٤٢) E. Husserl, *La crisi delle scienze europee e la fenomenologia trascendentale*, op. cit., p. 35.

(٤٣) المرجع السابق ص ٣٨.

(٤٤) J. Barrow, “La vita è “impossibile” senza Dio”, intervista di Luigi Dell’Aglio, *Avvenire*, 10 ottobre 2006, p. 29. Cfr. al riguardo J. Barrow, *Impossibilità. La scienza dei limiti e i limiti della scienza, Rizzoli*, Milano 1999; Id., *Teorie del tutto. La ricerca della spiegazione ultima,* Adelphi, Milano 1992.

التخصصات الدقيقة. والهدف المعلن؟ مساعدة الطلاب على فهم تعقد العالم(٤٥).

من ناحية أخرى، تمت الإشارة إلى نفس الارتباط بين الأمرين قبل نصف قرن من قبل عالم الرياضيات الكبير فرانشيسكو سيفيري، الذي وصل تعمق في التزامه العلمي والنظري فوصل إلى أدلة كان من شأنها أن توصله إلى التحول الديني: «[كل ما أبحثه] في خدمة مطلق يطرح نفسه كعائق مرن [...] لتجاوزه بالوسائل المعرفية»(٤٦).

تفي الجامعة بمهمتها الأصلية بقدر ما تسهم في تربية العقل للانفتاح على الحقيقة بكل أشكالها، ملتزمة بتعدد الواقع من خلال تعدد الطرق المتلازمة، لا أن تتكتم في مواجهة المشكل في عمقها النهائي. ويعترف البروفيسور أوغوستو مارينيللي(٤٧) بكثير من الواقعية: «لا أعتقد أن هناك وعي في الجامعة اليوم [بأنها مكان يتعلم فيه المرء البحث عن الحقيقة]. لا أعتقد أن فيها شغف للمعرفة والبحث عن الحقيقة كنقطة تأسيسية للحياة الأكاديمية. أريد بهذا أن أقول إنني أرى الجامعة متجهة أكثر إلى أغراض تقنية وإلى تأهيل متخصص: أما المسائل الأساسية فهي تؤخذ على أنها مكتسبة، إلى حد ما. ومع ذلك، فإن الخطر يكمن في الحد من عمومية المعرفة لصالح عمومية المفاهيم، وهو ما يشكل بالفعل تحديًا

(٤٥) Cfr. J.I. Jenkins T. Burish, “Reason and Faith at Harvard”, *The Washington Post,* 23 ottobre 2006.

(٤٦) F. Severi, *Dalla scienza alla fede*, Edizioni Pro Civitate Cristiana, Assisi 1959, p. 103.

(٤٧) رئيس جامعة فلورنسا من ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٩.

ينبغي طرحه من جديد، خاصة في اللحظة الراهنة لاستعادة معنى الجامعة، بالنظر إليها في مجمل أبعادها. يمكن لمفهوم المهمة التربوية للجامعة، في الواقع، أن تكون له تداعيات مهمة ليس فقط في اختيارات الأستاذ الفرد، بل أيضًا في أولئك الذين يوجهون مؤسساتها ومقراتها الجامعية»[٤٨].

٢) والجانب الثاني الذي أريد أن أتوقف عنده هو التأكيد على أن الاستخدام الصحيح للعقل يعتبر - حسب قول البابا بندكت السادس عشر - مسئولية مشتركة. إننا جميعا نشعر، أستاذا أستاذا، بحاجة حقيقية لأن يساعد بعضنا بعضا. ولا يمكن إلا لمجتمع أكاديمي حقيقي أن يسترد كل واحد منا من تحيزه الحتمي. عندما نبذل جهدا حقيقيًّا لتوسيع العقل، لن يمثل الآخر تحدّ من بحثي، بل نعمة، لأنه يمنعني من عزل نفسي، ويدعوني باستمرار إلى نظرة منفتحة على الجميع. والجيل الجماعي بمحاولاته هو الذي يستطيع وحده أن ينقذ طبيعة العقل وحقيقة البحث. «لا يمثل البعد الجماعي إحلالا للحرية، ولا هو بديل للطاقة للقرار الفردي، بل هو شرط لتأكيدها. إذا وضعت بذرة زان على الطاولة، فلن تتطور فيها شيء حتى بعد ألف سنة (بشرط أن يبقى كل شيء كما هو). إذا أخذت هذه البذرة ووضعتها في الأرض، فإنها تصبح نباتًا. فليس الإنسان هو الذي يحل محل الطاقة غير القابلة للاختزال، ولا «الشخصية» غير القابلة للبقاء للبذرة، وإنما يعتبر الإنسان شرطا لنمو البذرة. والجماعة هي البعد والشرط حتى تعطي بذرة الإنسان ثمرتها»[٤٩].

(٤٨) A. Marinelli, “C’è un capitale umano che vuole crescere”, *Il Riformista*, 4 dicembre 2006, p. 6.

(٤٩) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., pp. 182-183.

٣) النقطة الثالثة والحاسمة – وهي في بعض جوانبها متعلقة بالنقطة الثانية – هي الحاجة إلى الشهود. إن توسيع العقل لا يحدث فقط من خلال الدفاع الشرعي عن مفهوم العقل الصحيح، ولكن أولا وأخيرا من خلال رؤية الإنسانية وهي تعيش بالفعل عقلا «موسعًا» وتعتبره من أصولها. هناك حاجة أساسية للشهود على الاستخدام الحقيقي والواسع للعقل، والذي يدعو الآخرين إلى الاستخدام نفسه ويساعدنا على مواجهة التحديات التي تضعنا «العولمة» في مواجهتها. في الواقع، كما كتبت لويزا موارو، فإن «الفكرة المعاصرة للعقل التي تم تقييدها ضمن حدود تستبعد الأسئلة الأساسية للإنسان واسم الله ذاته، أصبحت غير كافية لإجراء حوار حقيقي مع البشرية جمعاء»[٥٠]. بكلمات دانتي ، نحن بحاجة إلى تجربة العقل الذي يجعلنا نترك «الأرض التي تجعلنا شرسين للغاية»[٥١] ويعيد فتحنا على مسائل الحياة التأسيسية. هنا يبدأ البديل الحقيقي للعدمية، الذي يمكن للجامعة المساهمة فيه لجعله ممكنًا: ظهور عقل مفتوح عطش، يهدف إلى الإجابة على الأسئلة الأساسية التي يثيرها الواقع، وتثيرها الحياة[٥٢]. من خلال تعزيز التكوين العقلي، سوف تكون

(٥٠) L. Muraro, “O della necessità del ragionar di Dio”, *Tempi,* 12 ottobre 2006.

(٥١) Dante Alighieri, *Commedia. Paradiso*, canto XXII, v. 151.

(٥٢) «سياق مثل السياق الأكاديمي يدعونا بطريقته لإعادة معالجة موضوع أزمة الثقافة والهوية، التي تشكلها هذه العقود الكارثية أمام أعيننا. وتعد الجامعة من أكثر الأماكن المؤهلة لمحاولة إيجاد الطريق الصحيح للخروج من هذا الوضع. تحافظ الجامعة في الواقع على ثراء التراث الذي لا يزال حيًا على مر القرون. ففيها يمكن توضيح خصوبة الحقيقة عندما يتم تلقيها في شكلها الأصيل بروح بسيطة ومفتوحة. في الجامعة تتشكل الأجيال الجديدة، التي تتوقع طرحا جديا ملتزما وقادرا على الإجابة على السؤال الخالد عن معنى الوجود. يجب ألا يخيب هذا التوقع» (بنديكت السادس عشر، زيارة إلى جامعة لاتيران البابوية بمناسبة بداية العام الأكاديمي، ٢١ أكتوبر ٢٠٠٦).

الجامعة قادرة على تقديم مساهمة حاسمة في معظم القضايا الملتهبة في عصرنا، بدءا بالحوار بين الثقافات والتراث.

٩

الحرية هي أعظم النعم التي أنعمت بها السماء على البشر

«الحرية يا سانشو هي واحدة من أكثر النعم الثمينة التي أنعمت بها السماوات على البشر. لا تقارن بها الكنوز التي تحيط بالأرض أو تغطي البحر. من أجل الحرية، كما هو الحال من أجل الشرف، يمكن، بل ويجب، التضحية بالحياة نفسها»[١].

بالنسبة للبشر، لم تفقد الحرية هذه القيمة منذ أن كتب سيرفانتس هذه الجملة، يؤكد راتزينجر: «في وعي الإنسانية اليوم، تبدو الحرية أعلى خير، والتي تخضع لها جميع الخيرات الأخرى»[٢].

إن التشابه بين كلام سرفانتس والبابا بندكت يجب ألا يعمينا عن الاختلاف بين العصرين اللذين قيلا فيهما، فيما يتعلق بالطريقة التي

---

(١) M. de Cervantes, *Il fantastico hidalgo don Chisciotte della Mancia,* BUR, Milano 2005, p. 471.

(٢) J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza,* op. cit., p. 245.

نفهم بها الحرية ونعيشها. فإذا كانت الحرية بالنسبة لسيرفانتس هي «النعمة الثمينة التي يجب التضحية بالحياة من أجلها» فقد يصعب علينا اليوم أن نعثر على إنسان يمكن أن يضحوا بحياتهم في مسيرة الحرية. ومن ثم فهي نعمة مطلوبة ولكنها نادرة. كم عدد البشر الأحرار الذين نعرفهم؟ إننا نواجه رغبة هائلة في الحرية، ولكن في نفس الوقت ندرك عجزا عن القدرة على أن نكون أحرارًا حقًا في الواقع. يبدو الأمر كما لو أن الجميع يتطبع بما هو متوقع منه في كل الظروف: وعلى هذا فلديك وجه في العمل وآخر مع الأصدقاء وآخر في المنزل وما إلى ذلك. فأين نكون حقا أنفسنا؟ كم مرة يشعر المرء بالاختناق في الحياة اليومية، وهو لا يعرف كيف يتخلص من ذلك الاختناق، فلا يعود أمامه سوى انتظار أن تتغير الظروف أو تغير الظروف قواعد اللعبة التي هم بصددها! في النهاية، نجد أنفسنا في وضع معلق، نتوق إلى حرية لا تأتي أبدًا.

في لحظة تاريخية نتحدث فيها كثيرًا عن الحرية، نشهد على نحو مستغرب غيابها. والأسوأ من ذلك أننا صرنا نقنع بالعيش بدونها، كما قال كافكا: «نخشى من الحرية والمسئولية، ومن ثم نفضل الاختناق وراء القضبان التي بنيناها بأنفسنا»[٣].

(٣) G. Janouch, *Conversazioni con Kafka,* Guanda, Parma 1991, p. 27.

«يمكن تلخيص تاريخ القرون الأخيرة على أنه تقليص اضطرادي من الشخص إلى الفرد غير المشخصن أو إلى الحرية الشكلية، من خلال وضع الحرية الحقيقية بين قوسين»[٤]. فلنحاول أن نفهم السبب.

التقليص الحديث: الحرية باعتبارها غيابًا للروابط

تركت عبقرية يسوع صفحة لا تنسى في الموعظة الإنجيلية الشهيرة عن الابن الضال، وهي مفيدة لفهم المسار الحديث الذي جلب الحرية إلى هذه الشكلانية[٥]. ونحن جميعا نتذكرها جيدا: وَقَالَ: إِنْسَانٌ كَانَ لَهُ بْنَانِ. فَقَالَ أَصْغَرُهُمَا لأَبِيهِ: يَا أَبِي أَعْطِنِي لْقِسْمَ لّذِي يُصِيبُنِي مِنَ لْمَالِ. فَقَسَمَ لَهُمَا مَعِيشَتَهُ. وَبَعْدَ أَيّامٍ لَيْسَتْ بِكَثِيرَةٍ جَمَعَ لبْنُ لأَصْغَرُ كُلّ شَيْءٍ وَسَافَرَ إِلَى كُورَةٍ بَعِيدَةٍ»[٦].

تصف العظة بيتًا عاديًا في فلسطين في زمن يسوع: أب له ولدان. ولا تحمل العظة أية إشارات على وجود صراع بين أفراد العائلة. وحقيقة وجود الموارد التي يمكن تقسيمها تعني أنها عائلة ذات ثروة معينة. ويؤكد النص كذلك على تفاصيل أخرى: لديهم خدم، والوالد يحمل في أصبعه خاتما، ولديهم ملابس جميلة وصنادل وعجل سمين. وكلها علامات على

---

(٤) P. Gilbert, “Libertà e impegno”, *La Civiltà Cattolica*, 3505 (1996) 147, p. 22.

(٥) انظر ملخص هذه العظة في J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza,* op. cit., 251-260; P. Gilbert, “Libertà e impegno” in *La Civiltà Cattolica,* 3505 (1996) 147, p. 17-20.

(٦) لوقا ٣٢، ١١-٣٢.

هذا النوع من العائلات التي ينتمي إليها الابن الضال. كان ذلك بيته، المكان الذي كان فيه ابنًا، وبالتالي، فهو المكان الذي يحبه جدًا. والبيت هو المكان الذي يكون فيه الشخص حقًا نفسه، فلا يكون عليه فيه عبء إثبات أي شيء لأي شخص. وكان الابن الضال محبوبًا، لا لشيء إلا لكونه ابنًا. والبيت كان كل شيء فيه ملكه، والواقع فيه كان ودودا له، حيث كان يمكنه أن يسمع من والده: «كل ما لي هو لك». وكان كل شيء مرتبا لتلبية احتياجاته من خلال الألفة مع والده.

وعلى الرغم من كل هذا، فإنه لا يبدو راضيًّا ويطلب من والده جزء من ثروته والابتعاد عن المنزل. لقد غلب سحر الاستقلالية على قلبه. رغبته في الحرية تحثه على قطع الصلات الأهم لديه. ولم يبدو أنه يهتم كثيرًا بالابتعاد عن والده وبيته، عن مكان انتمائه. ربما كان كل هذا يبدو له عقبة في وجه تلهفه للحرية. كان البيت ضيقا عليه. أراد أن يحطم القيود التي تربطه بالبيت، أي بالتقاليد، ويذهب بعيدا[٧]. وبهذه الطريقة لن يعيقه شيء عن اشباع رغباته، وسوف يصبح الطريق أمامها مستويًّا ممهدًا. لقد فكر أنه بهذه الطريقة سوف يكون قادرا على الوصول إلى ذروة الحرية التي لم يسبق له الوصول إليها من قبل.

---

(٧) في العقلية المهيمنة تظهر «التقاليد، باعتبارها سلطة في حد ذاتها وباعتبارها القطب المقابل للحرية. وتتعزز السمة الفوضوية للرغبة في الحرية، لأن الأشكال المنظمة لحرية المجتمع لا ترضيه. لم يتم الوفاء بالوعود العظيمة لبدايات العصر الحديث، ولكن سحرها لم يتغير. لم يعد من الممكن الدفاع عن شكل الحرية المنظم ديمقراطيا بمجرد أي إصلاح للقانون. فالمسألة تمس الأسس نفسها. وهي تمس الإنسان وسبب وجوده وكيف يمكن أن يعيش فردا في جماعة». (J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza,* op. cit., pp. 258-259)

ما الذي يمكن أن يدفع الابن إلى خيار راديكالي إلى هذا الحد؟ ربما كان قد جذبته شهرة مدن مثل الإسكندرية أو أنطاكية أو أفسس أو كورنثوس، التي ظهرت مليئة بوعود الحرية لشاب ميسور الحال مثله. ولكن هذا المنظور قد تأصل في الواقع حتى قبل ذلك، عندما استسلم لسحر الاستقلالية، الذي تسلل إلى قلبه. لم يستطع مقاومة الإغراء المتمثل في القدرة على الاعتماد على نفسه، من دون أب أو بيت أو انتماء حقيقي.

ولكن الواقع سرعان ما أوقظه من الحلم. فلم يجد الصبي شيئًا يتناسب مع رغباته، ولا شيء يرضيه الفوز به. فقد مر كل شيء دون أن يترك أثرًا. ليست هناك رابطة ولا قصة مع أحد. وبدأ غياب القيود يكشف عن وجهه الحقيقي: الوحدة. «وَهُنَاكَ بَذَّرَ مَالَهُ بِعَيْشٍ مُسْرِفٍ. فَلَمَّا أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ، حَدَثَ جُوعٌ شَدِيدٌ فِي تِلْكَ لْكُورَةِ، فَـبْتَدَأَ يَحْتَاجُ. (١٤) بدأ يدرك أن الاستقلالية كانت مجرد وهم.

لكن الأسوأ لم يأت بعد. فَمَضَى وَلْتَصَقَ بِوَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ لْكُورَةِ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى حُقُولِهِ لِيَرْعَى خَنَازِيرَ. وَكَانَ يَشْتَهِي أَنْ يَمْلأَ بَطْنَهُ مِنَ لْخُرْنُوبِ لَّذِي كَانَتِ لْخَنَازِيرُ تَأْكُلُهُ، فَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدٌ. «(١٥-١٦). وها هي نهاية مغامرة استقلاليته(٨): بدون أب، مع سيد ؛ أما بيته فهو بيت الخنازير. أين ذهب

(٨) وفقا لراتزينجر يمثل سارتر شعارا لهذا الموقف: «يرى سارتر حرية الإنسان عقوبة له [...]. الإنسان ليس لديه أية طبيعة، إلا الحرية. عليه أن يعيش حياته في مكان ما، لكنه في جميع الأحوال ينتهي به الأمر إلى الفراغ. هذه الحرية الخالية من المعنى هي جحيم الإنسان [...]. إن الحرية الفوضوية تمامًا باعتبارها محددًا أساسيًّا للإنسان، بالنسبة لمن يحاول أن يعيشها، لا تكشف نفسها باعتبارها التجسيد الأعلى للوجود، بل تكفيرا للحياة، وفراغا مطلقا، وتعريفا للضياع. في استقراء المفهوم الراديكالي للحرية، الذي كان بالنسبة لسارتر نفسه تجربة حياة، أصبح من الواضح أن التحرر من الحقيقة لا تنتج عنه حرية مجردة، بل يزيلها. فالحرية الفوضوية، إذا اتخذت شكلا جذريا، لا تسترد الإنسان، ولكنها تجعله مخلوقًا =

الوعد بالحرية؟ عانى من الجوع ولم يستطع أن يشبع حتى بالخرنوب الذي تأكله الخنازير، لأن أحدا لم يعطه منه شيئا. وأصبح الملل رفيقه(٩). ومصيره لم يعد يهم أحدا(١٠). هذا هو ما تحقق من تحطيم الصلات حتى الصلة مع الواقع الذي أصبح قاسيًّا غريبًا. من ناحية أخرى، يوثّق الابن الأكبر أن تجربة الحرية لم تكن أبدًا آليه، ولا هي مضمونة ظاهريًّا. ولهذا فهو يظل في البيت مع والده، وكل ما في البيت ملكه. ورغم أنه لم يتكون لديه وعي بما أعطي له، إلا أنه أحس بخبرة الحرية. ويتجلى هذا من خلال رد فعله على عفو والده عند عودة أخيه. يغضب، ولا يريد أن يشارك في الحفل، ويعاتب والده: «هَا أَنَا أَخْدِمُكَ سِنِينَ هَذَا عَدَدُهَا، وَقَطُّ لَمْ أَتَجَاوَزْ وَصِيَّتَكَ، وَجَدْيًا لَمْ تُعْطِنِي قَطُّ لِأَفْرَحَ مَعَ أَصْدِقَائِي. وَلَكِنْ لَمَّا جَاءَ بْنُكَ هَذَا لَّذِي أَكَلَ مَعِيشَتَكَ مَعَ لزَّوَانِي، ذَبَحْتَ لَهُ لْعِجْلَ لْمُسَمَّنَ! (٢٩-٣٠). يمكنك إذن العيش في البيت كخدم، دون وعي بهيج بأنك ابن. فَقَالَ لَهُ: فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ أَنْتَ مَعِي فِي كُلِّ حِينٍ، وَكُلُّ مَا لِي فَهُوَ لَكَ. (٣١) من الحرية، لم يحتفظ الابن البكر إلا بالاسم فقط. هذه هي الشكلانية.

= فاشلاً، وكائنا لا معنى له» (J. Ratzinger, *Fede, Verità, Tolleranza,* op. cit., pp. 259-260).

(٩) نفس الملل الذي أدانه دوستويفسكي في روايته «الشياطين»: «لقد سئمنا من التسليات العادية، فلا داعي لأن نشغل أنفسنا بهذه التسلية الجديدة، إلا أن تكون شائقة» أمام مشهد انتحار شاب. وسأل واحد من الحاضرين: «لماذا يرمي الناس أنفسهم بالرصاص أو يشنقون أنفسهم في بلادنا كثيرا، كأنهم لا جذور لهم، وكأنما تختفي الأرض من تحت أقدامهم». (op. cit., vol. I, pp. 346, 348)

(١٠) كما كتب هيشيل، «يصبح الإنسان ماسخا أكثر فأكثر، مستهلكًا، غير ذي أهمية في نظره هو نفسه. وبدلاً من ذلك، وبدون الشعور بالدلالة المطلقة والقيمة النهائية لوجودنا، تصبح الحرية تعبيرًا فارغًا» (A.J. Heschel، Song of Freedom، Qiqajon، Magnano [BI] 1999، p. 55).

تحت الأنقاض، في حالة الإبن الصغير، هناك شيء ظل حيًّا: قلبه. لا يمكن لجميع الكوارث التي وقعنت أن تبعد حنين الحرية من قلبه: فَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ (أي إلى قلبه) وَقَالَ: كَمْ مِنْ أَجِيرٍ لأَبِي يَفْضُلُ عَنْهُ الْخُبْزُ وَأَنَا أَهْلِكُ جُوعًا! (١٦). استنفد طاقته، ولم يعد الاستغناء عن الرغبة في الحرية، ومعها من جعلها ممكنة، أبوه. وقرر بسرعة: «أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي وَأَقُولُ لَهُ: يَا أَبِي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا. اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ. فَقَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ» (الآيات ١٨-٢٠). إنها ذاكرة الأب الذي تحتفظ بالحنين للحرية يقظا. مع قرار العودة، يدرك أن الحرية الحقيقية الوحيدة هي البنوة: ألا يعيش يتيما على الرغم من كونه ابنا، بل أن يعيش وهو يحتضن بوعي صفة البنوة، بصفة العلاقة مع أبيه.

هذا ممكن دائمًا بالنسبة لنا الآن، لأن هناك دائمًا أب ينتظرنا: «وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيدًا رَآهُ أَبُوهُ، فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ» (آية ١٧).

مهما كانت الحالة التي نعيش فيها، فإن كلا منا يدعى للحرية، لأن يعترف بها كأغلى نعمة وهبتها السماء للإنسان. يمكن أن يكون المسار مضطربًا، ولكنه دائمًا ممكن. كيف؟

ما هي الحرية؟

الشعور بالحرية: ظاهرة الإشباع

«كيف نعرف ما هي الحرية؟ الكلمات هي علامات يحدد فيها الإنسان تجربة معينة: كلمة الحب تحدد تجربة معينة، وكلمة الحرية تحدد تجربة معينة».[١١] إن نقطة البداية لإدراك معنى كلمات الحياة الأكثر أهمية هي النظر إلى التجربة، كما كان الأب جوساني يعلمنا دوما.

لونظرنا إلى أنفسنا بصدق، فمتى نشعر أننا أحرار؟ دعونا نتخيل أن فتاة علمت أن أصدقاءها يعقدون حفلا فبزغت في نفسها رغبة لا تقاوم في الذهاب إليه. تذهب إلى والدها الذي يرفض على نحو مدهش وعلى النقيض من عاداته. إن ضيق الفتاة وغضبها يصبحان علامة لا لبس فيها على أنها لا تشعر بالحرية. ولا تشعر بالحرية إلا عندما يوافق والدها، بعد حوار ساخن، على السماح لها بالذهاب.

نشعر بالحرية عندما نرى رغبة تتحقق. الحرية تعلن نفسها كتجربة من حيث أنها أشبعت رغبة. إنها الحقيقة التي تختفي وراء الانطباع الفوري الغريزي بأن لدينا جميعًا حرية تعبر عن نفسها في جملة بسيطة: «كونك حرًا يعني أن تفعل ما يحلو لك وتحبه».

(١١) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 119. Cfr. anche R. *Guardini, Persona e libertà,* op. cit., pp. 57-58: «الحرية ليست (مشكلة) على الإطلاق، ولكنها أمر واقع. إن الوعي بالحرية ليس نتيجة للبرهنة عليها، بل هو محتوى فوري للتجربة».

الحرية هي قدرة على الإشباع التام

ولكن من الصحيح أيضًا أننا لا نكتفي بلحظة من الرضا، لحظة من الحرية. نريد أن نكون أحرارا دائما، وليس فقط في بعض الأحيان: نريد أن نكون أحرارًا تمامًا. لذلك، «باتباع ما تشير إليه التجربة، من الواضح أن الحرية تطرح نفسها لنا كإشباع كامل، تحقق كامل للأنا، للشخصية، أو باعتبارها اكتمالا. هذا يعني أن الحرية هي قدرة الغاية، والقدرة الكلية، وهي قدرة السعادة»[١٢]. الحرية بالنسبة للإنسان هي إمكانية تحقيق ذاته ومسئوليته عن ذلك. وانطلاقا من التجارب المحددة والخاصة جدا للإشباع والرضا، فإن الحرية تكشف عن نفسه كقدرة على الإشباع الكامل، التام، أي الكمال والاكتمال، تحقق الذات، وتحقيق رغبة الإنسان.

لانهائية الرغبة

والآن، كلما حققنا رغباتنا المباشرة والجزئية كلما ظهر على السطح عمق رغبتنا الأصلية. عندما كنا أطفالا كنا نرضى بقطع الحلوى. اليوم لم يعد الأمر كذلك. تجربتنا – إذا كان المرء ينتبه لمعناها، ويخلص لما يظهر منها – تجعلنا نكتشف الطبيعة الحقيقية لرغبتنا: أنها لا تنضب.

لقد شهدنا جميعًا أن الحياة لا تعاقبنا دائمًا، بما يمنعنا من تحقيق رغبتنا. في العديد من المناسبات ننجح في القيام بما نرغب فيه، لكن هذا لا يرضينا بشكل قاطع. بعد فترة، نبدأ من جديد. لهذا السبب كنت أعتقد

(١٢) L. Giussani, *Il senso religioso,* op. cit., p. 120.

في كثير من الأحيان أن المرء يبدأ في إدراك دراما الحياة، ليس عندما لا تجيب الحياة على الرغبة، بل عندما تجيب عليها. عندما لا تجيب الحياة يظل بوسع المرء انتظار المناسبة التي تجيب فيها بالإيجاب: تبدأ الدراما عندما تجيب الحياة بنعم، فهذا قد لا يكفي. عندما يقوم إنسان بهذه التجربة في علاقات العمل، أو مع زوجته، أو في مواجهة وقائع الحياة، ينتهي به الأمر إلى التساؤل: ولكن ما الذي يكفي حقًا؟ «Quid animo satis؟»(١٣).

في برشلونة كان لدي صديقة ترسم. وكان حلمها إقامة معرض كبير. وأخيرا قبل بضع سنوات نجحت مقاصدها. النتيجة، كما أخبرتني، تجاوزت كل التوقعات. لذا لم أستطع أن أصدقها عندما أخبرتني أنها قضت يوم النجاح العظيم كله في البكاء. لماذا يبكي المرء بعد النجاح؟ ألم يكن صديقتي طبيعية؟ هل لديها أية مشاكل؟ لا، كانت لديها نفس خبرة بافيزي عندما حصل على جائزة ستريجا: «في روما، تأليه. وبهذا؟»(١٤). لماذا لم يكن المعرض الكبير كافيًا أو كانت جائزة ستريجا كافية؟ لماذا لا نشعر بالرضا التام بعد تحقيق النجاح؟ ما الذي يرضينا، إذن؟

ما الذي يعلمنا عدم الرضا الذي يأتي بعد النجاح عن طبيعة الرغبة وعن طبيعة الإنسان؟ وكما أدرك بافيزي بعمق، فإنه يضع أمامنا «لا نهائية» رغبتنا. هذه هي الخاصية الفريدة للإنسان: رغبته أكبر من «الكون

(١٣) «ما الذي يكفي للنفس؟» (san Francesco d'Assisi, *I fioretti di san Francesco*, SEI, Torino 1991, cap. VIII). Cfr. A. Gemelli, *Il Francescanesimo*, Edizioni O.R., Milano 1932, cap. XIII.

(١٤) C. Pavese, *Il mestiere di vivere*, op. cit., p. 360.

اللامتناهي»، إذا استخدمنا كلمات ليوباردي. وبسبب اتساع رغبتنا قد «نتهم الأشياء بعدم الكفاية وأنها والعدم سواء، وأن نعاني من النقص والفراغ، حتى الملل»[١٥]. ولكن مصائب الحياة عند قوم - أي الشعور بعدم كفاية كل شيء، والمعاناة من الخسارة والفراغ- هي عند ليوباردي أكبر مؤشر على عظمة الطبيعة البشرية. يمكننا أن نلوم هذا القصور على وجه التحديد لأننا، من الناحية الهيكلية، لدينا في داخلنا معيار الحكم: رغبتنا اللانهائية، أو ما يسميه الإنجيل «القلب». إذا لم يكن هذا المعيار جوهريًّا، وإذا لم تكن لدينا إمكانية الحكم على أنفسنا بما يتوافق معه ويقع تحت سلطته، فإن التأكيد على كرامة الإنسان لن يكون إلا كلمة فارغة، وسوف يعتمد الإنسان أساسا على السلطة.

كيف نوقظ رغبتنا الأصلية هذه؟ إنه سؤال حاسم اليوم، في عصر لا يمكن فيه اعتبار رغبة بعينها أمرا مسلما به، لأنها تتعرض لتهديد مستمر من قبل الضغط العدمي للسياق.

مسار الحرية

مهما كان الوضع الذي نجد أنفسنا فيه، فإن الواقع يواصل بلا هوادة التلاقي معنا، مثيرا فينا الدهشة، أي الفضول والرغبة. دائمًا ما يكون الارتطام بالواقع هو الذي ينشط إنسانيتنا بكل أبعادها وقدراتها: «إن القدرات الموجودة فينا لم تخلق من تلقاء نفسها، وهي أيضًا لا تترجم

(١٥) G. Leopardi, «Pensieri», LXVIII, in *Poesie e prose*, op. cit., vol. II, p. 321.

نفسها إلى أعمال بمفردها. إنها تشبه الماكينة، فبالإضافة إلى كونها مبنية من قبل الآخرين، فهي تحتاج أيضًا إلى آخر لتشغيلها. وكل قدرة بشرية، قولا واحدا، يجب أن تستثار وتستفز حتى تتحرك»(١٦). وما يحرك الذات البشرية - الرغبة، والعقل، والحرية - هو الارتطام بالواقع.

ومن ثم هذا هو ما يؤثر فينا ويوقظ الرغبة، لأنه يظهر محملا بالجاذبية. وبعيدا عن البقاء غير مبالين، فنحن من الأصل منجذبين إلى الجمال - ومن الخير - الواقعي. في اللقاء مع الواقع الجذاب، تتحرك الحرية. في هذا اللقاء بالواقع، والذي يحدث دون انقطاع - لأنه لا يمكن لأحد

التفكير خارج الواقع - والذي يجذبنا، تصبح الحرية على المحك منذ البداية. كيف؟ بالاستجابة. إن الحرية مدعوة هنا لاتخاذ الخطوة الأولى في رحلتها: أن تقرر ما إذا كانت ستستسلم إلى جاذبية الواقع الماثل أمامها أم لا. يلعب عدم حيادية الحرية هذا دورًا حاسمًا في البدائل حول المعنى النهائي للواقع، لأن وضع الحرية يؤثر شرطيًّا على اكتشاف المعنى الذي قد يذهب إليه العقل. فمن يرفض الجاذبية التي يمارسها عليه الواقع يمنع في الواقع أحد المعطيات ومن ثم يصبح أقل عقلانية ممن يقبل بها(١٧). هذا يسلط الضوء على الجانب الأول من الحيازة الذاتية التي تميز الحرية(١٨).

(١٦) L. Giussani, *Il senso di Dio e l'uomo moderno,* BUR, Milano 1994, p. 19.

(١٧) لذلك أصّر مجلس الفاتيكان الثاني على أن الموقف الذي يؤدي إلى الإلحاد لا يكون أبدًا أصليًّا ولكنه ثانوي .(*Gaudium et Spes*، 19-20) لا يولد أحد في الأصل ملحدًا، يجب أن يصبح كذلك، مما يلغي بعض عوامل خبرته الإنسانية. إنه لا يفقد حريته، على الرغم من أن المجلس نفسه يعاير بعناية الكثير من العوامل الأخرى التي يمكن أن تقود الإنسان إلى عدم معرفة كيفية الاعتراف بالواقع في حياته كعلامة تجتذب السر الأعظم وتنفتح عليه.

(١٨) يلاحظ رومانو غوارديني: «أنا حر عندما أحاول أن أنتمي إلى نفسي. عندما أشعر بأنني أعمل اعتمادا على نفسي، وأن العمل لا يمر من خلالي وبالتالي ينتمي إلى حالة أخرى، =

بغض النظر عن مدى قوة جاذبية الواقع، فإنه لا يلغي القدرة على اختيار الحرية. بل إنها على العكس من ذلك تحرك هذا الاختيار. إن جاذبية الوجود كلها لا تغني الإنسان عن مسئولية اتخاذ القرار، بل على العكس تستنفره على ذلك. فعلى أي أساس نستجيب أو نمتنع عن تلبية النداء القادم من الواقع؟ على أساس التطابق الذي يحققه مع احتياجات القلب. ردة الفعل التي تتولد داخلي في مواجهة الوجود تمثل أول أحكامي التي أتحرك على أساسها. عندما أكون أمام الجبال أندهش وأقول:

«كم هي جميلة!» أقوم بصياغة حكم على تلك الجبال، كما هو الحال عندما أصيح بألم في وجه المعاناة التي لحقت بي أو بالآخرين بطريقة غير عادلة. وما الحكم الذي أدرك فيه أن شيئًا يتوافق معي أو لا، إلا الحكم الذي يعد ويوجه اختيار الحرية[١٩]. دعونا نسأل أنفسنا الآن: ما المحك في الاختيار،

= لكنه ينشأ في داخلي، وبالتالي فهو خاص بي بهذا المعنى وثيق الصلة به والذي أحقق فيه ذاتي». الشخص و *(Persona e libertà,* op.cit.، p.101). عن «حقيقة» الحرية الأصلية، cfr. C. Fabro, *Il libro dell'esistenza e della libertà vagabonda*, Piemme 2000, p. 282: «اليقين الوجودي الأول هو الحرية» ؛ أو H. Bergson: «الحرية إذن هي حقيقة، من بين الحقائق الواضحة، بل ليس هناك ما هو أكثر وضوحا منها» (*Saggio sui dati immediati della coscienza,* Boringhieri, Torino 1964, p. 215). Cfr. anche H.U. von Balthasar, *Teodrammatica. II. Le persone del dramma: L'uomo in Dio,* Jaca Book, Milano 1982, pp. 183-316, e A. Bausola, *Libertà e responsabilità*, Vita e Pensiero, Milano 1995, pp. 9-82.

(١٩) يُعد ضعف الحكم أحد أكثر الدلائل وضوحًا على هشاشة الأنا التي تحدثنا عنها. برنانوس يكتب عن ذلك ويقول: «إذا سألتني ما هو أكثر الأعراض العامة لهذه الأنيميا الروحية [في أوروبا]، فأنا أجيب بكل ثقة: اللامبالاة تجاه الحقيقة وتجاه الأكاذيب. اليوم، تعرض الدعاية ما تريد، والناس يقبلون تقريبا بما هو معروض. وبطبيعة الحال، فإن هذه اللامبالاة تحجب تعب وإحباط القدرة على الحكم. ولكن لا يمكن أن تتم ممارسة القدرة على الحكم دون التزام داخلي معين. من يصدر حكما يلزم نفسه به. والإنسان العصري يعد يلزم نفسه لأنه لم يعد لديه شيء يلتزم به. [...] والإنسان العصري قادر دائما على الحكم، =

في كل اختيار؟ أخذ ما ظاهر ونعتبره خيرا. أي الاختيار حسب الاكتمال والغاية. لماذا أريد أن تكون لدي القدرة على الاختيار؟ لكي آخذ ما يؤثر في ويجذبني.

يقول خوان رامون خيمينيز إن حريتي تتمثل في أخذ ما يبدو أفضل لي وللآخرين من الحياة[٢٠]. تريد الفتاة أن تمتلك القدرة على اختيار الذهاب إلى الحفلة، لأخذ ما تلمح فيه خيرا لها. في هذا الأختيار بالتحديد تجد إشباعا لرغبتها، ومن ثم هي تشعر بالحرية.

القدرة على الاختيار هي خاصية للحرية وهي لا تزال في طريقها إلى الإدراك الكامل، الذي يتألف من التمسك بما يوافق القلب، أي بالخير، بالمصير. إن التوقف عند الجانب الأول فقط - إمكانية الاختيار - هو في الواقع تخلي عن تحقيق الحرية، لأنني أمارس قدرتي على الاختيار لكي أحصل على ما أريده، لإلزام نفسي بما يحققني، إلى اللانهائي الذي أبحث عنه في الملذات، إلى «أنت» الذي أوجدتني، وإلى «هو» الذي أستطيع أن أقول له: «حقيقتي هي أنت، و»أنا» الخاصة بي هي أنت، أنا هو أنت الذي خلقتني». وفي هذا الاستمساك بما يوافقني تتحقق حريتي، وتعثر الرغبة على ما يرضيها.

= لأنه دائما قادر على التفكير. لكن قدرته على الحكم لم تعد تعمل، مثل محرك بدون بنزين. لا توجد قطعة تالفة في المحرك؛ ولكن لا يوجد احتياطي من الوقود. بالنسبة للكثيرين، هذا اللامبالاة تجاه الحقيقة والأكاذيب أكثر هزلية من كونها مأساوية. ولكنني أجدها مأساوية. فهي تنطوي على إتاحة رهيبة ليس فقط للروح، ولكن للشخص كله، بما في ذلك بدنه. من كان مفتوحا بلا مبالاة على الحقيقة والباطل فهو ناضج لحالة من الاستبداد. إن الشغف بالحقيقة يسير جنبًا إلى جنب مع الشغف بالحرية» (*Rivoluzione e libertà*, Borla, Torino 1963, pp. 49-50).

(٢٠) Cfr. J.R. Jiménez, *Alerta*, Universidad de Salamanca, Salamanca 1983.

العلاقة مع السر الأعظم، أساس حرية الإنسان

كيف يمكن الحديث عن الحرية؟ الإنسان- كل إنسان - لم يكن موجودا من قبل وفي لحظة ما بدا أنه خرج من رحم الكون والتاريخ ثم يعود إليهما لكي يمتصاه من جديد. ولكن إذا كان الإنسان قد ولد بكامله من بيولوجيًّا الأب والأم، إذا كان يمكن إرجاعه بالكامل إلى واقع أصبح يستضيفه، سيكون من المستحيل إعطاء معنى كامل لكلمة الحرية، لتبرير تلك الحرية التي تفرض نفسها أمرا واقعا.

«في حالة واحدة فقط، أي في المرحلة التي يكون فيها الإنسان مفردا، متحررا من العالم كله، يكون حرا، والعالم كله لا يستطيع إجباره، والكون كله لا يستطيع إجباره، في حالة واحدة فقط يمكن تفسير صورة الإنسان الحر، إذا تم افتراض أنه لم يولد من بيولوجيًّا الأب والأم، ولكنه يمتلك شيئا ليس موجودا في التراث البيولوجي لأسلافه المباشرين، وإنما له علاقة مباشرة باللانهائي، علاقة مباشرة بالأصل الذي تدفق منه العالم [...] أي من الله»[٢١].

بهذا المعنى، يؤكد التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية على أن الروح مغروسة في الجسم مباشرة بواسطة الله. «هناك مقايضة في داخلي لا تنبع من أي

(٢١) L. Giussani, *Il senso religioso,* op. cit., p. 124.

عامل من عوامل الظاهراتية القابلة للتجريب [...]، إنه اعتماد مباشر على اللانهائي، على ما يفعله العالم بأسره»[٢٢]. هذه هي الحقيقة الكبرى في العقيدة المسيحية الخاصة بالخلق. حقيقة أننا خلقنا على صورة الله ومثاله تعني أننا مدعوون إلى علاقة فريدة ومباشرة معه. الدعوة للحياة هي هذه العلاقة. نحن مدعوون إلى الله، إلى السعادة الكاملة، وليس إلى أي شيء آخر. الإنسان هو قدرة الله.

أن توجد هذه العلاقة المباشرة مع اللانهائي بداخلي هو ما يمنع الإنسان من أن يختصر إلى أسلافه البيولوجيين والسيكولوجيين والسوسيولوجيين وما إلى ذلك. إن أي محاولة لاختصار الأنا إلى أحد تلك العوامل سوف تفشل لا محالة. من المؤكد أن هذه العوامل تؤثر علي، ولكنها لا تحدد مصيري، ولا تقرر من أكون أنا. لا يمكن أبدا اختزال الإنسان إلى جزء من الظروف الداخلية أو الخارجية. يمكن للأنا أن تظهر دائما فوق الظروف، أو فوق مشاعرها أو فوق مزاجها.

وبطريقتها خاصة ، أكدت أرندت على ما قيل: «فقط لأنني لم أخلق من تلقاء نفسي فأنا حرة؛ لأنني لو كنت قد خلقت نفسي، لكنت أصبحت قادرا على توقع ما أفعله، ومن ثم أفقد حريتي»[٢٣]. نحن علاقة مباشرة لا تختزل مع اللانهائي. هذا هو السبب النهائي لعظمة الإنسان.

(٢٢) المرجع السابق ص ١٢٥.

(٢٣) H. Arendt, *Che cos'è la filosofia dell'esistenza?*, Jaca Book, Milano 1998, p. 75. «ويتحول الأمر – سواء كان واقع العالم أو عدم القدرة على التنبؤ بالإنسان الآخر أو حقيقة أنني لم أخلق بنفسي – إلى خلفية تتشكل عليها حرية الإنسان، أي [تتشكل] المادة التي تشعل هذه الحرية. إن انتصار الواقع الممكن هو أنني لا أستطيع تقليص الواقع إلى أمر نظري يمكن فقط التفكير فيه». (المرجع نفسه).

وهي العظمة التي تخيفنا أحيانا. لذلك نحن بحاجة إلى انفتاح صادق وولاء شجاع للاعتراف بالعلاقة مع اللانهائي وقبوله، والذي يتم التعبير عنه في رغبتنا التي تؤسس لحريتنا. الحرية معرضة للخطر اليوم، والقليلون هم الذين يأخذونها على محمل الجد ويحبونها. «إن أسوأ تهديد للحرية ليست في السماح بزوالها- لأن من تزول منه حريته يستطيع أن يستعيدها- ولكن في إخفاء حبنا لها»[٢٤]. لأنه كما يقول الشاعر الاسباني رافائيل البرتي، «الحرية لا يحظى بها من ليس لديه عطش لها». وهذا هو ما يدينه ماريا زمبرانو: «يجد الإنسان نفسه من جديد مقيدا بالحاجة، ولكنه الآن قيد نفسه بقراره وباسم الحرية، لقد تخلي عن الحب لصالح ممارسة وظيفة عضوية، واستبدل آلامه بمجموعة من العقد النفسية، لأنه لا يريد أن يقبل الميراث الإلهي، إذ يعتقد أنه بهذا يحرر نفسه من المعاناة، من الألم الذي يعانيه كل شيء إلهي بيننا وداخلنا»[٢٥]. على العكس تتكون الحرية على وجه التحديد من قبول هذا «الميراث الإلهي». في المقام الأول، لأن السر الإلهي وحده هو الذي يستطيع أن يؤسس لعدم القابلية للاختزال

(٢٤) G. Bernanos, *Rivoluzione e libertà*, op. cit., p. 16.

(٢٥) M. Zambrano, *L'uomo e il divino*, Ed. Lavoro, Roma 2001, p. 236. من المثير للإعجاب، في هذا الصدد، ما كتبه فاسيلي جروسمان، وهو رجل عانى مما لا يمكن وصفه من أجل الحرية: «الحياة هي الحرية، وبالتالي فإن الموت هو الإبادة التدريجية للحرية؛ في البداية يتباطئ الوعي ثم يخفت؛ عمليات الحياة في الكائن الحي الذي خفت وعيه يستمر في الحياة لبعض الوقت، حيث تستمر الدورة الدموية، والتنفس، والتمثيل الغذائي. ولكن ذلك لا يعدو كونه انسحاب تجاه العبودية، ينطفئ الوعي وتنطفيء نار الحرية. تتسم الحرية بعدم التكرارية [...] لكل حياة. إن انعكاس الكون على وعي الإنسان هو أساس القوة البشرية، ولكن الحياة تتحول إلى سعادة، وحرية، وقيمة عليا، فقط إذا كان الإنسان موجودًا كعالم، وشخصًا لا يمكن أن يتكرر ولا يمكن لأحد أن يكرره [...]. في هذه الحالة فقط يمكن أن نختبر سعادة الحرية، عندما ندرك في الآخرين ما عرفناه في أنفسنا» (*Vita e destino*, Jaca Book, Milano 1984, p. 551).

في جميع الظروف، وبدونها لا توجد حرية. وفي المقام الثاني لأن السر اللانهائي وحده هو الذي يمكن أن يكون الغرض المناسب لحريتي، أي إشباع رغبتي بالكامل. الحرية النهائية باعتبارها القدرة على الإشباع التام، لا يمكن أن تتم إلا داخل الحرية اللانهائية.

لذلك فالحرية هي التصاق بالوجود، بالسر الأعظم الذي خلقنا، بك أنت الحقيقي وصاحب السر الذي خلقت منه في هذه اللحظة بعينها. أكون حرا عندما أقبل الآب، مثل الابن الضال. ربما كنا، مثله، في حاجة إلى مغادرة البيت لنشعر بالحنين عندما نفقد كل شيء. وهكذا اكتشفنا الخير في أن يكون لنا أب، وأن الاعتراف به لا يحمل أية خطورة على حريتنا، بل على العكس يجعلها ممكنة(٢٦).

السر الذي خلقنا فيه رائحة مقاومتنا لهذا الاستسلام في حضن الأب، كما يقول بيجوي متخيلا الله وهو يتفكر في خلقه: «أعرف الإنسان جيدا. فأنا الذي صنعته. إنه كائن غريب./ ففيه تلعب تلك الحرية التي هي سر الأسرار./ لا يزال بالإمكان أن تطلب منه الكثير. فهو ليس سيئا أكثر من اللازم./ [...]/ ولكن ما لا ليس بالإمكان أن تطلبه منه، أيها الإله الطيب، هو القليل من الأمل،/ قليل من الثقة، باختصار، قليل من

(٢٦) يلاحظ بنديكت السادس عشر: «أفكر في الابن الضال الذي اعتبر حياته في بيت أبيه مملة: «أريد أن أعيش الحياة بكل أبعادها، أن استمتع بها بالكامل!». ثم يدرك أن حياته فارغة وأنه في الواقع كان حرًا وعظيمًا عندما كان يعيش في بيت أبيه!» (Benedetto XVI, *Intervista alla Radio Vaticana*, a cura di padre Eberhard von Gemmingen, 15 agosto 2005).

الاسترخاء،/ قليل من القبول، قليل من الاستسلام بين يدي،/ قليلا من التسليم. فهو دائم التشدد»[٢٧].

لكن رفض اللانهائي لا يحدث بدون عواقب على الحرية. مثل هذا الرفض يجعل الحرية دون غرض مناسب. من خلال عدم التمسك بالسر الأعظم اللانهائي يبقى الإنسان تحت رحمة جميع قوى السلطة في الميدان وتحت أي ظرف من الظروف. بدون الاعتراف بالسر الأعظم كجذر وتحقيق كامل لكل رغبة وجاذبية جزئية، فإن الحرية ليست سوى وهم. إذا كانت الحرية هي تجربة الأشباع، يمكننا التحقق من حالة حريتنا بواسطة التحقق من درجة الرضا الحقيقي الذي نعيشه في العلاقة مع الناس والأشياء. يمكننا أن نفعل ما نريده ونحبه، ولكن لا يمكننا الهروب من هذا التحقق: كم عدد المرات التي نعيش فيها في يوم من الأيام تجربة حقيقية للحرية، هي الامتلاء، الرضا، في كل التفاصيل، فيما يطرأ من اختيارات يومية، في التمسك بالمتع والجاذبيات الجزئية؟ ما هو السائد عادة هو الاختناق، والشعور بالضيق في كل مكان، في انتظار الهروب لا غير. كم فروا في الخيال حتى يتحملوا «العدم والخواء»! «من دون الاعتراف بالسر الأعظم الموجود، يتقدم الليل ، ويعلو التشويش، وعلى هذا النحو، على مستوى الحرية - يتقدم التمرد، أو تملأ خيبة الأمل بدرجة يبدو معها وكأننا لم نعد ننتظر شيئا، ونعيش دون أن نرغب في شيء، إلا الإشباع السطحي أو الاستجابة السطحية لمطلب صغير»[٢٨].

(٢٧) Ch. Péguy, "Il mistero dei santi innocenti", in *Lui è qui*, BUR, Milano 2009, p. 348.

(٢٨) L. Giussani, *Tutta la terra desidera il Tuo volto*, op. cit., p. 116.

ولكن الإنسان يصبح حرا من خلال التمسك بالسر الأعظم في كل شيء. وهناك يمكنه أن يعثر على الإشباع التام لرغبته. إن عظمتنا، كما ذكرنا ليوباردي، في شعورنا بالرغبة في اللانهائي تهتز داخلنا. لكن وعينا بطبيعة رغبتنا يعني أننا نفهم عدم قدرتنا على الاستجابة لها. كما يتلقى الإنسان الرغبة في مجموعها، يجب أيضًا يتلقى إشباعا لهذه الرغبة. والإشباع موجود، وهذا الإشباع هو نفسه من أوقظ عمق رغبتنا الأصلية. لكن الإنسان لا يجب أن يتشدد، بل أن يترك نفسه له. دون هذا التسليم للواحد القادر على ملء الرغبة وإنجاز الحرية تفسد الرغبة وتبقى الحرية ضالة، دون أن يكون لها غرض محدد.

لا يحررنا من النزوات إلا العلاقة المعترف بها والحياة مع ما يرضينا - أي تقليص الرغبة إلى شيء في متناول اليد- بما يجعلنا متماسكين في أي ظرف من الظروف ولا يخضعنا لأية سلطة. لذلك، يكتب الأب جوساني، «التدين المسيحي يظهر باعتباره الشرط الوحيد للإنسانية. اختيار الإنسان هو: إما أن يتصور نفسه متحررا من الكون كله ومعتمدا على الله فقط، أو متحررا من الله وعندها يصبح عبدا لكل ظرف من الظروف»[٢٩].

ولكن كيف يمكن أن يكون للإنسان وعي واضح وطاقة عاطفية للالتزام بالسر ما دام هذا السر غامضًا؟ كيف يمكن للغرض الذي لا يزال مجهولاً وغامضًا أن يوقظ طاقة الحرية لإنجازها؟ طالما الغرض غامضًا،

(٢٩) L. Giussani, *All'origine della pretesa cristiana*, op. cit., p. 108. «تستمد عظمة الإنسان وحريته من الاعتماد المباشر على الله، وهو الشرط لكي يحقق الإنسان نفسه ويؤكدها. الاعتماد على الله هو الشرط الأول لمصلحة الإنسان» (المرجع السابق، ص ١١٠).

يمكن للمرء أن يتخيل ما يريده ويمكنه أن يحدد علاقته بهذا الغرض وفقا لما يرضي ويحب. وهذا ما يحدث في تجربة الحب. طالما أن الشخص الذي يستولي على كل ذاتي لا يظهر في أفق حياتي، استمر في فعل ما يعجبني. وحقيقة معرفة أن هذا الشخص موجود في مكان ما لا تحررني من أن أكون تحت رحمة كل ما يظهر أمامي.

أعلم أني أرغب في اللانهائي، وأن هذا اللانهائي موجود لأنني دائمًا ما أتوق إليه، كما قال ليغركفيست، لكنني كل يوم أبحث عن التفاصيل، أذهب خلف هذا الشيء أو ذاك، مما يجعلني غير راض عن ذلك. هذا هو مصير الإنسان، ما لم يوافق الله على زيارته، كما قال ويتجنشتاين في يومياته: «أنت في حاجة إلى الخلاص، وإلا ستضيع [...] يجب عليه، إذا جاز التعبير، أن يرشح الضوء من خلال العلية، السقف الذي أعمل تحته ولا أريد أن أذهب أعلاه. [...] هذا السعي نحو المطلق، الذي يجعل رحابة السعادة الأرضية تبدو ضيقة للغاية، [...] يبدو لي شيئا رائعا، ساميًّا، لكنني، أنا نفسي، أوجه نظري إلى الأشياء الأرضية: ما لم «يزورني الله»»(٣٠).

الرفيق الذي يجعل الحرية ممكنة تاريخيًّا

فقط عندما يكشف السر الأعظم عن وجهه، مثله مثل الشخص المحبوب، يمكن للإنسان أن يمتلك الوضوح والقدرة العاطفية المناسبة

(٣٠) L. Wittgenstein, *Movimenti del pensiero. Diari 1930-32/193637,* Quodlibet, Macerata 1999, pp. 78, 85.

للالتزام بحريته كلها. مع يسوع، أصبح للسر الأعظم «حضورًا جذابًا»، إلى حد إشعال رغبة الإنسان وتحدي حريته، والتي تعني قدرته على الالتصاق بشيء ما. يكفي أن يستسلم الإنسان لجاذبية شخصيته المنتصرة. وكما يحدث للعاشق، فإن الحضور الساحر للشخص المحبوب هو الذي يوقظ فيه كل طاقته العاطفية: يكفيه فقط أن يستسلم لسحر الشخص الماثل أمامه.

«مطلوب إنسان، لا حاجة للحكمة،/ فالمطلوب هو الإنسان/ في الروح وفي الحقيقة./ ليس البلد، وليست الأشياء،/ ما هو مطلوب هو إنسان، وخطوة مؤكدة، وثابتة/ اليد التي تعطي والتي يستطيع الجميع/ الإمساك بها، والسير أحرارا، /وإنقاذ أنفسهم»[٣١]. ومثل الأحباء، السر أيضًا حاضر، ويتم اكتشافه عبر اللقاء. غير متوقع. مفاجئ! كما حدث ليوحنا واندراوس، أول من التقى يسوع وظلا ملتصقين به مدى الحياة. تم تحدي حريتهما من خلال عظمته الفريدة حتى أنهما لم يستطيعا الاستمرار في العيش دون تصفية كل الأمور مع ذلك الشخص. في اللقاء مع يسوع حدث توافق لم يرد على الخاطر، وكان مستحيلا في غير هذا الموضع، فلم يفارقاه أبدا. «إن حريتهما الحقيقية هي ثمرة لقاء شخصي مع يسوع»[٣٢]. لقد وجدت حرية الذين التقوا به تحققا لا نظير له: «يأخذ مائة ضعف» ، كما يسميه يسوع، أي إشباع أكبر بمائة مرة، يستبق التحقق

(٣١) C. Betocchi, *Dal definitivo istante. Poesie scelte e inediti,* BUR, Milano 1999, p. 146.

(٣٢) Benedetto XVI, *Messaggio per la XXVI edizione del Meeting di Rimini, 25* luglio 2005.

الكامل والنهائي(٣٣). لم يكن للرسل رؤى، ولولا أنهم جربوا حياة أفضل، لكانوا فارقوه عاجلاً أم آجلاً.

هذه هي العلاقة التي يتم فيها توضيح رغبة الإنسان المرتبكة. وكما يقول وليام سانت تييري، فإن المسيح هو «الوحيد القادر على تعليمي أن أرى ما أريده»(٣٤). هو وحده، السيد المسيح، الذي يكشف عن الإنسان للإنسان، كما يقول جوديوم وسبس(٣٥).

وللتذكير بالإنسان دون أن يتصلب هذا الإنسان، كما يقول بيجوي، فإن السر الأعظم يستخدم منهج التفضيل. وهكذا فكما لا نقع في الحب بمجرد الكلام، ولكن بأن نحب فعلا، فبالطريقة نفسها فإننا لكي نكشف ما هي الحرية يثير فيها السر الأعظم الرغبة الكلية، عندما يضع أمامنا حضورا جاذبا ومناسبة لكي نخوض معه وفي الوقت نفسه تجربة إشباع الرغبة.

الجسم هو محور الخلاص(٣٦). اللحم، الفعل الذي تحول إلى جسد، هو محور الخلاص. الحضور الجسدي الجذاب عاطفيًا هو القادر على الانتصار على مقاومتنا. الجاذبية المنتصرة هي الأمل الوحيد بالنسبة لنا، خاصة وأننا نقع دائما تحت تأثير اغراءات الاستقلالية وتلك الثقة القاتلة تقريبا

(٣٣) كتب غارديني: «الله هو الذي يعطي لأولئك الذين يقتربون منه الامتلاء النهائي وبالتالي الحل النهائي. وهذا يتحقق في الوحي، في المسيحية» (R. Guardini, *Persona e libertà*, op. cit., p. 113).

(٣٤) Guglielmo di Saint-Thierry, *La contemplazione di Dio*, Fabbri, Milano 1997, p. 62.

(٣٥) Cfr. Costituzione pastorale *Gaudium et Spes*, 22.

(٣٦) Tertulliano, *De carnis resurrectione*, 8,3: PL 2,806.

في أنفسنا التي تسقطنا في هاوية الخواء. بجاذبية الوجود الساطع في وجه المسيح، الحاضر هنا والآن في جسد الكنيسة، يمكن أن نهزم جاذبية العدم.

لماذا يمارس هذا الرجل هذه الجاذبية؟ من هو؟ إنه المسيح، الإنسان المليء بالله أو الله على صورة إنسان. إنسان يقبل الانتماء الكامل إلى السر الأعظم، إلى الأب. يقبل بأن يكون هناك «آخر» يملأ قلبه. تتحقق فيه رسالة الإنسان. ولهذا فهو الوحيد الذي يقربنا من سر الأب، حيث تتحقق حريتنا. أبناء في ابن[٣٧].

ولكن حتى يكشف المسيح نفسه لي باعتباره المحقق لحريتي، من الضروري أن أسمح له بالدخول إلى أعماق كياني. في الواقع، نكتشف أننا وجدنا من يحقق رغبتنا في الحرية في اللحظة نفسها التي نصبح فيها أحرارًا، أي عندما نصبح منتمين إليه. لكي يكشف عن نفسه بشكل كامل، ينتظر من حريتي أن تأخذ موقفًا، أي أن أقرر أنني أنتمي إليه بقراري الحر.

لقد جاء يسوع في الواقع لا ليحرمنا من الحرية، كما نحب أن نتصور في بعض الأحيان. ولكن ماذا يمكن أن يكون الخلاص الذي لم يكن حرا؟ إنها دراما الله، التي عبّرت عنها عبقرية بيجوي مرة أخرى: «عندي رغبة، أريد أن أضع يدي تحت بطونهم/ لدعمهم بيدي الواسعة/ كأب يعلم ابنه أن يسبح/ في مجرى النهر/ المنقسم بين نوعين من المشاعر/

(٣٧) راجع غلاطية ٧-٤، ٤.

فمن ناحية، إذا دعمه دائما، أو دعمه أكثر من اللازم/ فإن الطفل سوف يلتصق به ولن يتعلم السباحة./ ولكن لو لم يدعمه في الوقت المناسب/ سيجد هذا الطفل نفسه يشرب/ [...]/ هذا هو سر حرية الإنسان، يقول الله،/ وهو من حكمي عليه وعلى حريته./ إذا كنت دعمته أكثر من اللازم، لن يصبح حرا./ وإذا لم أدعمه بما يكفي سيغرق./ إذا كنت ساندته كثيرًا، فأنا أعرض حريته للخطر/ وإذا لم أؤيده بما فيه الكفاية، فأنا أعرض خلاصه للخطر:/ هما خيران لهما القيمة نفسها تقريبا. / لأن هذا الخلاص له ثمن لانهائي. /ولكن ماذا عساه يكون الخلاص إن لم يكن حرًا؟(٣٨).

ضرورة أن يكون معاصرا

لا يمكننا تجنب الاضمحلال، والموت. ولكن كيف يمكننا إذًا أن نستفيق؟ الاحتمال الوحيد هو أن تستمر المسيحية في الظهور كحدث. دون استمرار تكرار الحدث المسيحي، لا توجد إمكانية للحرية الحقيقية. وبقاؤها هو علامة على حقيقيتها: فهي مثل الحقيقة، تدوم. وبهذه الطريقة فقط يمكن أن تستيقظ تجربة حريتنا بشكل مستمر وتتحرك، حتى تكون قادرة على تحقيق نفسها.

(٣٨) Ch. Péguy, "Il mistero dei santi innocenti", in *Lui è qui*, op. cit., pp. 359-360.

أين يبقى الحدث المسيحي؟ في الكنيسة: «حرية الله تحقق وجوده من خلال بشر غيرهم وجوده، بشر تغيروا من خلال وجوده. حضوره، حضور الله المتحول إلى بشر يتجلى من خلال هؤلاء البشر الذين تغيروا. العلامة المناسبة لهذا التغيير هي هذه القدرة على الوحدة، المستحيلة على البشر، والتي تسمى باسم واحد كامل هو الكنيسة»[٣٩]. يبقى السر في التاريخ ويستمر في جعل الحرية الحقيقية ممكنة من خلال تغيير هؤلاء البشر، وتصل ذروة التغيير في الشراكة. الشراكة هي الانتصار على غياب الروابط، على ثمرة الخطيئة. وبذلك تصبح الكنيسة مكان الحرية، حرية ممكنة لأي شخص يقترب منها. فقط إذا كان مجتمعا يجعل الحرية الحقيقية للبشر المنتمي إليه ممكنا في التاريخ، سيمكن للكنيسة أن تجيب على المعارضة التي ترى أن الحرية غير ممكنة مع الانتماء. وبالتالي سيكون من الممكن توثيق أن الحرية هي الانتماء المعاش بدلا من غياب الروابط.

لكن هذه الحرية الحقيقية في مجتمع الكنيسة لا يمكن تحقيقها إلا إذا علمتني الاعتراف بالسر، وهو الواقع الوحيد الذي يمكن أن يجعلني حرا في هذه الظروف. هذا هو المعنى العميق لعبارة القديس أمبروسيوس: «*Ubi fides ibi libertas* حيث يوجد الإيمان توجد الحرية»[٤٠]. مثل هذه الجماعة هي وحدها التي يمكنها تحقيق الطموح في إيجاد سكن تسكن فيه الحرية: «إن التطلع إلى تحرير الذات وبناء سكن جديد حيث يمكن للحرية أن تعيش فيه» ، كما تقول حنة ارنت «غير مسبوق وليس له

(٣٩) L. Giussani, *La libertà di Dio*, Marietti, Genova-Milano 2005, p. 36.

(٤٠) «حيث يوجد الإيمان توجد الحرية» (sant'Ambrogio, Ep 65,5).

مثيل طوال تاريخ الماضي»(٤١). إن الارتباط بالمسيح في الكنيسة يعيد بناء الترابط مع كل شيء ومع الجميع.

وحتى اليوم، تواجه المسيحية الرغبة في حرية الانسان. ومع ذلك، إذا كانت تريد الحصول على أي فرصة، فلا يمكن طرح نفسها في أي من النسخ الهابطة التي ميزت التاريخ الحديث (بالأخلاق، أو بالروحانية، أو بالكلام المجرد): يجب أن تقدم نفسها في طبيعتها الأصلية كحدث، ومن ثم من خلال شهادة التجربة. يجب أن تضع المسيحية على خشبة مسرح الدنيا بشرا أحرارا، في مسرحية «بشر أحرار» داخل الواقع (العمل، الأحداث الشخصية والاجتماعية، الظروف من كل نوع). هذا الانسان الحر هو الذي يشهد للمسيح. لا يحتاج إنسان اليوم إلى خطاب ديني بسيط، وإنما تجربة اللقاء: «نحن نلتقي بالحقيقة المسيحية، عندما نلتقي بأناس أنجزوا بالفعل هذا اللقاء، وتأثروا فعليًّا بهذا اللقاء وتغيروا بسببه. [...]ليس لقاء لسماع الإنجيل أو الاستماع لساعات إلى أفكار يثيرها الإنجيل في الخاطر عند شخص معين. فمثل هذا اللقاء هو مشاركة في عرض تكون فيه ردود الفعل العاطفية أو الاقتراحات الجدلية ناشئة عن إلهام ديني. بدلاً من ذلك، يكون اللقاء مع حدث يمكن أن يتجسد في شخص يتحدث، ولكن ما هو ملفت للنظر ليس الكلمة نفسها بقدر التغيير الذي حدث في الشخص الذي يتحدث »(٤٢). يوثقه هذا الشخص

---

(٤١) H. Arendt, *Sulla rivoluzione*, Edizioni di Comunità, Milano 1996, p. 32.
تحيل ارنت في نصها إلى الروح الثورية لهذه القرون الأخيرة.

(٤٢) L. Giussani, "Il "potere" del laico, cioè del cristiano", in *Un avvenimento di vita, cioè una storia,* op. cit., pp. 38-39.

الذي كتب يقول: «لقد دخلت إلى المستشفى لمدة أسبوع لعمل بعض الفحوص على أثر إصابتي بمرض عانيت منه لمدة ثلاثة عشر عامًا: مرض باركنسون (الذي أصابني عندما كنت في الثامنة والثلاثين). وضعوني في غرفة حيث كانت هناك سيدة مسنة بالفعل في المستشفى، كانت حالتها خطيرة جدا وتتعلق بمرضي أنا أيضًا: لم تكن قادرة على الوقوف ساكنة بسبب حركتها اللاإرادية خلال النهار وخلال الليل، وكانت لديها أيضًا تقلصات على مستوى حلقها ولسانها، حتى أنها لم تستطع حتى تناول الطعام. انهكتها التوترات وخلل الحركة وفي نهاية المطاف اصيبت بالهيستيريا وصارت تصرخ، فلم يعد لديها من وسيلة تعبر بها عن نفسها إلا الصراخ. بالنسبة لي كان هذا يعني عدم النوم وعدم الراحة سواء في النهار أو الليل. أدركت على الفور أنني يجب أن أتحلى بالصبر لأنه عندما يُدخل المرء إلى المستشفى فإنه معرض لأن يشاهد مثل هذه الحالات. حاولت تهدئتها قدر المستطاع، وناديتها باسمها، وشجعتها، مما جعلها تشعر بوجودي، وأيضًا لأنها لم تكن تستطيع الحصول على مساعدة يومية من أقاربها. بعد يومين من هذا الوضع وجدت نفسي متعبة جدا. فذهبت للبحث عن ممرضة القسم، فقلت لها إنني لا أستطيع أن أواصل التحمل بعد الآن لأنني لا أستطيع أن أرتاح أبدًا وسألتها إن كانت تستطيع فعل شيء. ثم عدت إلى غرفتي غارقة في البكاء. ولكن بمجرد أن دخلت، تذكرت ما علمنا إياه الأب جوساني: «عش الظرف كالسر الذي يجعلك تلتقي به». وبعد ذلك، نظرت إلى تلك المرأة العجوز التي كانت تتقلص كلها وتصرخ طلبا للمساعدة، طلبا مؤثرا، وتذكرت كلمات الأب جوساني

فغير قلبي وعقلي موقفهما. من المؤكد أنني أحسنت صنعا بالبكاء، لكن لم يكن البكاء هو الذي أراحني، وأعطاني القوة للاستمرار معها، وإنما كان الوعي بأن السر هو الذي حضر داخل هذا الموقف، وداخل هذه الغرفة. عندئذ قلت لنفسي: «إما أن أتحمل هذا الظرف، أو أعيشه أو احتضنه». وهكذا بدأت، بالإضافة إلى تشجيعها، أن أكون أكثر انتباهًا لردود فعلها تجاه جرعات الأدوية التي كانت تتعاطاها. بعد ساعتين دخل كبير الأطباء ومعه أطباء آخرون وسألوا أنفسهم ماذا عساهم يفعلون لكي يساعدوا هذه السيدة، لأنهم لم يتمكنوا من تطوير العلاج. عندئذ وجدت الشجاعة للإعلان عن ملاحظاتي حول ردود فعلها على جرعات الأدوية، وأضفت أنه عندما تشعر بالتشجيع وبالصحبة مع أي شخص (حتى مع زواري أنا)، كانت تهدأ: علامة على أنها كانت بالتأكيد تحتاج للعلاج، ولكنها كانت تحتاج أيضًا للصحبة والرفقة. منذ تلك اللحظة كانوا عندما يأتون كل ساعتين أو ثلاث ساعات، يسألوني كيف مرّت تلك الفترة بعد الجرعة الجديدة من العلاج، لدرجة أن إحدى الطبيبات سألت كبير الأطباء في المساء ما إذا كنت قد أصبحت مرجعًا لهذا المريض. وأجابها كبير الأطباء مازحا: نعم، طبعا! لا يمكننا إخراجها: أصبحت السيدة مفيدة لفهم كيفية إدارة هذا العلاج! «. في تلك المرحلة، نبهتهم إلى أنهم كان عليهم أيضًا أن يسألوني عن حالي، لأن حالتي لم تكن مستقرة لفترة طويلة. طمأنني كبير الأطباء إلى أنهم سوف يستعجلون الفحوصات حتى أستطيع أن أخرج من المستشفى. وقد كان. في المساء دخل الغرفة ممرض يخبرني بأنني أستطيع أن أبيت في غرفة مفردة ولو لتلك الليلة فقط، وهكذا يمكنني

أن أستريح. عندئذ اعتذرت عن رد الفعل الذي أبديته في الصباح، بسبب التعب الشديد، لكنه أجاب: «سيدتي، يجب ألا تعتذر عن شيء ولا بد أن تعرفي أنك كنت الوحيدة التي قاومت». عندما أذنوا لي بالخروج من المستشفى شكرتين ممرضة على المساعدة التي قدمتها لهم، لأنني لم أواصل قرع الجرس، لكنني حاولت أن أعتني بالمريضة قدر ما أستطيع وأخبرتني: «افعلي أي شيء ولكن لا تغيري من شخصيتك أبدا، أبقى دائما هكذا!». أردت أن أحكي هذه التجربة على وجه التحديد لأني أعتقد أنها مثال ساطع: ليس لأنني طيبة- وإنما لأنني تمكنت من العيش في هذا الظرف بطريقة مختلفة عن الأشخاص الآخرين الذين تصادف وجودهم في تلك الغرفة من قبل، ولكن لوجود آخر جعل المعاناة قابلة للتحمل وقابلة للتعايش معها. إنه اعتراف بأن السر يعيش في ظل الظروف المتغيرة، وأنه يغيرك أولاً، حتى تعيش الظروف بشكل أفضل وتجعل الآخرين الذين يعيشون معك الظروف نفسها أفضل حالا.

هذه هي الحرية داخل الحياة: ليست «أنا» محشورة في ظروف، بل هي «أنا» تجد في الاعتراف بالسر في تلك الظرف إمكانية الحرية الحقيقية. «إذا أراد [الإنسان] أن يتحرر من كل شيء يحيط به، إذا أراد أن يكون حرًا من كل ما هو موجود حوله [...]، يجب أن يكون معتمدًا على الله. الاعتماد على الله هو حرية الإنسان»[٤٣].

(٤٣) L. Giussani, *La libertà di Dio*, op. cit., p. 17.

نحن، مثل تلك السيدة، يمكن أن نختبر الحرية في كل الظروف لأننا عرفنا إنسانا حرا علمنا أن نعيش كل الظروف بالطريقة الوحيدة التي لا تسحقنا: الاعتراف بالسر، أي كأبناء(٤٤). ونحن شهود على أن دون جوساني قد عاش حياته ومرضه بهذه الطريقة وعلمنا الاعتراف بإيجابية الواقع في أي ظروف من الظروف. وسوف نظل دائما مدينين له بالفضل. إن التحية الأجمل التي يمكن أن نقدمها له أن نكون شهودا على أن الإمكانية الوحيدة للحرية هو الاعتراف بالسر الحاضر. شكرا لك يا سيد جوساني.

(٤٤) Cfr. H.U. von Balthasar, *Teodrammatica. II. Le persone del dramma: L'uomo in Dio,* op. cit., pp. 268-292; A. Scola G. Marengo- J. Prades, *La persona umana. Antropologia teologica,* (Amateca 15), Jaca Book, Milano 2000, pp. 104-196.

الجزء الثالث
الطوارئ التعليمية

١٠

المدخل إلى الواقع الكلي

التعليم هو التحدي الكبير الذي نواجهه جميعًا. وليس من نافلة القول الحديث عن «الطوارئ التعليمية». كان التعليم دائمًا أمرًا حاسمًا لتقديم أجيال جديدة في الحياة. فما الذي يوجد الآن ولم يكن يوجد في الماضي؟ لماذا نتحدث اليوم بمفردات مأساوية عن حالة طوارئ تعليمية؟ فقط من خلال الإجابة على هذه الأسئلة يمكننا فهم مدى المساهمة التي قدمها البابا فرانشيسكو لهذه المشكلة منذ أن كان رئيس أساقفة بوينس آيرس.

ما هو التحدي الذي نواجهه جميعًا. في مقال نشر في صحيفة لا ريبوبليكا، كتب بيترو تشيتاتي أن «شباب اليوم لا يعرفون من هم. [...] انهم يفضلون أن يظلوا سلبيين يعيشون غارقين في نعاس غامض»(١). وكان لويجي جوساني، وهو المعلم ذو الخبرة الطويلة في العلاقات مع الشباب،

---

(١) P. Citati, “Questa generazione che non vuol crescere mai”, *la Repubblica,* 2 agosto 1999, p. 1.

صورة لوصف «النعاس الغامض»: «يبدو الأمر كما لو أن شباب اليوم قد أصيبوا جميعًا [...] بإشعاع تشيرنوبيل»[٢]. كأن أجسامهم قد خلت من الطاقة، بسبب الإشعاع.

ونتيجة للضعف الموصوف هو أن «ما يسمعه المرء أو يراه لا يتم استيعابه حقا. وكل ما يحيط بنا من «عقلية سائدة [...]، وسلطة، يحقق [فينا] اغترابا عن أنفسنا». يبدو الأمر كما لو أنهم كانوا يسحبون وجودنا منا. «نحن لا نزال [...] تجريديين في علاقتنا بأنفسنا، كما لو أن شحناتنا العاطفية قد نفدت»[٣].

ولذلك، فإننا نظل «تجريديين»، مغتربين، ليس فقط مع الآخرين، ولكن أيضًا مع أنفسنا. ما علينا سوى التفكير في المدة التي يستطيع فيها المرء البقاء مع نفسه، في لحظة من الصمت: يجب أن نهرب على الفور من هذه اللحظة، ونصرف انتباهنا، في عجز على تحمل البقاء مع أنفسنا، كأننا لم نحس أبدا أننا في بيتنا. والاغتراب عن النفس يصبح اغترابا عن كل شيء: فلا شيء ينجح حقا في أن يشركنا معه. وتسود اللامبالاة. وفي هذه الحالة، لا تمكن الاستجابة بالقواعد والقوانين والأخلاقيات والتي ثبت أنها غير فعالة. فتلك الأشياء لا يمكنها وضع الذات في حالة حركة، وغير قادرة على إيقاظ

حركة «الأنا». وبدون حركة الأنا، لا يوجد تعليم.

(٢) L. Giussani, *L'io rinasce in un incontro (1986-1987),* op. cit., pp. 181-182.
(٣) المرجع السابق ص ١٨١.

فمن أين نبدأ؟

فمن أين تبدأ إذًا؟ يجب علينا أولا وقبل كل شيء أن نقول إنه على الرغم من كل شيء، يبقى في روح الإنسان، مثلما يقول تشيزاري بافيزي، «نقطة ملتهبة»(٤). ومن حول هذه النقطة الملتهبة يمكن أن يدور مقترح يتوافق حقًا مع الإنسان. وقد حدده البابا فرانشيسكو بوضوح: «الإنسان ليس كائنًا مسالمًا في حدوده الخاصة، ولكنه كائن «في حالة سير»[...] وعندما لا يدخل هذه الديناميكية، فإنه يلغي نفسه كشخص أو يفسد. والإنسان لكي يصبح في حالة سير فإن ذلك يرجع إلى تململ داخلي يدفع الإنسان إلى «الخروج من نفسه». [...] هناك شيء ما داخلنا وخارجنا يدعونا إلى القيام بالسير»(٥). هذا التململ، إذا عدنا به إلى الذاكرة الأوغسطينية، يبقى في قاع الوجود الإنساني. وهو يشير إلى عمق واتساع الرغبة، أي إلى نقطة القلب الملتهبة.

ولكن تظل محاولة إخماد الرغبة قائمة: «إن الأنظمة الدنيوية تحاول تهدئة الإنسان، وتخدير رغبته في السير، مع مقترحات للتملك والاستهلاك [...]. وبهذه الطريقة ينفر الإنسان من إمكانية التعرف على أعمق رغبات قلبه والإنصات إليها. يوجه الانتباه إلى كمية كبيرة من «الذرائع» التي تتلاعب بالرغبة [...] وتقدم، بدورها، سلامًا ظاهريًا. [...] الشره، والشهوة، والطمع، والغضب، والحسد، والحزن، والكسل، والخيلاء،

(٤) Cfr. C. Pavese, “A Rosa Calzecchi Onesti”, 14 giugno [1949], *Lettere 1926-1950*, Einaudi, Torino 1968, vol. 2, p. 655.

(٥) J.M. Bergoglio Francesco, *La bellezza educherà il mondo,* EMI, Bologna 2014, p. 8.

والفخر. [...] وهي بالتأكيد ذرائع وثغرات تخفي شيئًا آخر، وهو الخوف من الحرية [...] وتعد بمثابة مهرب. إن الأصولية تنتظم انطلاقا من تصلب فكرة وحيدة، يحمي الأصولي نفسه داخلها من مطالب مزعزعة للاستقرار (والأزمات) في مقابل هدوء وجودي من نوع معين»[٦]. وقد حذر بيرجوليو وكان رئيسا للأساقفة حينذاك المعلمين على أنه ينبغي الحرص على عدم استخدام الأدوات التعليمية للحد من الرغبة: «الانضباط وسيلة، وهو علاج ضروري لخدمة التعليم المتكامل، ولكن لا يمكن تحويله إلى بتر للرغبة. [...] فالرغبة تعارض الضرورة. وهذه الأخيرة يتم إشباعها بمجرد أن يتم سد العجز؛ أما الرغبة، من جهة أخرى، فهي وجود خير إيجابي وهي تزيد دائما وتتجسد وتحرك المزيد من الرغبة دائما. الرغبة في الحقيقة تمضي قدما «من لقاء إلى لقاء»[٧].

يلاحظ المحلل النفسي المعروف ماسيمو ريكالكاتي، في هذا الصدد، أن «الرغبة لا يمكن سحقها بمجرد تلبية الاحتياجات، ولكنها تكشف عن اختلاف عن التشوق الحيواني من حيث أن محركها هو التجاوز الذي يفتحها على أمور لم تدرك ولم يتم التفكير فيها ولم تتم رؤيتها من قبل»[٨]. ومن ثم فإن التحدي الأكبر للمعلم هو إيقاظ الرغبة: «كيف نعلم طلابنا ألا يخافوا من البحث عن الحقيقة؟ كيف نربيهم على الحرية؟ [...] كيف يمكننا أن نجعل أبناءنا [...] يصبحون «غير هادئين» في البحث؟»[٩].

(٦) المرجع السابق صفحات ١٤-١٥.

(٧) المرجع السابق صفحات ١٢-١٣.

(٨) M. Recalcati, *Il complesso di Telemaco,* Feltrinelli, Milano 2013, p. 114.

(٩) J.M. Bergoglio Francesco, *La bellezza educherà il mondo*, op. cit., p. 17.

يجب أن نرد: بالتربية، أي تعريف الشباب بالعلاقة مع الواقع. ولكن قد يقال إن الشباب ليسوا مهتمين بهذه العلاقة، بسبب ذلك السبات الغامض الذي يتحول إلى ملل لا يقهر. دعونا نسأل أنفسنا: لماذا هناك نقص في الاهتمام الحقيقي، لماذا يصعب على الأطفال أن يشاركوا بشكل حقيقي في أي شيء، ولماذا من النادر جدا لا نجد أشخاصا غير متشككين في سن الأربعين أو الخمسين؟

يتم التعبير عن مدى المشكلة بشكل جيد من خلال تأكيد من الفيلسوفة الإسبانية ماريا زامبرانو: «يبدو أن ما هو في أزمة، هو ذلك الارتباط الغامض الذي يربط وجودنا بالواقع، وهو ارتباط عميق وأساسي حتى أنه أصبح دعمنا الحميم»(١٠). ويمكن رؤية أزمة هذا الارتباط في حقيقة أن الواقع غير قادر على سحب «الأنا» معه، وليس لديه شيء يمكن أن تفوز به منه، فالملل هو الغالب والإنسان يبدو مفرغا، لأنه محروم من «دعمه».

ومع ذلك يبدو في هذا التشخيص شيء ما غريب. في الواقع لا أحد اليوم قد يقول إن الشباب ليسوا مهتمين بأي شيء. بل على العكس، يبدو أنهم مهتمون بكل شيء، ويتخلصون كما لم يحدث من قبل من عدد لا نهائي من الإغراءات والإمكانيات. فلماذا إذن تستهلك بسرعة كل المحفزات، وتغرق بسهولة في السلبية والملل؟ لأن الواقع عندما يفقد المعنى يفقد جاذبيته. هذا إذن هو هدف التعليم الذي يناسب حجم

(١٠) M. Zambrano, *Verso un sapere dell'anima,* op. cit., p. 84.

خطورة المشكلة: التعليم هو تعريف الشاب بالواقع في كل أبعاده، بما في ذلك معناه. لقد أشار به البابا فرانشيسكو إلى عالم المدرسة: «أحب المدرسة لأنها مرادفة للانفتاح على الواقع. [...] الذهاب إلى المدرسة يعني فتح عقلك وقلبك للواقع، بثراء مظاهره وأبعاده. وليس لدينا الحق في أن نكون خائفين من الواقع!»(١١).

استعادة الارتباط بالواقع

نستطيع أن نفهم جيدا أن هذه المشكلة تؤثر على الجميع: الجمعيات، والمدارس، والكنيسة، والأحزاب السياسية. هذه ليست مشكلة خاصة، ولكنها مشكلة المشاكل: كيف يمكن إعادة تأسيس ارتباط وثيق بالواقع؟ ما هو الشيء الذي بوسعه أن يوقظ الاهتمام في «الأنا»؟ للتعامل مع الوضع المذكور أعلاه، يلزم إيجاد تعليم يرقى إلى الحاجة الملحة له. إن يونجمان يعرف التعليم بأنه «مدخل إلى الواقع الكلي»، (١٢) أي الدخول في نهاية المطاف إلى معناه. لأنه بدون إدراك معناه وتأكيده، فإن الشخص لن يهتم حقًا بالواقع. لنضرب على ذلك مثالا. إذا أهدينا نحن الكبار لعبة لطفل، يراها الطفل لأول مرة، ثم نتركه وحده، فسيتعجب الطفل أمامها، كيف سيفهم ماذا تكون هذه اللعبة؟ سيحتاج إلى تعليمات للاستخدام، والتي تعني في المثال أن تقول للطفل: «إذا استخدمتها على هذا النحو أو

(١١) فرانشيسكو، لقاء مع عالم المدارس الإيطالية، ١٠ مايو ٢٠١٤.

(١٢) J.A. Jungmann, *Cristo come punto centrale dell'educazione religiosa,* a cura di A. Gamba, Marietti, Genova-Milano 2012, p. 37.

ذاك، فسوف تستمع بكيفية عملها.» سيكون من غير الإنساني إعطاء الطفل لعبة وعدم تقديم طريقة أدائها له – أي توضيح معناها له. وبدون تقديم فرضية له حول كيفية استخدامها، نكون قد تخلينا عنه وتركناه لردود أفعاله الحتمية: البكاء والملل.

لذلك، قال البابا فرانسيس، متحدثًا دائمًا إلى عالم المدرسة، أنها «تربي أبناءها على الحق والخير والجمال. والثلاثة تمضي معا كلها. التربية لا يمكن أن تكون محايدة. إما أن تكون سلبية أو تكون إيجابية، إما أن تثري أو تفقر، إما أن تنمي الشخص أو تقهره، بل حتى تفسده. [...] مهمة المدرسة هي تطوير الإحساس بالحقيقة والشعور بالخير والحس الجمالي. وهذا يحدث من خلال مسار».[١٣]

إن تعرفنا على مجمل الواقع لا ينفصم عن علاقتنا بهذا الواقع. إننا إذا لم ندرك معنى الواقع فإنه لن يحركنا، ولن يثير اهتمامنا. هذا هو أصل العدمية، ذلك الموقف الذي ينتهي بالملل لأن لا شيء يوقظ اهتمام الأنا. كنا نظن أن الواقع يمكن أن يظل جذابًا حتى بدون معنى، عندما يتقلص إلى مجرد مظهر، وأن الشباب قد يهتمون بنقل الأفكار والبيانات، دون نقل أية فرضيات تخص المعنى. لكن هذا لم يحدث. فمع تقليص الواقع إلى مظهره الفوري، أي إلى الظاهر منه، ينشأ شكل جديد من العدمية، العدمية الضعيفة، «الفارغة»، تنهار فيها الرغبة والفضول.

(١٣) فرانشيسكو، لقاء مع عالم المدارس الإيطالية، ١٠ مايو ٢٠١٤.

عندها لن يستطيع المساهمة في الموقف المأساوي الذي نواجهه إلا من يستطيع تخليص الأنا من هذا الوهن.

فمن أين نبدأ إذًا؟ من الواقع، ولكن ليس من واقع تم تقليصه في السابق إلى مظهره، لأنه يتعبنا، ويجعلنا نشعر بالجفاف، ولا يمكن أن يجتذبنا أو يأخذنا إليه لوقت طويل، ولكن من واقع في مجمله وقدرته على التحفيز. الواقع يثير الاهتمام لأنه يجذبنا، ويقدم إلينا نفسه جميلا، كما ذكر خورخي ماريو بيرجوليو: «كم من العقلانيات التجريدية و الأخلاقيات «الخارجية» سوف تُشفَى [...] إذا بدأنا نفكر في الواقع في المقام الأول على أنه جميل، ثم في وقت لاحق على أنه جيد وحقيقي!»(١٤)

إن الواقع الذي يأتينا جميلاً هو الذي يثير فينا التساؤلات. ما زلت أتذكر، بعد سنوات عديدة، ما حدث عندما أخذت طلابي في المدرسة الثانوية إلى القبة السماوية في مدريد. بعد الزيارة عدنا إلى المدرسة وبدأنا نسألهم عما أعجبهم أكثر من كل الأشياء التي رأيناها من نجوم ومجرات، إلخ. لم يكن أحد مهتمًا بعدد النجوم، أو مهتمًا بعدد المجرات، لكن الجميع، متأثرين بما رأوه، كان يملأون السبورة بأسئلة مثل: من فعل كل هذا؟ إلام ينتمي؟ ما هو المعنى من ورائه؟ ما هو الهدف؟

هذه هي المشكلة: لقد أُعطينا أجمل لعبة، وهي الحياة، التي هي الكون كله، لكننا لم نأت إلى الحياة وقد تم تزويدنا بتعليمات واضحة لكيفية استخدامها. لهذا نسأل أنفسنا عن معنى ما نراه وما أعطي لنا، نسأل

(١٤) J.M. Bergoglio Francesco, *La bellezza educherà il mondo*, op. cit., p. 23.

أنفسنا كيف نعيش، كيف نتعلم أن نستمتع بما هو موجود، أن نواجه الواقع بشكل ملائم، حتى تصبح الحياة حقا حياة فاتنة ساحرة نعيشها بكل جوارحنا.

نحن بحاجة إلى فرضية عمل: «التثقيف للبحث عن الحقيقة يتطلب جهدًا للمواءمة بين المحتوى والميول والتقييم. [...] ولا تكفي المعلومات أو التفسيرات لتحقيق هذه المواءمة. [...] بل يلزم منح وإظهار توليفة حيوية تجمع بينها».[١٥]

الحاجة لشاهد

على هذا المستوى تنشأ الحاجة لشاهد. ويقول البابا فرانشيسكو: «لا يمكن أن يفعل هذا إلا الشاهد. وهكذا فإننا ندخل في واحد من أعمق وأجمل أبعاد المعلم: الشهادة. هذا هو الأخير الذي يحول المعلم «أستاذا» ويجعل منه رفيقا في البحث عن الحقيقة. والشاهد يتحدانا بمثاله، وينعشنا، ويرافقنا، ويسمح لنا بالمسير، وارتكاب الأخطاء، وحتى تكرار الخطأ، حتى نتمكن من النمو. إن التعليم [...] سيتطلب منكم، أيها المعلمون الأعزاء، [...] «معرفة كيفية اسناد السبب»، ليس فقط بتفسير المفاهيم والمحتويات المعزولة، ولكن بالسلوكيات والأحكام المتجسدة. [...] يصبح كل شيء مثيرًا للاهتمام وجذابًا ثم تقرع الأجراس في النهاية

(١٥) المرجع السابق ص ٢٤.

لتوقظ «التململ» الصحي في قلب الأولاد. والحالة النموذجية للأستاذ الشاهد هي يسوع نفسه ».(١٦)

ويضيف ريكالكاتي من وجهة نظره: «لتصبح الحياة إنسانية فهي تتطلب وجود الآخر حاضرا. [...] إذا لم يحدث هذا اللقاء ، فإن الحياة تتعرض للانفصال عن المعنى، وتبدو حياةً بلا معنى».(١٧) في الواقع ، «كيف يحدث انتقال الرغبة من جيل إلى جيل؟ من خلال شهادة متجسدة كيف يمكن عيش الحياة برغبة».(١٨)

لكن الشاهد ليس ممكنًا دون أن يتناول المعلمون بجدية «تململهم» هم أنفسهم أولاً: «التعليم هو فعل أمل في حد ذاته. [...] أعزائي المعلمين، [...] أتمنى أن يفتح لكم التململ، وهو صورة الرغبة التي تحرك الوجود الإنساني كله، قلوبكم، وتوجهكم نحو الأمل الذي لا يخون. والذي تتحولون، بوصفكم معلمين، به شهودًا حقيقيين، قريبين من الجميع».(١٩) وهذا أمر حاسم كما يقول البابا مضيفا: «الأولاد يفهمون، ويكتسبون ، وينجذبون إلى الأساتذة الذين لديهم فكر مفتوح «غير مكتمل» ، الذين يبحثون عما هو «أكثر»، وبالتالي ينقلون هذه العدوى إلى طلابهم».(٢٠)

(١٦) المرجع السابق صفحات ٢٤-٢٥.
(١٧) M. Recalcati, *Il complesso di Telemaco,* op. cit., p. 136.
(١٨) المرجع السابق ص ١٤١.
(١٩) J.M. Bergoglio Francesco, *La bellezza educherà il mondo,* op. cit., pp. 32-33.
(٢٠) فرانشيسكو ، لقاء مع عالم المدارس الإيطالية ، ١٠ مايو ٢٠١٤.

من هنا تأتي مسؤوليتنا. ولكي نحياها يجب علينا ألا نستسلم لإغراء اليأس، وهو ما لا يزال البابا فرانشيسكو يذكرنا به: «الإغراء هو دعوة لوقف المسيرة واليأس. ماذا نفعل حتى لا نسقط فيه، وقد سقطت الكثير من اليوتوبيات بالفعل؟ [...] الإغراء خطير وقوته الحقيقية معروفة جيدا من قبل أي شخص تبع قلبه بشجاعة. [...] هو فقط من يعرف صعوبة رغبته والإشكالية عميقة التي تخلقها. [...] في هذا السياق [...] كل معلم يجد نفسه أمام إغراء اليأس».[٢١]

يجب علينا نحن الكبار أن ندرك أننا لم نلب دائمًا الاحتياجات التعليمية: «دعونا ننظر إلى الشباب. [...] هل نعدهم لآفاق كبيرة أم لكي ينظروا تحت أقدامهم؟ [...] نريد أن نسأل الأولاد أن يغفروا لنا أننا لم نأخذهم دائما على محمل الجد. لأننا لا نمنحهم الأدوات دائمًا حتى لا تتوقف آفاقهم تحت أرجلهم، ولأننا في كثير من الأحيان لا نستطيع أن نثيرهم بآفاق أوسع تجعلهم يقدرون، ما تلقوه وما يجب عليهم إرساله، حق قدره. لأننا في كثير من الأحيان لم نكن نعرف كيف نجعلهم يحلمون! [...] وعندما يرى الأولاد منا، نحن القادة، شهادة دونية، فإنهم لا يملكون شجاعة الحلم، ثم لا يملكون شجاعة النمو ... إذا لم نتمكن من أن نصبح شهودا على هذه القدرة والأفق والعمل، فسوف ستنتهي حياتنا في أضيق الآفاق، لنبكي البكاء المرير على فشلنا كمعلمين وكرجال ونساء».[٢٢]

(٢١) J.M. Bergoglio Francesco, *La bellezza educherà il mondo*, op. cit., pp. 7-8.

(٢٢) المرجع السابق صفحات ٤٢-٤٤.

وأختم كلامي بكلمات البابا فرانشيسكو، التي تبدو وكأنها نداء عاجل لتحمل المسئولية:

«أن يتمكن [الشباب] من أن يتعلموا من شهادتنا - لأننا نتعلم أكثر بالمثل، وليس بالكلمات- ثقافة الحياة المثمرة. [...] لا تقتصر المخدرات على القتل فحسب، ولا تقتصر المخدرات على توليد ثقافة الموت؛ بل توجد الأنانية في قلوبنا جميعا ممن يتحمل مسئولية التعليم، وانغلاقنا، وعدم اكتراثنا ونحن نمر إلى جوارشخص عالق على حافة الحياة، دون أن نعلمه أن يخرج من حالة الشلل ليقترب إلى الحياة»[٢٣].

(٢٣) المرجع السابق صفحات ٤٦-٤٨.

١١

«النقطة الملتهبة»

كتاب أنطونيو بوليتو، ضد الآباء. كيف دمرنا نحن الإيطاليين أبناءنا، هذه صرخة وإثارة، وسؤال: ولكن إلى أين نمضي بأطفالنا؟ العديد من الآباء يواجهون هذا السؤال. هذا هو السؤال الذي يتحول في كثير من الحالات إلى مثال للقلق، وأحيانًا الألم، لأن الكثير لا يعرفون إلى أين يتجهون، أو ينظرون، للخروجِ من المأزق الذي وجدوا أنفسهم فيه. وهي إشارة واضحة على الارتباك الذي يسيطر على عصرنا، رغم أنه العصر الذي شهدنا فيها يولد وينمو ويتطور الكثير من الأشياء الجميلة، والكثير من الإنجازات العلمية. لكن الشيء الأعز علينا، وهم أطفالنا، لا نقدم إليهم أي شيء ذي مغزى يمكن أن يوجههم حقا في الظلام الذي يحيط بهم.

يلتقط الدارس والمراقب الحاد، بوليتو، التحدي الأكبر الذي اضطر المجتمع أن يواجهه، أي التحدي التربوي، والذي لا تعتبر التحديات الأخرى، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إلا عواقب له. وهو لا يكتفي بتحديد التحدي، ولكنه يذهب إلى تحديد ذروته: الآباء، أو

الكبار على نحو أعم سيان كانوا من الآباء والمربين والمعلمين أو الكهنة – بمعنى كل أولئك الذين، إلا من رحم ربي، لم يكن بوسعهم تقديم فرضية استجابة على مستوى يلبي احتياجات الشباب –. «من منا من الآباء [...] يمكن أن ينكر الحقيقة، أو ينكر أن كل شيء من حولنا يقول لنا أن التربية (بمفهومها الأوسع بكثير من مجرد التعليم) هي العامل الحاسم لنجاح أي مجتمع، وفي قلبه، أطفالنا؟ فلماذا تنازلنا تماما عن أداء وظيفتنا التربوية ونتحول إلى مراقبي حسابات هزليين لأطفالنا؟[١]» هذا هو التحدي.

كيف نوثق هذا التنازل من جانب الآباء عن وظيفتهم التربوية؟ أساسًا بطريقتين.

إساءة فهم الرغبة في الاعتراض من جانب الأبناء

يريد الآباء والأمهات بأي ثمن تجنيب مشقة الحياة على أطفالهم: «بدلًا من أن نكون آباء وأمهات، تحولنا تدريجيًّا إلى مراقبي حسابات لأطفالنا، دائمًا على استعداد دائم للاصطدام بهم بما يمهد طريقهم نحو العدم [وهذه كلمات قوية]، لأننا لم نضع هدفًا طموحًا لا يعوق الطريق تحقيقه. إنها ظاهرة ثقافية كبرى، وسمة من الطابع الوطني [...]. وعامل

(١) A. Polito, *Contro i papà. Come noi italiani abbiamo rovinato i nostri figli,* Rizzoli, Milano 2012, p. 16.

كبير يكبح النمو في البلاد، ليس النمو الاقتصادي وحسب، بل والنفسي أيضًا»[٢].

بدلًا من إطلاق الشباب الطموح نحو تحقيق الهدف وفقًا لاحتياجاتهم، وتطلعاتهم، وقلوبهم، الذي يقود إلى طرق وعرة، يتعذر الوصول إليها بالضرورة، فضلنا تمهيد طريقهم حتى لا يبذلوا كثيرًا من المشقة وتجنيبهم مشقة الصعود. بدلًا من «ظلوا جياعًا، ظلوا حمقى» التي قالها ستيف جوبز، في خطابه الشهير في جامعة ستانفورد، فضلنا «ظلوا شبعانين وظلوا متوافقين»[٣]. من المسؤول عن ذلك؟ «الذنب ذنبنا. I الحقيقيون الأطفال هم نحن»[٤]، كتب بوليتو. وقد اتبعنا نموذجًا اجتماعيًّا يهدف إلى تسهيل حياة أطفالنا، دون أن ندرك أننا بذلك، وباسم أطفالنا، ندمرهم. «لا نريدهم أن يجوعوا ولو للحظة. بل بنينا بالفعل حياتنا ومجتمعنا وفقًا لاحتياجاتهم من التغذية. [...] لخدمة حماية الأطفال من الحاجة، بعواقب اجتماعية كبيرة وليست دائمًا إيجابية»[٥].

لقد عشنا، «إحساسًا مضللًا للحماية تجاه أطفالنا ينم عن عدم ثقة جماعية في الوسائل التي يملكونها، والخوف من السماح لهم بالسباحة مبكرًا اعتمادًا على قواهم الخاصة بهم. وهم يشعرون بانعدام الثقة هذا، وبأنه يخفض عندهم تقديرهم لأنفسهم»[٦]. هذه التصريحات تبدو لي

(٢) المرجع السابق ص ٢١.
(٣) المرجع السابق ص ١٢.
(٤) المرجع السابق ص ٢٣.
(٥) المرجع السابق صفحات ١٢-١٣.
(٦) المرجع السابق ص ٢٠.

حادة، وكيف أننا بحمياتنا لهم نصدر حكما على قوتهم وقدراتهم، وعلى إمكانية أن يحققوا ذواتهم وأن ينموا ويتطوروا. ولا نقول هذا في الواقع صراحة، ولكنهم يدركونه على أي حال. باختصار، نحن نمارس أبوية شريرة ونبني مجتمعا «خاملا»، يميل إلى حماية الشباب من بذل أي جهد.

لأنه يقتل التناغم وفقًا لما قاله الأب جوساني عام ١٩٩٢، في مقابلة مع صحيفة كوريري ديلا سيرا: «تخيفني [...] إيطاليا. [...] إنها حالة حضارية لا يوجد فيها مثل أعلى مناسب، حيث لا يوجد شيء خارج الجانب النفعي. نفعية متواصلة ليس لها مهرب مثالي. يستحيل أن يستمر هذا. الخوف كل الخوف من إطلاق العنان لصراعات لا تنتهي. [...] ولكن لماذا حدث كل هذا؟ أنت تستطيع أن تخبرنا وقد شهدت على أجيال كثيرة وهي تنمو. ما هو العامل الذي جعل كل هذا التدهور ينفلت؟ لم يطرح على كل هذه الأجيال من البشر شيئًا. إلا شيئًا واحدًا: وراثة النفعية من الآباء. هل تتحدث عن عبادة المال؟ عبادة المال أو تأمين حياة رغدة بلا مخاطر. قوامها الأشياء دون أية مخاطر. [...] ومن يدري إذا كانت هذه الرغبة لجعل الحياة أقل صعوبة لأطفالهم، أو لمجموعة معينة من الناس، تخفي في جزء منها أفق العقل. بمعنى هل يفهم هؤلاء الذين لديهم هذه الرغبة ما إذا كانوا يحتاجون لمثل أعلى، لأمل، حتى يستطيعوا تحقيقها»[٧].

(٧) L. Giussani, "Don Giussani: il potere egoista odia il popolo", intervista a cura di Gianluigi Da Rold, *Corriere della Sera,* 18 ottobre 1992; ora in L. Giussani, *L'io, il potere, le opere,* op. cit., pp. 214-219.

إن الآباء، بتجنيبهم هذا الجهد وحمايتهم من الحاجة، يعتقدون أنهم يفعلون الخير للأطفال، بينما هم الواقع يمهدون لهم الطريق نحو العدم. ويرى أوجينيو سكالفاري أن الجرح الشباب ’هو فقدان الهوية والذاكرة». وربما أمكنني أنا أضيف سببًا، وهو أن شخصًا ما قد نزع من مجالهم البصري هذه الهوية. وهو أمر فريد: أولًا نفعل كل شيء لكي نفقد الشباب هويتهم، ثم نشكو من أنهم فقدوها. «كان الجرح أيضًا هو صمت الآباء المنخرطين بكل قوة لاقتناص النجاح أو السلطة»(٨).

اليوم، نواجه أزمة إنسانية عميقة، تتمثل في سلبية كثير من الشباب، الذين يبدون عاجزين عن الاهتمام بأي شيء مفيد حقًا، أو بموجة من شكوك الكبار الذين لا يصل منهم للشباب شيء يستحق عناء أن يلتزموا به بحذافيره. ونتيجة لهذا، يبدو الشباب كما لو أنهم لا يجدون مثلًا في طريقهم، أو منظورًا للحياة يستحق السير على هديه حتى يحققوا إنسانيتهم من خلاله. وهكذا يبدو أنه ليس هناك شيء بوسعه أن يجتذب الشباب ويحركهم، ومن ثم - كما يحدث غالبًا في مدارسنا - يسود الملل.

يمكننا أن نقول، أن الآباء قد ارتكبوا خطأ كبيرًا. ولكن أين كان الخطأ؟ في الالتباس حول طبيعة قلب الإنسان. فقد قررنا التصدي لمشكلة الشباب، وتربيتهم، والتقليل من تلك الاحتياجات، واخمادها بالمناور ببعض الأمور وتذليل العقبات، بدلًا من إيقاظها، وتجميعها واستنفار التحدي لها. وتجاهلنا الجانب الإنساني فيهم كما هو الحال فينا، هذه

(٨) E. Scalfari, “Quel vuoto di plastica che soffoca i giovani”, *la Repubblica*, 5 agosto 1999, p. 1.

الأشياء الخاصة بالأنا، والتي احتفى بها ليوباردي بطريقة عبقرية لا مثيل لها، وتتلخص في الرغبة الجامحة في اللانهائي: «الطبيعة البشرية، كيف/ إذا كانت في كل شيء خسيسة،/ وإذا كنت من تراب وظل، تشعر بأنك سام نبيل؟»[٩].

لهذه الطبيعة البشرية - وهذه هي طبيعة شبابنا وطبيعتنا - لا يمكنك الاستجابة بأقل الأشياء، وهي النفعية، مع الطيبة العاطفية التي لا تقدر ولا تواجه تحدي السؤال البشري العميق.

تقليص الأنا إلى عوامل سابقة عليها

وينقلنا هذا إلى خطأ ثان، شجبه بوليتو، الذي يعرف السبب الجذري للتهيئة التربوية الفاشلة التي ينقدها اليوم في كتابه - وهو اتهام أوافق عليه جدًّا - : أصل المشاكل ثقافي في الأساس. فعن أي خطأ كان يتحدث؟

ما «جعل منا آباءً سيئين هو فكر القرن العشرين. فاكتشافه الأعظم هو تحديد القوة الخارقة، سواء المادية أو البيولوجية والاجتماعية، القادرة على أن تنزع عن كاهل الإنسان مسئوليته عن أخطائه. فلسفات الإرضاءين الكبرى. مثل نظام الفكر الذي ابتكره فرويد، وأصبحت فيه الأنا العقلانية الواعية، وهي موضع المسئولية الفردية، أصبحت بائسة فقيرة تحت رحمة قوى أكبر منها، واضعا بذلك «الأساس لتقليص

(٩) G. Leopardi, “Sopra il ritratto di una bella donna scolpito nel monumento sepolcrale della medesima”, XXXI, vv. 49-51, in *Cara beltà*…, op. cit., p. 97.

الأخلاق في علم النفس.» (فاليريا ايجيدي موربورجو). [...] أو فلسفات مثل الماركسية، التي نقلت إلى المستوى الاجتماعي نفس الآلية مع انعدام المسئولية. هل تتذكرون أحد مبادئها الشهيرة؟ الكائن الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي، وليس العكس. ومن ثم فإن وعينا ليست سوى خادم، يذهب حيثما يحمله الصراع الطبقي. ولا يمكن تحرير الإنسان إلا أن تكون نتيجة لعملية جماعية تجري علينا [...]. لقد انتهت كل مسئولية فردية، وبات كل شيء يتحرك في عمليات وتحركات جماعية. ويكتب روبرت أردري عالم الأنثروبولوجيا في كتابه «العقد الاجتماعي»: «هي فلسفة دفعتنا لعقود أن نعتقد أن ذنوب الإنسان يجب تحميلها دائما على أكتاف شخص آخر؛ وأن مسؤوليات السلوك الضار بالمجتمع ينبغي دائما أن تعزى إلى المجتمع. وأن البشر يولدون ليس فقط قابلين للتحسين، وإنما أيضًا سواسية، لذلك يجب أن ينسب أي صراع خطير بينهم لشدة الظروف البيئية ... ». [...] وأخيرًا النظرية الداروينية. [...] التي تفسر جميع السلوكيات البشرية باعتبارها عواقب حتمية للتاريخ التطوري للأنواع، وليس كاختيارات واعية على نحو ما من الأفراد. الخوف والشجاعة، والأنانية والإيثار والكسل والمغامرة: لا شيء من هذا يمكن أن نعزوه إلى التعليم الذي تلقيناه، المثال الذي عرضوه علينا، والثقافة التي عشناها. فكل شيء يعود للطبيعة، وكل شيء يأتي من أجدادنا والغرائز التي تطورت لدينا في طريق الكفاح من أجل البقاء للأقوى»[١٠].

(١٠) A. Polito, *Contro i papà,* op. cit., pp. 26-28.

وبعيدًا عن استحقاق التحليل والمراجع فمن المهم فهم مدى هذا الفشل. إن الإنسان الذي تقلص إلى سوابقه البيولوجية والتاريخية، يصبح دمية، ألعوبة في أيدي «القوة الخارقة»: راحت الأنا، وأصبحت مثل حصاة اجتاحها مجرى النهر بعيدا عن هذه القوى. إن «الأنا»، باعتبارها شخصية مستقلة، لديها القدرة على الحرية، وقادرة على العمل كموضوع في التاريخ، لم تعد موجودة بعد أن تم تفريغ كل شيء على السوابق من كل نوع، النفسية والاجتماعية والبيولوجية. ويسميه بوليتو "أفيون استبعاد المسئولية». عندما لا توجد «الأنا» لا توجد الحرية، لأن كل شيء يتم بواسطة هذه العوامل، وهكذا تستحيل المسئولية في مواجهة استفزازات الواقع.

وقد نتج عن هذه العقلية تصور معين للإنسان: «روسو أطلق على الطفل وصف (أبله كامل). وفي عام ١٨٩٠ ووصف وليام جيمس الحياة العقلية لحديثي الولادة بأنها (ارتباك كبير لعين مزعج). وبسبب هذا الافتراض نتكلم ونتصرف، مقتنعين أننا في حضرة (بلهاء)، أمامهم وكأنهم لا يسمعوننا أو يفهموننا أو يحكمون علينا. أنا لا أعرف الحال عندك، ولكنني لم تمكن من البقاء في غرفة مع أحد أبنائي من سن سبعة/ إلى ثمانية أشهر دون شعور واضح بحواسه الخمس مفتوحة على مصراعيها؛ ودون أي شعور مزعج بأن داخل تلك الأجسام التي لا تزال غير قادرة على الحركة، وإطعام نفسها تطن دائما عقول تعمل بالفعل»[١١]. يتعلق الأمر هنا بنقطة يجب إلا تفوتنا. وكما هو موثق في هذا الاعتراف، على الرغم من كل التقليص الذي مارسه فكر القرن العشرين، فإن التجربة الابتدائية

(١١) المرجع السابق ص ٦٧.

للعلاقة مع أبنائنا تمنعنا من الخضوع باطمئنان إلى هذا الا التقليص. كما لو أن لدينا تصورا محسوسا بأننا لا نستطيع أن نختصرهم على المنوال نفسه الذي كنا نختصرهم به، أي اختصارهم إلى مجرد أفكار لنا.

«أنتم تفهمون جيدا أن الأمر لو كان كذلك فإن سلوكنا كآباء ربما كان خطأ وربما وجب تغييره جذريًّا [إذا كان للأطفال عقول تعمل فلابد من تغيير شيء ما]. فلم يعد «طفل مسكين» صغير جدًّا على أن يفهم» [...]. فالطفل يفهم، ويتفهم أن هناك صواب وخطأ»(١٢). حاولوا أن ترتقبوا ظلما في حقه، أو معاملته بطريقة خاطئة، وسوف ترون إن كان يفهم أم لا؟ الطفل أبعد ما يكون عن أن يختصر إلى السوابق البيولوجية والعوامل النفسية وغيرها!

أما أولئك الذي بدلًا من الاعتراف بأصالتهم، وبأن الأطفال لديهم عقول تعمل، تجدهم يروجون «ثقافيًّا» للعقلية التقليصية التي أشرنا إليها، والذين يصلون إلى نتيجة هي انعدام الأنا، وهم الذين يسميهم بوليتو «بالمعلمين الأشرار». «وهناك غيرهم من الكبار الذين يلحقون ضررًا لا يقل عن ضرر الآباء. بمعنى أنهم يحلقونها بجيل كامل من الأطفال. إنهم المعلمون الأشرار، بالمعنى الحرفي للكلمة وليس بالمعنى المجازي للمصطلح: الناس التي تسيء التعليم وتعلم أشياء خاطئة، ومناهج تقريبية، وأفكار خبيثة. مجموعة كبيرة من الثوريين القدامى المتخلفين عن ثورة عام ٦٨ والذين بدلًا من أن يحققوا نجاحًا في السياسة أو في المصانع،

(١٢) المرجع السابق ص ٦٨.

حققوه في الأوساط الأكاديمية أو في الإعلام، وها نحن اليوم نراهم على شاشات التلفزيون، وفي أكشاك بيع الصحف أو المكتبات على مرأى من عيون شبابنا، وهم يعلمونهم كيف كان العالم وكيف سيكون، بكلماتهم وبصورهم. ومن خلال كلماتهم وصورهم يتعلم أطفالنا الأمل أو اليأس. ولذلك، فإن دور الآباء-الإعلاميين هؤلاء يمكن أن يكون أكثر أهمية من الآباء البيولوجيين»[١٣].

هنا، إذن، تظهر النتيجة المرة: «نحن الجيل الأول من الآباء في التاريخ الذين أنتجوا استراتيجية معقدة وشديدة الأنانية للبقاء من خلال مبدأ الفوز بالنوايا الحسنة تجاه أبنائنا. نتظاهر بأن تفعل ذلك لصالحهم، ولكننا في الواقع أننا نفعل ذلك لصالحنا نحن. ويقول أيضًا: «لقد شاخ مجتمعنا في آماله وفي تطلعاته، قبل أن يشيخ في أعماره»[١٤]. وباختصارنا للإنسان إلى سوابقه البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية، نزعنا من الإنسان ومن الأطفال كرامتهم، وهو ما نعبر عنه بالطريقة التي ننظر بها إليهم، وحكم يقرؤونه في الطريقة التي نعاملهم بها، أكثر بكثير مما يمكننا أن ندركه.

ولكن يكفي الحد الأدنى من العلاقة معهم لمعرفة أن الأنا موجودة وأن فيها شيء غير القابل للاختزال إلى هذه «السوابق» يسميه الأب جوساني «التجربة الابتدائية»، وهي مجموعة من المتطلبات - الحقيقة، والجمال والعدالة والسعادة، والاكتمال - الذي هو جوهر الذات الإنسانية. بقوة هذا الشيء يفهم الشباب، يفهمون جيدًا جدًّا! ليس عليهم أن

(١٣) المرجع السابق صفحات ١٣١-١٣٣.
(١٤) المرجع السابق ص ١٤٣-١٤٤.

يحضروا دورة تدريبية لكي يروا كما هي ظالمة الطريقة التي نعاملهم بها، وأننا لا نحبهم، ولا نعطيهم من وقتنا. إن حرمانهم من القدرة على الحكم هو حرمان لهم من الكرامة، كأننا نقول لهم: «أنت أحمق وأنا الذي سأوضح لك كيف تسير الأمور.» لكنهم يفهمون جيدا كيف تسير الامور، لأنهم لديهم في الأصل معيار الحكم، ولديهم بداخلهم التجربة الابتدائية، وتعبر عنها المتطلبات الأساسية: لا يجب أن تذهب إلى جامعة هارفارد وتلتحق بدورة حول العدالة لكي تعرف أنه قد التعامل معهم تعاملًا ظالمًا! حاولوا أن تتعاملوا معهم بشكل غير عادل ولن يجعلوكم تنتظروا حكمهم! بل إن الحقيقة هي أن أطفالنا وفتياننا أكثر حدة منا في التفريق بين العدل والظلم، أكثر صرامة وقسوة في معرفة الصحيح والزائف: ما نحن إلا هواة مقارنة بوضوح أحكامهم على الأشياء. ولكننا نعتقد أنهم غير كفؤ، وغير قادرين على الحكم.

وإذا عاملناهم على حقيقتهم فسوف يتغير تعاملنا بشكل مدهش! ومع ذلك كما يقول البابا بندكت السادس عشر فقد اتضح وجود «ظلامية في الفكر» لدى بعض الأشخاص، حتى القادرين منهم(١٥)، لذلك فإن كل ما هو ابتدائي لم يعد سهل الرؤية. وعندما تحدث لدينا هذه الظلامية فإننا من ناحية نقلص كرامة شبابنا، وقدرتهم على البقاء، ذواتهم، بكل ما تحمل من قدرة على التطور، ومن ناحية أخرى نضيق فكرتنا عن الحب ليتحول إلى أدب وتهذيب وحسن خلق، بينما من المفروض أن يظل حبا للحقيقة.

---

(١٥) Benedetto XVI, *Luce del Mondo. Il Papa, la Chiesa e i segni dei tempi. Una conversazione con Peter Seewald,* LEV, Città del Vaticano 2010, p. 47.

اقتراح حي

فإذا كان هذا هو الموقف، يلزم الوعي بالنقطة التي ننطلق منها وهي «العقول التي تعمل» كما قال بوليتو، أي هذا القلب الذي لا يمكن اختصاره في عوامل سابقة، أي كل ما هو إنساني، باحتياجاته وتطلعاته. هو هذا التطلع الذي يحتاج إلى الاستيقاظ وأن يجد استجابة مناسبة. وفي مواجهة هذه «النقطة الملتهبة» كما يسميها بافيزي يجب أن يتخذ المقترح شكله بما يتناسب مع كل ما هو إنساني. الآن، كما ذكرنا في البداية، فإن هذه النقطة الملتهبة تلفها غلالة غائمة، ويغطيها الملل. وسوف تظل هذه النقطة مدفونة عند الشباب ما لم نعثر على علاقات ترتفع إلى مستوى احتياجاتهم (التي غالبًا ما يحاولون تغطيتها بالكثير من الانحرافات).

والسؤال، إذن، من هو القادر على إيقاظ النقطة الملتهبة، الأنا الخاص بالشباب - كما هي الأنا بالنسبة للكبار-. وهذا هو التحدي الذي علينا جميعا مواجهته أمام جيلنا ومؤسساتنا: المدرسة، والأسرة، والكنيسة، والأحزاب، ورجال الأعمال، الجميع.

لإيقاظ الأنا من سباتها، ومن الملل المستعصي، لا تكفي الدروس وحدها، ولا يكفي استدعاء الخلق الحميد (رغم أنه قد يكون من المستصوب ذلك) أو الخطب؛ يلزم وجود شخص راشد قادر في حياته على إثارة اهتمام الشباب بوجوده، وبمصيره. ولكن من الصعب أن تجد الراشدين من غير المشككين. كم مرة في الجامعة وجدت نفسي أحاور

شبابا يقول لهم والداهم في مواجهة تشوقهم للمثالي: «لا، سوف ترتب لك الحياة كل شيء تدريجيًّا».

شاهد واحد فقط، يجسد طريقة الحياة التي تجذب القلب، وتتحدي العقل، وتطلق الحرية، ويمكنه أن يوقظ تلك النقطة الملتهبة، ذلك الاحتياج الخفي؛ ومن يلتق به لا يستطيع أن يهرب من سحره، ومن التحدي الذي يجلبه حضوره في الحياة. ويرى بولس السادس في هذا المعني، أن لدينا اليوم حاجة إلى المزيد من الشهود أكثر من المعلمين[١٦].

وباختصار، نحن بحاجة إلى مقترح حي، إلى شاهد أو – بكلمة لا يعتبر استخدامها السياسي صحيحا اليوم، ولكننا إذا حررناها من دلالاتها التي ربطناها بها أحيانًا وإذا قلناها بمعناها الأصلي تصبح حاسمة – سلطة، أي شخص يساعد على النمو، أتولد بحضوره. يلزم وجود سلطة، حضور يتحدى «النقطة الملتهبة» يطلقني نحو تحقيق هذا «الهدف الطموح» الذي خلقت بهيكلي الإنساني من أجله. «خبرة صاحب السلطة فينا كلقاء مع شخص ثري الوعي بالواقع؛ وهكذا يفرض نفسه علينا كاشفا، ويجدد ما فينا من جدة ودهشة واحترام. وفي ذلك عامل جذب حتمي فيه، وعامل خضوع لا مفر منه فينا. إن تجربة السلطة تستدعي بالطبع تجربة الفقر والعوز الواضحة نسبيًّا. وهذا يؤدي لا تباعها ولجعلنا (تلاميذها)»[١٧].

(١٦) Cfr. Paolo VI, *Discorso ai Membri del "Consilium de Laicis"*, 2 ottobre 1974.

(١٧) L. Giussani, *Il rischio educativo,* op. cit., p. 83.

ولكن علينا أن نخص عاملا آخر بالذكر. «للاستجابة على نحو كاف للاحتياجات التعليمية للفتيان [تلك الاحتياجات التي تواجهنا اليوم] لا يكفي أن نطرح بوضوح معنى الأشياء، كما لا يكفي تكثيف السلطة الحقيقية لمن يطرحه علينا. يلزم أن نثير [في الآن نفسه] في نفس الفتيان [شيئا من] الالتزام الشخصي بأصله [بدون ذلك لن يحقق الشباب أنفسهم، لذلك لا يمكن تجنيبهم هذه المشقة]. يلزم التحقق من المناهج القديمة، ويجب أن يقوم الطالب بهذا، ولا أحد بديلا عنه». واقتراح المعنى يجب اخضاعه للاختبار من جانب الأبناء: التحقق من أن له علاقة باحتياجات الحياة، وبقدرته على التصدي لجميع التحديات للواقع. دون هذا الاختبار لن يصبح هذا الاقتراح خاصا بهم، ومن ثم سوف يتعرضون لخطر أن يضلوا الطريق. ولهذا «فإن التربية الحقيقية يجب أن تكون تربية على النقد». والنقد هو المقارنة بين ما يتم تقديمه لنا ورغبات القلب: «إن المعيار النهائي للحكم، في الواقع، هو فينا، وإلا أصابنا الاغتراب. والمعيار النهائي، الذي هو في كل واحد منا، متطابق: الاحتياج للحق، للجميل وللخيّر. [...] لقد كنا خائفين جدًّا من هذا النقد»(١٨) من هذا الاختبار ومن هذا الخطر - قال جوساني - ولكنهما على العكس لا غنى عنهما إذا أردنا أن يخلفنا شخص مستقل ذاتيًّا.

«غرض التعليم هو تكوين إنسان جديد؛ ولذلك فإن عوامل التعليم النشطة يجب أن تسعى إلى ضمان أن يتصرف الطالب أكثر وأكثر اعتمادا على نفسه، واعتمادا على نفسه باتجاه البيئة [الظروف]. وسيلزم بالتالي من

(١٨) المرجع السابق صفحات٨٣، ٨٧، ١٧، ١٨.

ناحية وضع الإنسان الجديد دائما داخل عوامل البيئة، ومن ناحية أخرى أن نترك له دائما مسئولية الاختيار، باتباع خط تطوري، يحدده الوعي بأن الشاب سوف يتوجب عليه أن يكون قادرا أن يتصرف «من تلقاء نفسه» أمام الجميع. إن المنهج التربوي لتوجيه الفتيان إلى اللقاء الشخصي والمستقل بشكل متزايد بالواقع الذي يحيط به كله، يتم تطبيقه بازدياد، وبالتدريج مع زيادة عمر الصبي (وإلا ستكون النتيجة أنه لا ينمو)».

عند هذه النقطة يظهر دور المعلم بحسم، وضرورة وجود تناسق بشري: «إن توازن المربي يكشف هنا عن أهميته التامة. في الواقع، يمثل تطور استقلالية الصبي «خطرًا» على ذكاء وقلب المعلم، وكذلك الحب الموجه له. من ناحية أخرى، تتولد من خطر المواجهة بالتحديد داخل الشاب شخصيته، في علاقته بكل الأشياء أي تتحقق حريته. [...] يجب أن يقوم الشاب بنفسه بهذه التجربة، لأنها تمثل إشباعًا لحريته. وهذا الحب للحرية إلى حد المخاطرة هو في المقام الأول توجيه يجب أن يراعيه التعليم. [...] التعليم الذي يقبل بيقظة خطورة حرية الشباب هو مصدر حقيقي للإخلاص والتفاني الواعي للفرضية المقترحة ولأولئك الذين يقترحونها. إن صورة «المعلم»، على وجه التحديد بسبب هذا التقدير والاحترام، تنسحب إلى الوراء على نحو معين خلف الصورة المهيمنة للحقيقة الواحدة، والتي تستوحي منها؛ ويصبح تعليمه وتوجيهه شهادة، ولهذا السبب نفسه يصبح مسجلا في ذاكرة التلميذ بتعاطف كبير وصادق ومستقل - في

أعمق مستوى – من خلال صفاته الخاصة. ولذلك لدينا امتنان ورابطة لا يمكن تجاهلها تجاه المعلم، وكذلك قناعة مستقلة عنه»[١٩].

دعوة للحرية

لا تهدف العملية التعليمية إلى «إقناع» الآخرين بما نؤمن به – ففي هذا سرقة أدبية –: وإنما في قلبها توجد حريتان لهما علاقة ببعضهما البعض.

تتحرك الحرية دائمًا بالجاذبية، لأن قلب الإنسان متعطش للحقيقة: ويسعى كل منها إلى ما يستجيب إلى احتياجاته الأصلية من الخير والجمال والمعنى والعدالة والسعادة التي أوقظتها أحداث الحياة. التعليم إذن دعوة لحرية الإنسان، حتى يتمكن من بدء رحلته لاكتشاف حقيقة الأشياء. وإذا لم يحدث هذا، فإن الفضول والعاطفة، وحتى الأشياء التي تثير، سوف تختفي عاجلا أم آجلا ويفوز الملل، لأن الحقيقة هي وحدها القوة التي تدوم مع الوقت. ديناميكية الحرية ليست تعسفية، ولا تعني أن تفعل ما يحلو لك، لأن الإنسان يصبح حرا حقا عندما يدرك معنى الواقع ويتقيد به، ودون هذا المعنى يغيب المبرر المناسب للحياة.

والتعليم تحد كبير يواجهه قلب الإنسان وبدونه يستحيل تطور الشخصية عقلا وحرية. وكلما كان الشباب أكثر تحديًّا في عقولهم وحريتهم، كلما كانوا متحمسين للمشاركة في المشروع التعليمي. إن

(١٩) المرجع السابق صفحات ١٠٣-١٠٥، ١٠٧.

مشكلة الشباب، إن وجدت، هي أنهم لا يجدون الكثير من الكبار الذين يتحدونهم ولهذا يتدهورون.

وأود أن أختتم بنص من طاغور، والذي يقول إن كل الحب الذي يجب أن يكون لدى أب أو معلم هو الحب تجاه من يريدان له أن ينمو، وعندما يوجد هذا الحب، فإن الشاب يتعرف عليه، لأنه يترك له المساحة لكي ينمو: «في هذا العالم أولئك الذين يحبونني/ يحاولون بشتى السبل/ إبقائي منجذبين إليهم./ حبك أعظم من حبهم/ ومع ذلك تتركني حرًا»[٢٠]. الحب يحرر ويترك المساحة لحرية الآخر، حتى ينمو. هذا هو التحدي الذي يطرحه علينا الشباب والذي يجب علينا نحن الكبار أن نقبله.

(٢٠) R. Tagore, “In questo mondo…”, in *Ghitangioli*, Guanda, Milano 1976, p. 167.

١٢

التواصل مع النفس

التعليم موضوع قريب جدًّا من قلبي، خاصة أنني كنت أقوم بالتدريس لفترة طويلة.

التحدي الحالي

إذا كان هناك تعبير مشترك يمكن أن نجد فيه أنفسنا اليوم، فهو: «الطوارئ التعليمية»، لأننا نرى متاعب مجتمعنا (المجتمع هو نحن، وأنتم أيها المعلمون، وكذلك الآباء) في بث مبررات للحياة، أي، لإدخال أعضاء جدد حقا من شعبنا إلى الواقع.

ما هي باختصار علامات هذه الطوارئ التي لا تخطئها العين؟

بالنسبة للطلاب، ربما أصف الوضع اليوم بكلمة واحدة: عدم الاهتمام. يصعب على أي شخص يذهب إلى العمل كمدرس أن يعثر على طلاب على استعداد للدراسة باهتمام بما يجب عليهم تعلمه. لذا فإن

المسألة الأولى لأي مدرس هي كيفية إثارة الاهتمام بما يعلمه. واليوم، بعبارة أخرى، لا يمكننا أن نعتبر الموضوع الذي يريد أن يتعلمه مضمونا؛ والحقيقة أنه ربما يوجد الآلاف من الأساتذة الموهوبين للغاية المستعدين لتدريس جميع معارفهم، ولكن المشكلة هي أنه لا يوجد طلاب متلهفين للتعلم.

فماذا نفعل لإحياء الاهتمام، وكيف نعمل على توليد الموضوع؟ بأي طريقة نقف أمام الشباب وماذا يجب علينا تدريسه لبدء العملية التي تسمح لطلابنا أو أبنائنا بدخول العالم الحقيقي؟ والسلبية هي النتيجة التي تنشأ عن فقدان هذا الاهتمام، لأن ما يطرح عليهم غير قادر على الاستحواذ عليهم وتحريك قدراتهم. وهكذا نرى العديد من الطلاب «متعطلين» في المدارس أو غيرها من المجالات. ولكننا، نحن الكبار، لسنا في كثير من الأحيان مختلفين عنهم. وقد لوحظ لدى العديد من المعلمين تعب أو شعور بالوحدة أمام الصعوبات التي يواجهون إياها. ما زلت أتذكر أحد زملائي من الأساتذة، وهو داخل إلى المدرسة الدينية حيث كنت أسكن، وكان مستاء قليلا من الدرس. سألته: «ماذا حدث؟» أجابني: «انظر، لقد أخبرت طلابي للتو أن مستوى رضائي عن عملي يقل عن مستوى رضا الميكانيكي، لأن الميكانيكي، إذا أخلص في عمله يستطيع أن يجعل السيارة تعمل، بينما أنا أخلص في عملي للغاية ومع ذلك يرسب نصف عدد طلابي كل عام». وحتى استفزه سألته: «ولكن هل هذه حالة عامة؟ ماذا يفعل الزملاء الآخرون؟». وأجاب: «يغيرون الطريقة مرة، مرتين، ثلاث مرات ... حتى يتوقفوا».

يؤثر هذا الوضع علينا نحن المعلمين وكذلك على الطلاب. في الواقع، ماذا يفعل المرء بعد أن يتوقف عن المحاولة والبحث؟ يتصرف مثل الطلاب: يقضي ساعات الدروس، ثقيلة على قلبه. تخيل أي اهتمام يمكن أن يوقظه مثل هذا الأستاذ في الطلاب! هذا النقص في الاهتمام في واقع الأمر يؤدي لا محالة إلى السلبية، ويجعلنا نفهم طبيعة الأزمة التي نشارك فيها وأنها ليست مشكلة المدرسة وحدها بل أزمة إنسانية. تم توثيق ذلك في غياب العديد من الشباب عن الدروس، من الذين ظهروا غير قادرين على الاهتمام بشيء دائم، وفي التعب والشعور بالوحدة والشك لدى كثير من المعلمين، الذين لا يجدون شيئًا يستحق أن يكرسوا له كل ما لديهم من إنسانية. لذلك، لا يتمتع هؤلاء المعلمون بالقدرة على المشاركة، وعلى جذب الشباب إلى علاقة نشطة مع المادة التي أمامهم. كما يقول بيجوي: «أزمة التعليم ليست أزمة تدريس، إنها أزمة حياة»[1].

يمثل الموقف الذي نجد أنفسنًا فيه تحديًّا بالنسبة لنا. وقد ثبت أن العديد من المحاولات لمواجهته غير ناجحة، مثل القول:

«بما أننا لا نستطيع أن نثير اهتمامهم، فلنمنحهم القواعد على الأقل حتى لا يفيض النهر عن ضفافه؛ دعونا نناشد القوى الأخلاقية للطلاب والشباب». ولكننا نعلم جميعا أن هذا لا يؤدي إلى تحريك الأنا، وحقيقة أننا يجب علينا أن نناشد باستمرار هذا النوع من النوازع الأخلاقية الخارجية يعني بالفعل الاعتراف بالهزيمة.

---

(١) Ch. Péguy, *Lui è qui*, op. cit., p. 39.

السؤال الأول هو ما إذا كنا مستعدين للاعتراف بهذا الموقف بلا مواربة، للتعامل مع الواقع كما هو، أم أننا نفضل البحث عن طريقة لمواجهته دون التركيز على التحدي الحقيقي الذي نواجهه. تساءل القديس أوغسطين: «لكن ما الذي يحرك حميمية الإنسان؟»[٢] أنظر كيف كان هذا القيس معاصرا! في الموقف التي نجد أنفسنا نعيش فيها، ما هو الشيء القادر على تحريك الإنسان في مركز الأنا الخاصة به؟ للإجابة، دعونا نلقي نظرة على ما يحدث لطفل عندما نضع لعبة أمامه: يبدأ كل الاهتمام في اليقظة لديه. لقد ضربت هذا المثال كثيرا: تخيل أنكم في الفصل، وقد حملتم معكم جهازا لا يعرفه التلاميذ، وقد نسيتم السلك الخاص به، وقلتم: «انتظروا لحظة، سأبحث عن السلك.» بمجرد خروجكم من الفصل، كم من الوقت سوف ينتظر التلاميذ قبل أن ينهضوا لكي يلقوا بنظرة بأنفسهم على الطاولة لرؤية ما هو هذا الجهاز؟ إنه الشيء الحقيقي الذي يوقظ الاهتمام فينا. ولكن لا يكفي أن يكون لدى الطفل لعبة أمامه لكي يحافظ على شغفه. ولن يكون كافيًّا عندما يكبر أن نشرح له الكيمياء أو الفيزياء في اللعبة، أو العبارات المكتوبة بالإنجليزية، أو الأبعاد. إذا لم يفهم معنى تلك اللعبة، فسوف ينساها في ركن من غرفته بمرور الوقت. لا تكفي الطفل تفسيرات وبيانات جزئية: العقل هو احتياج للكليات، للمعنى الكامل. لا يوجد تقديم للعبة من دون تقديم لمعناها. ولهذا السبب كررنا دائمًا أن التعليم هو «تقديم للواقع الكلي». وما يحدث مع اللعبة يحدث مع كل شيء: أمام العمل الذي يشغله لساعات

(٢) Cfr. sant’Agostino, *Commento al Vangelo di san Giovanni,* Omelia 26,5.

وساعات كل يوم أو أمام الشخص المحبوب أو أمام غروب الشمس، ليس من الممكن، في نقطة معينة، ألا يأتي للمرء السؤال: «لكن ما هو المعنى؟»

والآن، إذا كان من السهل جدًّا أن الشيء الحقيقي هو الذي يوقظ الاهتمام، فلماذا - كما قلنا - يتسع انعدام الاهتمام؟ السبب هو أن ما دخل اليوم في أزمة هو الرباط مع الحقيقي. هذا لا يعني، على أي حال، أن هذا الرباط ليس موجودًا. لا يمكننا تجنب العلاقة مع الحقيقي. نحن دائما مرتبطون به. لا يوجد رجل أو فتى يقف على مسرح العالم، ولا ينغمس في الواقع، ولا يوقظ الواقع فيه أية أسئلة.

في سيرته الذاتية، قال عالم اللاهوت الفرنسي الأرثوذكسي، أوليفييه كليمينت، أنه كان لديه أب غير مؤمن قام «بتثقيفه» على اجتزاز الأسئلة، لكن هذا لم يمنعه، كصبي، من أن يؤثر الواقعي عليه ويثير فيه التساؤلات. عندما كان في الثامنة من عمره، مات أحد أصدقائه، وكان اسمه أنطوان. وأمام جثة الطفل، نظر إلى والده وسأله: «بابا، أين أنطوان؟» أجابه الأب بما يتسق مع إلحاده قائلا: «أنطوان ليس في أي مكان، إنه ميت». يبدو أن هذه الإجابة قد أغلقت القصة. ولكن في الثانية عشرة، عندما كان يسير مع أبيه ذات ليلة، تحت سماء مليئة بالنجوم، سأله الطفل مرة أخرى: «أبي، ماذا يوجد خلف هذه النجوم؟»

«لا يوجد شيء خلف النجوم».

لا يوجد أحد، ولا توجد قوة في هذا العالم، يمكنهما أن يوقفا هذه الديناميكية: التقاء «الأنا» مع الواقع، الذي يوقظ باستمرار طرح الأسئلة

حول المعنى. لا يمكن لأي قوة أن تمنع إثارة السماء المرصعة بالنجوم لمسألة المعنى. وما يحدث مع النجوم، يحدث مع العمل، مع الحب، مع الزمن، أي مع كل ما يحدث لنا. يواصل الواقع إثارة الأسئلة، حتى في هذه الحالة التي نجد أنفسنا نعيش فيها: هل من المنطقي الاستمرار في العمل، بعد عشرة أعوام أو عشرين عامًا، بكل الفوضى الموجودة الآن في المدرسة؟ يبدو الأمر كما لو أن السر الأعظم، من خلال الواقع، لا يسمح لنا بالهدوء ويواصل الطرق على ابوابنا موقظا الحاجة إلى المعنى. ليست هناك سلطة ولا موقف يمكن أن يوقفه!

لذلك، فإن العلاقة الحقيقية مع الأزمة لا تعني أن هذه الديناميكية لا تستمر في الحدوث: فمن المستحيل ألا يحدث ذلك. إن الرغبة في العثور على جواب تجعل اللحظة التي نعيشها لحظة معقولة، تتكرر باستمرار، وتحت أي ظرف من الظروف، ليس فقط في الظروف الجميلة، بل في السيئة أيضًا، وربما تتكرر أكثر في الظروف السيئة: ما معنى العمل في التدريس؟ في الوضع الحالي؟ وهذه الرغبة في العثور على إجابة هي المصدر الرئيسي لأي جهد تربوي، لأنها تحفز الشغف للمعرفة والتساؤلات في جميع الجوانب. الآن، بما أن هذه الرغبة تتجدد باستمرار، فإننا يجب أن نجيب فورا على السؤال حول ما إذا كان من الممكن العمل بالتعليم في هذه الحالة بنعم.

أين إذن مشكلة ارتباطنا بالواقع؟ يطرحها دون جوساني بهذه الطريقة: أمام الرغبة، وأمام الأسئلة التي يثيرها الواقع، نخضع إلى «إمكانية دائمة

للروح البشرية، [...] إمكانية محزنة لعدم وجود التزام حقيقي واهتمام وشغف بالواقع الكلي»(٣).

الأسئلة لا مفر منها، ولا يمكن تجنب الرغبة في العثور لها على إجابة، ولكن قد لا نأخذها بعين الاعتبار، لا ندع أنفسنا تقودها الأسئلة حتى النهاية، ونعطل الشغف. إنها الحرية التي تدخل على المحك، عندما لا تتبع الاهتمام والفضول الذي يثيره الواقع. وعندما نستسلم لهذه الإمكانية الدائمة للروح البشرية، من عدم الالتزام الحقيقي بالواقع، ماذا يحدث؟ نحن لا نكتشف المعنى، ودون إدراك المعنى، لن يعود الواقع ليثير فينا الاهتمام. إذا لم يعرف الطفل كيفية استخدام اللعبة، فسوف يتركها بسرعة في ركن من الغرفة.

لذا، فإن مسألة أن نكون أو لا نكون عند طرحها على الواقع الكلي لن تكون بأي حال غير ذي بال فيما يتعلق بعلاقتنا معه، ذلك أننا إذا لم ننجح في تصور معنى الواقع، فلن يثير هذا الواقع فينا، لا عاجلا ولا آجلا، أي اهتمام ونحن أيضًا، مثل الأولاد، سنصبح سلبيين.. افترضنا أن المعنى كان إضافة يمكننا الاستغناء عنها: «يمكننا أن نشرح الفيزياء، والكيمياء إلى الصبي، دون أن نعطيه معناهما...»، لقد اعتقدنا أننا نستطيع تقليص التعليم إلى مجرد بث المعارف، ولكن هذا لم يكف للاستمرار في إثارة اهتمام الطالب بما أمامه من مواد. من دون تقديم المعنى، يختفي الاهتمام، الذي يثيره الواقع دائمًا، وتظهر تلك العدمية التي تقمع الرغبة، ليس لأن

(٣) L. Giussani, *Perché la Chiesa,* op. cit., p. 44.

الواقع لا يوقظها باستمرار، بل لأنه لا يمكن الحفاظ عليها إذا لم تجد الأنا الإجابة على متطلباتها التأسيسية من المعنى الكلي. إن غياب المعنى يضعف الرغبة، لأنه يدمر اهتمام الطفل باللعبة.

إن الوضع الموصوف ليس حتميًّا، بل يعتمد على قرار اتخذناه، من عدم الالتزام الجاد بالواقع، من لا أخلاقية تامة فيما يتعلق بالحاجة إلى المعنى الذي يشكلنا. ولكن حذار: نحن نواجه مشكلة لا يمكن الإجابة عليها بسطحية. هذه هي أكذوبة النسبية. نحن نعلم أنها من الأكاذيب لأن الإجابات لا تتوافق مع حاجتنا. لا تعطي الإجابات السطحية معنى للعمل اليومي أو للألم أو للظروف، حتى لا تصبح قبرًا بالنسبة لنا. لذا فإن مشكلة تعليم الشباب تكمن في هذه الفرضية: إذا كانت لدينا استجابة كافية لعاجلات الحياة، يمكننا توصيلها من خلال الحياة. فالتعليم ليس مشكلة الأطفال، بل هو مشكلة للكبار ومشكلتنا: فقط إذا كنا نحن الكبار لا نفتقر إلى ذلك الالتزام بالواقع في مجمله، والذي تحدثنا عنه سالفا، يمكننا أن نكتشف بالمعنى وبالتالي يمكننا أن نعبر عنه. أنا متحمس لهذا، بالتحديد لأنه لا يوجد مانع، ولا أي ظروف توفر علينا هذا الالتزام. لا يمكننا الحصول عليه من تعليمات الاستخدام! هذه هي نعمة الاضطرار إلى التعامل مع الشباب: فهم يوضحون لنا أننا لا نستطيع أن نفلت من التعليمات وأن أي استجابة ليست كافية، كما نرى في علامات السلبية أو الإرهاق. هذا هو السبب في أننا بحاجة للبدء في مواجهة الموقف بلا مواربة. هل نريد أن نصفي الحساب أم أننا نريد القيام بشيء ما بجانب الحياة والمشاكل؟ هل هناك أي أمل في السياق الحالي؟ هل هناك أي شيء

يمكن أن يحرك الإنسان في حميميته؟ والتساؤل هو نفسه: كيف يمكنني أن أكون هناك؟ كيف يمكنني أن أقول: «أنا موجود»، مع نفسي، أمام الأولاد في المدرسة، أمام أطفالي وفي الواقع؟

كيف يمكن أن يحدث

للإجابة على هذه الأسئلة يجب ألا ندور في الفراغ. مرة أخرى، يجب أن ننظر إلى تجربتنا: هل حدث في حياتنا شيء أيقظ اهتماماتنا، شيء أعادنا على مسارنا الصحيح؟ ما الذي سهل استعادة الالتزام الحقيقي فينا؟ هل يمكننا تحديد شيء حقيقي؟ وأجيب: نعم، وهذا هو ما نسميه «اللقاء». التقينا بجاذبية ناجحة، حقيقة إنسانية حملت في حد ذاتها فرضية المعنى سحبتنا معها. كانت هذه حقيقة من القوة بحيث أنها تسببت في دفع حركة «الأنا» كلها لدينا. ربما حدث ذلك بطرق مختلفة: التفضيل، شيء اضطررنا للاعتراف به، شيء استحوذ علينا وأعاد إيقاظ احتياجاتنا. «يتميز اللقاء بخاصية الإتيان بالجديد والقيمة التي لا مثيل لها. ولكن من خلال عبارة، كلمة واحدة، إيماءة، نرى اللقاء يحف بالواقع مع التراث القديم قدم التاريخ. اللقاء مع تلك الجماعة، أو مع ذلك الرفيق ينقل إلينا بلاغا نابعا من حياة القرون، من التراث»[٤]. ولماذا يحركنا اللقاء؟ لأنه يحمل في داخله ما يتوافق مع القلب: فهو يقابل ويلبي جميع احتياجاتنا، ويوقظ الرغبة الدخول في المعترك ويجعلنا أحرارًا في التحرك داخلها.

(٤) L. Giussani, *Il cammino al vero è un'esperienza*, op. cit., p. 141.

«نظرًا لأن اللقاء لا يتم ترتيبه من جانبنا، فإن عملنا [...] ليس مشروطًا بنجاحاتنا»(٥). يمكننا إذن أن ننطلق من هذا الموقف المرهق المتعب ونبدأ من جديد لأن شيئًا ما يحدث يجعل عملي حرًا وليس رهنا بالارتباك والصعوبات والبيئة والزملاء والطلاب. أفعالي لم تعد تعتمد على هذا في الآونة الأخيرة. «إن الدافع الذي يحركنا ويبرر انتشارنا ليس فينا، ولكنه موجود في أعماقنا، حيث يوجد الآخر (غير العادي)، ذلك الذي نعبده. نريد أن نحقق شيئا مختلفا، لا نريد حزبا او مشروعا، بل شيئا نقيًّا خالصًا نظيفًا لا يعتمد علينا، بل يعتمد على من خلقنا. لذا فإن اللقاء الذي يتم قبوله ببساطة يمنحنا حرية كبيرة في الروح لا توقفنا أبدًا، وهذا يجعلنا نتصرف بشكل مستقل عن ثقافتنا أو مهارتنا، وبما يفوق قلوبنا أيضًا. لدينا هذا الإيمان، وهذا الاطمئنان، لأن الآخر يقف معنا. إن حريتنا هي البساطة والبراعة التي بفضلها لن نتعب من اللجوء إلى أي شخص، وأن نكرر لأي شخص الدعوة إلى ذلك اللقاء، وهو اللقاء النهائي البات في حياة الإنسان»(٦). لن يتمكن أحد من منع وقع هذا الحدث، الذي يحيي الأنا دائما. ولو استمر وقوعه لأستمر مصدرًا تأسيسيًّا للأنا، أنني حر في أن أدخل جميع الظروف، في كلية الواقع، متحررا من تعبي ووحدتي. عندئذ نفهم لماذا يبدأ كل شيء في أن يصبح مثيرا للاهتمام. «في تجربة الحب الكبير [...] يصبح كل شيء يحدث حدثًا في نطاقه»(٧).

(٥) المرجع السابق ص ١٤٢.
(٦) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٧) R. Guardini, *L'essenza del cristianesimo,* Morcelliana, Brescia 2007, p. 12.

ولكن ماذا حدث وماذا يمكن أن يحدث بعد اللقاء؟ «بالنسبة للكثيرين أصبح الخلاص [في هذا اللقاء] هو يسوع المسيح، وتحرير الحياة والرجل، هنا وفي الآخرة، مرتبطان باستمرار اللقاء معه، أصبح دعوة» روحية». اما الدعوة الملموسة فهي شيء آخر: هي الالتزام النقابي، والحصول على حقوق معينة، وهي التنظيم، [...] وبالتالي الاجتماعات، ولكن ليس كتعبير عن الحاجة للحياة، بل كإهانة للحياة، وثقلها، والخسارة التي يجب دفعها من أجل انتماء يجدنا طالبين له دون تفسير»[٨]. وحتى أوضح الإغراء الذي وقعنا فيه وقد نقع فيه مجددا أقول إنه في لحظة معينة لم يعد المسيح بالنسبة لنا لا غنى عنه حتى نحيا حياتنا، لأن الواقع شيء آخر. لم يبدو لنا المسيح حتميًّا لنا لكي نعيش الواقع. ليس أننا ننكره، ولكن لأنه أصبح وعدا، دعوة روحية، لم نعد نحتاجها لكي ندخل معترك الحياة. لقد أصبحنا استباقيين وحفرنا لأنفسنا قبرًا.

ورأينا النتائج مع الزمن. مع كل محاولاتنا الاستباقية لم نتمكن من النجاح فيها: فقد قبر العديد منها ومعه طرح تعليمي رائع! لقد اعتقدنا أننا يمكن أن نلزم أنفسنا بإيصال أي جديد بالطريقة نفسها التي عشنا بها الواقع الذي كان أمامنا، بوضع نظرية لمنهج تجريدي. كان هذا هو الخطر الذي أخبرنا به دون جوساني: «يجب أن نساعد بعضنا على دحر خطر [...]: وتقليل التزامنا بتنظير منهج اجتماعي تربوي، وما يترتب على ذلك من نشاط سياسي للدفاع عنه، بدلًا من إعادة التأكيد على أن يمارس

(٨) L. Giussani, "Viterbo 1977", ne *Il rischio educativo,* SEI, Torino 1995, p. 61.

أخونا الإنسان حقيقة حياتية نطرحها عليه»[٩]. ولكن كيف يمكن أن نفكر في الحصول بتغيير بالطريقة الوحيدة التي يمكن أن تعيد للإنسان الاهتمام بالواقع، أي دون أن يستحضر الجاذبية الرابحة، يجب أن نؤمن بها نحن أولًا ثم، إذا شاء الله، يتم توصيلها من خلالنا للآخرين؟

بداية جديدة

ولهذا تلزم بداية جديدة، لا تكون على النحو التالي: «ماذا يجب أن أفعل؟»، ولكن على النحو التالي: «من أنا؟ ماذا أنا؟ وليس هذا سؤالًا بلاغيًّا، «إنها نقطة البداية التي لا يمكن أن يسلبها الشر». إذا كانت الصعوبة هي سلبها، فذلك لأنها غير واضحة؛ فليس الموقف هو الذي يهزمنا، وإنما هو الذي يسلط الضوء على هشاشتنا ويبرزها. وليست البيئة، والموقف الذي نجد فيه أنفسنا هو الذي يخلق الهشاشة؛ وإنما يبرز تناقضنا، وافتقادنا للحرية وحسب. هذا السؤال» ماذا أنا؟» [...] هو المبدأ المستمر للقيامة، هو مثل الصخر الذي يمكن للعاصفة أن تغطيه، ولكنها لا يمكن أن تسحبه عندما تهدأ العاصفة بعد ذلك»[١٠].

لذلك من الضروري أن يتجدد في أنفسنا «وعي بالذات مختلف [عن المتولد من اللقاء]، وبالتالي شعور إنساني مختلف، لأن الشعور الإنساني ننهله من أنفسنا. إنه المخلوق الجديد الذي يتحدث عنه الإنجيل، البذرة

(٩) المرجع السابق نفس الصفحة.
(١٠) المرجع السابق ص ٧٣.

الجديدة الموجودة في العالم، وهو إنسان جديد لأنه لديه إحساس جديد بذاته، وبالتالي بالآخر [...]. يسمى هذا الوعي الذاتي الجديد بالإيمان ويتصف بحقيقة أنني :كأنني لم أعد نفسي، بل صرت شيئا آخر موجودا بداخلي»(١١).

هذه ليست دعوة «روحية»، لا علاقة لها بالموقف الملموس. الإيمان – المفهوم كوعي ذاتي جديد مختلف – ليس شيئًا موجودا إلى الواقع البشري، إنما هو ثوب نرتديه، وهو واقع الشخصية، وهو المعنى والاتساق. هذا الوعي الذي هو الإيمان يولد الوجود في اللحظة التي يعبر فيها الشخص عتبة المدرسة، أمام أطفال الحضانة، وبنفس القدر طلاب المدرسة الثانوية. وإلا ماذا سنفعل في المدرسة؟

إن تعريفنا بهذا الوعي الذاتي الجديد يعني أن نعيش اليقين الذي يجعلنا ندخل بشكل مختلف في كلية الواقع الذي يتشكل منه التعليم الحقيقي. كيف تذهب إلى المدرسة دون أن ترتدي باستمرار هذا اليقين وهذا الوعي؟ وقد قال بردجيف «يجب أن تتحقق الحقيقة في الحياة»(١٢)، إن تحقيق الحقيقة في الحياة يعني الدخول في الواقع – بالنسبة للمعلم هو أن يذهب إلى المدرسة – وهو يرتدي ثوب الشخصية. «إن الظاهرة الثقافية لا تشتعل ولا تندلع إلا إذا كانت ناجمة عن يقين أساسي [...]. هذا اليقين هو حدث المسيح، الذي يعيد الكبار طرحه على الصغار، والذين يرونه حاضرًا

(١١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(١٢) N. Berdjaev, *Pensieri controcorrente*, La casa di Matriona, Milano 2007, p. 59.

في شخصية الكبير الذي يقف أمامهم»[١٣]. ويمكن أن نرى هذا اليقين موجودا عندما يدفع الحماس في الأشياء ويغذي بالاهتمام كل شيء.

من أعراض هذا اليقين، في الواقع، هو «التعاطف مع كل ما يتم الالتقاء به. [...] كلما كان الشخص أكثر قوة، في يقين وعيه، كلما احتضن نظره كل شيء، وقدر كل شيء، ولم يفته شيء، حتى في نزوله المعتاد إلى الشارع. كما يرى أيضًا الورقة الصفراء في وسط النبات الأخضر. إنه وحده اليقين بالمعنى النهائي هو الذي يجعلنا نشعر بأدق دقائق الحقائق المختبئة لدى الآخرين، وكأننا أجهزة كشف عن المعادن. وليس من الضروري، أن تكون صديقا لآخر، أن يكتشف أن ما تقوله صحيح ويصدقك. ليس من الضروري، أنا أصدق ذلك الظل الطفيف من الحقيقة الذي لديه. [...] وحده اليقين بحقيقة الاحساس الفوري بالأخوة والأمومة التي تؤثر عاطفيًّا على كل ظل من حقيقة موجود في الجميع، ومن ثم تصبح الحقيقة صديقة للجميع»[١٤].

هذا اختبار يمكن لأي شخص أن يجريه على نفسه: إذا كان لدينا هذا اليقين، فإننا ندخل بحرية في كل شيء، ونصبح أحرارا من أي ضغط يسببه علمنا. هذا هو البديل الكبير الذي يجد كل شخص نفسه أمامه: كونه معتمدا على الله فقط، ومن ثم يتحرر من الكون كله أو من الله، وبالتالي عبدا لكل ظرف، مبتزا من كل نتيجة[١٥].

(١٣) L. Giussani, "Viterbo 1977", ne *Il rischio educativo*, op. cit., p. 89.

(١٤) L. Giussani, *Certi di alcune grandi cose* (1979-1981), BUR, Milano 2007, pp. 155-156.

(١٥) Cfr. L. Giussani, *All'origine della pretesa cristiana,* op. cit., p. 108.

الطريقة التي نقضي بها الوقت في المدرسة وفي مواجهة الظروف كلها هي اختبار لاعتمادنا على الله، وعندما نعيش هذا الاعتماد الأصيل نحس بحرية العالم الآخر ونحن في هذا العالم. وبهذا المعنى، «المسيحية هي طريقة جديدة للعيش في هذا العالم. إنها نوع من الحياة الجديدة: لا تمثل تجارب أو مبادرات أو طرق مثلها مثل غيرها، ولا بضع تعبيرات أو كلمات تضاف إلى قاموس مفرداتنا [...]: المسيحي ينظر إلى الواقع الكلي مثل غير المسيحي، ولكن ما يقوله له الواقع مختلف، ورد فعله مختلف»[١٦]. ولهذا يمكنه أن يدخل إلى الواقع، دون شوائب. هذا هو الحقيقي، أي الدخول في الواقع، واختبار الإيمان، واليقين بتحقيقه في الحياة. وإلا فإن الإيمان سوف يختزل إلى شيء مواز على هامش الحياة.

هذا ما أعجبني عندما قابلت حركة الشراكة والتحرر المعروفة اختصارًا باسم «سي إل». اعتقدت لفترة طويلة أن رؤسائي في مدريد يريدون إضاعة الوقت: بدلًا من السماح لي بتكريس نفسي لأبحاثي العلمية، طلبوا مني أن أكون معلما في المدرسة الثانوية. عندما التقيت بحركة CL وأدركت اللقاء، قلت لنفسي: «أنت حقا غبي، لأن ما يفعله الرب لك هو جعلك تتحقق من إيمانك في المدرسة».

وأنا ممتن لهذه السنوات العشر التي قضيتها في التدريس لهذا السبب. كان بإمكاني ابتكار سبب «لاهوتي» لتبرير هروبي من المدرسة، كما فعل بعض زملائي: كان كافيًا أن أقول إنني فجأة أحسست ب «نداء رباني» بأن

(١٦) 16 L. Giussani, *Il cammino al vero è un'esperienza*, op. cit., p. 139.

أذهب إلى الأبرشية. ولكن هذا كان سيعني بالنسبة لي أن أرحل خاسرًا ومبرري معي في نعشي. وأحمد الله على أن اللقاء مع الحركة، باقتراح من دون جوساني، جعلني أفهم حقيقة الأمر، وسمح لي بالتحقق من إيماني. وعندما تركت المدرسة (لأنهم كلفوني بمهمة أخرى) كنت أكثر حرية وأكثر سعادة وأكثر سرورا مما كنت عليه عندما بدأت. مجبرا على البقاء كل يوم على أمام الأولاد والزملاء الذين لم أخترهم، لم يكن لدي أي إغراء للهروب. لذلك كثيرا ما قلت للأب جوساني: «سأظل دائما ممتنا لك، لأنني منذ أن قابلتك، تمكنت من القيام برحلة إنسانية»، أي للتحقق من مدى إيماني بالحياة، بالطريقة التي أعيش بها في المدرسة. استطعت أن أرى أن الإيمان ليس مجرد دعوة روحية. أنا ممتن للغاية لكوني كاهنًا ومدرسيًا في مدرسة بعينها، ولأنني لم أحرم من رحلة الدخول إلى الواقع، أمام التلاميذ وأنا أدرس لهم المواد التي كان على تدريسها. إنني لو لم أدخل شخصيًّا في الواقع من خلال كل ما التقيت به وسمح لي بأخذ رغبتي على محمل الجد، لم أكن لأتحقق من قدرتي على تغيير الإيمان ولكنت رحلت مهزوما، لأنني ما كنت لأحقق أي شيء من هذا اعتمدا على النظريات التربوية وحدها.

في الواقع، التعليم لا «يشرح» الواقع أو يدلي بخطاب حوله، ولكنه يساعد الشخص الآخر - الطالب أو الصديق - على الدخول في الواقع. منذ اللحظة التي أدركت فيها ذلك، أصبح الذهاب إلى المدرسة بالنسبة لي عيدا. إذا أردنا تعريف شخص ما بالواقع، لا يمكننا القيام بذلك من خلال - لاستخدام مثل أسباني - «النظر إلى الثيران من المدرجات».

فقط إذا رأى الأولاد النصر على وجوهنا، وفي الطريقة التي نعمل بها، ونتفاعل بها، وفي المنهج الذي نعيش به كل شيء، سوف يهتمون بما نريد أن ننقله إليهم، وسوف تأتيهم الرغبة في أي يعيشوا كما يروننا نعيش. وقال الأب جوساني: «لأن التعليم هو التواصل بنفسك ونقل طريقتك في إقامة علاقة مع الواقع». ولا يعني التواصل بالنفس فقط نقل أفكار المرء ونظرياته، ولكن توصيل طريقته الخاصة في ربط نفسه بالواقع. «الإنسان هو [...] طريقة حية للعلاقة مع الواقع. [...] لذلك فإن التواصل بالنفس يعني التواصل بطريقة حية للعلاقة مع الواقع»[١٧].

أنا ممتن لأن ظروف حياتي أجبرتني على اكتشاف أن التعليم هو التواصل بالنفس، أي من طريق ربط المرء لنفسه بالواقع. بعد عشر سنوات من التدريس في المدرسة، في الواقع، أصبحت أستاذا في الكلية اللاهوتية، ولأنني كنت من حركة الشراكة والتحرر، لم أكن أتحدث حتى لحظة خارج وقت الفصل، لم يكن مسموحا لي أن أفعل أي شيء «'إضافي». لكنني ممتن جدًّا لهذا، لأنه أجبرني على نقل ما هو قريب من قلبي في الدروس، أي بالطريقة التي كنت أقدم بها دروسي، دون الحاجة إلى إضافة أي شيء «آخر». لا أحد يستطيع أن يمنعني من أعطي دروسي بطريقة معينة وأن أبث محتويات الدروس بطريقة معينة. لم أكن بحاجة إلى أي شيء آخر خارج وقت الفصل الدراسي. ولم يكن أحد يستطيع منع ما قلته في الفصل من أن يصبح موضوع حوار، على سبيل المثال في غرفة الطعام بالكلية.

(١٧) L. Giussani, "Viterbo 1977", ne *Il rischio educativo*, op. cit., p. 84.

ليست هناك حاجة لأي شيء آخر، من الأشياء الموازية أو القريبة، لأن إثارة فضولنا يأتي من الطريقة التي يعيش بها الإنسان: «البداية هي وجود يفرض نفسه. البداية هي أثارة الفضول، ولكن ليس في «الدماغ»، [...] وإما في حياتنا. ما لا يثير الفضول في الحياة يجعلنا نهدر الوقت والطاقة ويمنعنا من الفرح الحقيقي»[١٨]، وبالتالي، مع مرور الوقت، ينعدم الاهتمام لدينا. «الوجود التعليمي هو وجود الشخص الكبير كشخص موحد»[١٩]، وهذا ينطبق على كل شيء، على المكان وعلى التدريس. إننا إن لم نصل في الواقع إلى النقطة التي تفتح لنا فيها النظرة المبتكرة (التي أيقظها فينا اللقاء) الطريق الذي يجب أن نسلكه لمواجهة وتوصيل محتويات العلوم بطريقة جديدة وشاملة، نكون قد خضعنا للازدواجية.

كتب أحد المعلمين: «عدت إلى المدرسة (المدرسة الثانوية) بعد خمس سنوات من الغياب ووجدت وضعا كنت قد عرفته بالفعل لبعض الوقت. كان ذلك للمشاركة في إعداد الدروس التي تم إثراءها سنة بعد سنة من خلال العديد من الاجتماعات والقراءات والمقارنات والأحكام جنبا إلى جنب مع معلمين أصدقاء آخرين. أعتقد أن محتوى رسالتي لم يكن بأي حال محايدًا: أن يصبح لدى الأولاد (وهو ما آمنت به دوما) مادة صالحة لكي يتعاملوا معها. ومع ذلك، ما زلت ألاحظ (بالأمس كما اليوم) أنه عندما أسأل طلابي (وخاصة أفضلهم وأكثرهم وعيًا)، يلمحون في إجاباتهم إلى عناصر لا تأتي مما قلته لهم، ولكن مما وجدوه مكتوبًا في كتبهم. المقررة.

(١٨) المرجع السابق ص ٦٢.
(١٩) المرجع السابق ص ٦٨.

فهم بعد العودة إلى بيوتهم بعد درس مثير للاهتمام، يستذكرون في كتبهم مفاهيم هي عكس ما قلته بالضبط: «فما يأتي بعد» يلغي «ما جاء قبل». ويجعلني هذا أدرك مدى أهمية احتواء الواقع في جميع جوانبه، بما في ذلك التدريس، أي مجموعة المواد التي تشكل حاصل التعلم. وأدركت أننا إذا لم يصل اهتمامنا التعليمي إلى هذه النقطة، فإن الأمر يبدو كما لو أننا نستسلم في بداية تحدٍ ثقافي يقع على عاتقنا، وهو مسؤوليتنا نحن فقط دون غيرنا، ولا يمكن تفويضه للآخرين ». هذا هو التحدي. لا تهم الأرقام، فإذا كان هناك عشرة أشخاص يقبلون ذلك، فأنا معهم. إذا أراد شخص أن يفعل شيئًا آخر، «إضافيًّا»، فأنا لا أهتم.

أقصد من التدريس إلى البيئة. العامل الثاني للحضور هو الوجود داخل البيئة. «المسيحية هي إعلان الله المتجسد، وهذا لا يعني أن نقول إن الله قد تجسد وحسب، ولكن أيضًا أنه أصبح جوهرا، عضويًّا له زمان ومكان وتاريخ. ومن ثم يجب أن نكون داخل الحكاية، وبالطريقة التي يشرك بها المجتمع، بسلطته المتغلغلة، [...] الفرد وتهيئته بالمناورة لكي يخدم أغراضه؛ يجب أن تكون في الداخل، في البيئة؛ يجب أن يكون المرء عضويًّا مع العالم في أدق دقائقه. [...] الحضور يعني أن تكون بكل إنسانيتك في البيئة»[٢٠]. وهذا هو التحقق من الإيمان: كل واحد منا مدعو للتحقق مما إذا كان يقين الإيمان يسمح له أن يوجد بطريقة أكثر إنسانية في أي موقف. وإلا فلماذا يجب أن أهتم؟ لماذا أهتم بالمسيح، إلا لأنه يسمح

(٢٠) المرجع السابق صفحات ٧٥-٧٦.

لي أن أكون موجودا بالكامل في الواقع، في أي موقف، وأمام أي ظرف من الظروف؟

الإيمان «إما أن يكون داخل البيئة أو لا يكون صحيحًا»، لا يمكن أن يثبت صحته. إذا لم يكن الإيمان قادرًا على جعلي أعيش أي ظرف على نحو أفضل، إذا لم يعرضني على مجمل الواقع، فأنا لست بحاجة إليه، وسرعان ما سيحدث لي، ما حدث لعدد كبير من المسيحيين، الذين لم يعد للإيمان علاقة بحياتهم: هذا لا يعني أنهم ينكرونه، ولكنهم توقفوا عن الاهتمام به. نحن نحاول التحقق من إيماننا في الواقع كله، لأن «البيئة هي أي جانب من جوانب الحياة العادية والطريقة العملية التي يشركنا بها العالم فيه ويؤثر بها علينا: وبالتالي فإن الأسرة، والسكن، والصداقات، والنقابات، وبيئة العمل، والسياسة وكل شيء»[٢١].

إذا لم ندخل الواقع برغبة شخصية في التحقق من الإيمان فإننا نحن المدرسين نتحول إلى أبواق دعاية بدلا من دعاة: «الدعاية [...] هي أن أنشر شيئًا لأنني أومن به أو [لأنه] يهمني. أما الدعوة فهي [...] هو إعادة إيقاظ شيء ما في الآخر»[٢٢]. ولكن كيف أوقظ شيئا في الآخر؟ فقط إذا سجلت حضوري في طريقة حياته الخاصة. لا أستطيع أن أنجح في ذلك إذا اكتفيت بنقل حديث: أنا بذلك أقوم بالدعاية، لكن لا يمكنني أن أوقظ في الآخر شيئا: «إن الدعوة التي أسديها لصديق لي هي مساعدته في العثور على حقيقته، وعلى اسمه الحقيقي (بالمعنى التوراتي)، وفي أن يجد

(٢١) المرجع السابق ص ٧٦.

(٢٢) L. Giussani, *Il cammino al vero è un'esperienza*, op. cit., p. 149.

نفسه. لذلك فإن دعوتي كمسيحي هي مساهمتي الجادة في حرية الآخر، لأن الحرية تعني أن يكون المرء نفسه. لهذا فإن دعوتنا هي لفتة عليا للصداقة». إيقاظ الآخر، بدلًا من التظاهر بأنه قد أصبح «من اتباعنا»! وأيًّا كان المسار الذي يجب على الآخر اتخاذه للوصول إلى قدره، فهذا ما يحدده الله. نحن مهتمون بأن نكون شهداء على المسيح، نشهد بقدرة المسيح، الذي يعيد إيقاظ «الأنا» في الآخر. ما سيفعله الآخر هو شأنه، والهدف ليس حمله إلينا. وهذا هو السبب في أن «دعوتنا ليس لها على الإطلاق أشكال محددة، ومناهج بعينها، أو مخططات، أو تنظيم خاص، وإنما هي وعد يشكل قلب الإنسان نفسه. إن نعكس صدى ما وضعه الله في قلوبهم وهو يخلقهم، ويضعهم في بيئة معينة، ويشكلهم. ولهذا السبب بالتحديد لا نعرف إلى أين سيقودهم الله»[٢٣]. بالنسبة لنا، غالبًا ما يكون عكس ذلك، نتصور أننا نعرف بالفعل ما قرره الله بالنسبة لهم!

ما يثير دهشتي مرات عديدة هو عدم إحساسنا بالسر: لأننا «نعلم بالفعل». لكن «التصميم هو تصميمه هو [الله]. لا يمكننا أن نعرف ماذا ستكون مهاتهم التي ندبوا لها [هذه الجملة تكفي لجعلنا نراجع ما نفعله]. لذلك، فإن دعوتنا هي أولًا دعوة إلى ما يشكل قيمة لحياة الإنسان، لمصيره، ولرسالته، ولاكتمالها، وكفى. يلزم دعوة الآخر بأن نعيش نفس المبررات التي أدت إلى دعوته. وما يشكل دعوة الآخر هي ذلك الوميض والتعبير الناتج عن أننا نعيش مثل ظروفه [ووميض عيش الحياة نفسها تعني أن نكون شهودا ولا تعني مجرد كلام!]. لذا فإن الدعوة ليست شيئا

(٢٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

خارجيًّا بالنسبة لنا، هي فقط واجب نقوم به خارجنا تقريبا. عندما يفقد المرء حيوية الانتماء، يدعو ببرود، كأنه يعرض معادلة حسابية أو فكرة ايديولوجية. غالبًا ما يمثل هذا نوعا من الدعاية لا يولد سوى نقاشا: هو نفسه يشعر بالاغتراب تجاه الآخر. يجب أن نتأكد من أن كل ما نقوم به، والمبادرات التي نتخذها، والدعوات التي نقدمها، تتغلغل وتنعش من خلال قلق مثالي حقيقي. لدينا كل مخاوف الآخرين، لأنهم مخاوف إنسانية. ولكن هناك شيء أكثر فينا: كل إشارة فينا تضمر اهتماما عميقا بمحبة الإنسان، لمساعدته على أن يكون حرًا حقًا، وأن يسير نحو مصيره (وفقًا لتصميم ليس لنا). هذا هو قانون الإحسان: الرغبة في أن يكون الآخر هو نفسه [...]. نريد أن نكون من الناس الذين ا يذهبون إلى المدرسة أو إلى العمل للحصول على تقدير مرتفع أو على رواتب جيدة، ولديهم الفضول لمعرفة الأحداث والأشياء، مع الرغبة في عيش العلاقات التي تملأ الوقت وتمنع الملل. ولكن قبل كل شيء، نريد أن نكون من الناس الذين يذهبون دائمًا إلى المدرسة، أو إلى العمل أو الانضمام إلى مجموعة الأصدقاء وهو شغفون بالمثالية، تواقون لرؤية المثل الأسمى: المسيح والكنيسة»[٢٤].

إذا كان مقترحنا هو أن نعيش أمام الآخرين، لنشهد ما أعطي لنا، من خلال الطريقة التي نتعامل بها مع الظروف، فإن المستلمين هم الجميع- الجميع بلا استثناء! -، لأننا نعيش أمام الجميع ولا نعرف مسبقا من هم أولئك الذين يشاء الله أن ينتقلوا إلى حميمية النفس من خلال شهادتنا؛

(٢٤) المرجع السابق صفحات ١٤٩-١٥٠.

نحن لا نعرف. لذلك «من الخطأ الشديد أن يكون التزامنا التعليمي في المدرسة يسعى إلى أن يتبلور في العمل البديل»(٢٥)، معتقدين بذلك أننا نزيد تمسكا بما أراده الرب. وعندما يتزايد الانهيار وتدمير البشر، سيمكننا العثور على المزيد من الأشخاص المستعدين للقدوم معنا، رغم أن سحب «البعض» لن يكون عزاء كافيًا: فهل يأتون لأنهم ينجذبون أم لأنهم ليس لديهم شيء آخر يفعلونه؟ هل نحن قادرون بما نقدمه من طرح على تحدي وتحريك أولئك الذين لديهم شيء آخر في العقل والذين تأخذهم جاذبية شيء آخر؟

يقودنا هذا إلى فهم العلاقة القائمة بين طريقة عمل السر الأعظم وبيننا: فلسنا نحن من يقرر من يحرك دواخل الناس، بل هو الله، من خلال آخر من وصل، أو من خلال من يقرره هو. ويجب أن نطيع الطريقة التي يفعل الله بها الأشياء. لذلك، فإن الخطوة الأولى لأي سلطة، لأي شخص يتحمل المسئولية، هي طاعة الطريقة التي يظهر بها الله الأمور. فإذا أظهرها عن طريق شخص ما، فيجب علينا جميعا أن نكون حريصين على اللقاء معه، ومساعدته، دون أن نحاول إدراجه في الهياكل القائمة. إن الله حكيم، وهو يحرك الأشياء والناس وفق منهجه تعالى. الله عليم بعباده ويعرف ماذا يفعل. ونحن إما أن نحترم هذه الطريقة ونطيعه - ولذا فإن السلطة الأولى هي التي تطيع أكثر، وليس الشخص الذي يدير أكثر - أو ندمج الناس.

(٢٥) L. Giussani, “Viterbo 1977”, ne *Il rischio educativo*, op. cit., p. 88.

هذا هو السبب في أننا نترافق فيما بيننا أو نرافق الآخرين، أو بإيجاز، نرافق الأصدقاء باعتبارهم شهود. نحن أصدقاء فيما بيننا ومع التلاميذ، إذا شهدنا شهادة حضورية على طريقة الوجود في الواقع التي أحياها الإيمان. وسيسمح هذا لنا بقبول وحب كل شيء وكل الناس، بمذلك ا في تفاصيل الحياة في المدرسة.

الجزء الرابع
بطل جديد للرواية على الساحة العالمية

١٣

«شعاع إلهي لفكري قد ظهر، جمالك يا سيدتي»

الأسرة في بؤرة النقاش العام. أثارت محاولة تنظيم أشكال جديدة من المعاشرة، مختلفة عن الزواج الذي تم وضعه كعلاقة نهائية ومثمرة بين الرجل والمرأة، نقاشا ساخنا، وبذلك بلغت العملية التي بدأت منذ سنوات ذروتها.

وقد أبرزت هذا النقاش، من جهة، أن انتشار العقلية المخالفة من خلال وسائل الإعلام (السينما والتلفزيون والصحافة) لم يمنع الكثير من الناس من الاستمرار في خوض تجربة الأسرة الإيجابية. على الرغم من أن الأسرة التقليدية لم تعد تساير الموضة كنموذج حياة، صمدت خبرة أفضلية الحياة في أسرة واحدة، وهو أمر جيد نشعر بالامتنان له ونرغب في نقله إلى الأجيال القادمة، لتقاسمه معها.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه التجربة الجيدة لم تمنع ظهور أشكال من المعاشرة مختلفة عن الزواج. وإضافة لهذا يجب أن نضيف عاملا لا يقل أهمية: بدأت هذه العملية عندما كانت الغالبية العظمى من القوانين

الوطنية في أوروبا بشأن الزواج لا تزال تدافع عن المفهوم التقليدي المستمد من المسيحية. كل الحماية التي توفرها القوانين لم تمنع انتشار العقلية المخالفة للزواج، فلم تتمكن من إيقاف التغيير.

استعادة الذات

كيف أمكن لهذا أن يحدث؟ كيف أمكن أن يكون الوضوح الذي تم تحقيقه بشأن طبيعة الزواج، والذي تم تأكيده على مدى القرون، قد تم التشكيك فيه في وقت قصير بطريقة منتشرة بحيث تحول إلى عقلية عامة؟ ذكره بندكت السادس عشر: «الهياكل الجيدة تساعد، لكنها ليست كافية وحدها. لا يمكن أبدا تحرير الإنسان من خارجه فقط»[(١)].

يبدو لي أن محاولة فهم الوضع الحالي أمر حاسم للغاية لكي أتمكن من الاستجابة لحالات الطوارئ التي تنشأ منه.

من المؤلم أن نرى كثيرا من الأشخاص لا يستطيعون الوقوف في وجه الصعوبات الخارجية والداخلية العديدة التي يواجهونها. ولا يكفي أن نعرف فقه الزواج لمقاومة صدمات الحياة.

ومن الواضح في كل مرة أن نضج المرء الذي يقدم على مشروع الزواج لا يعتبر أمرًا مفروغًا منه. والحقيقة هي أنه، بغض النظر عن حسن نواياهم، فإن العديد من الشباب يصلون إلى الزواج دون وعي كاف بطبيعة ما

(١) Benedetto XVI, Lettera enciclica *Spe Salvi*, 25.

هم موشكون عليه. لا يمكن اعتبار هذا الأمر أمرا مفروغا منه حتى بالنسبة للمسيحيين الشبان، الذين غالبا ما يقتربون من الزواج في ظروف مشابهة لظروف أصدقائهم من غير المسيحيين، مع اختلاف وحيد وهو أنهم يتزوجون في الكنيسة ولديهم على الأقل رغبة في تحقيق ذلك وفقا لمفهوم الزواج الذي تدافع عنه الكنيسة وتشهد عليه. لا يمكن حل مشكلة عدم وجود هذا الوعي بالدورات التأهيلية قبل الزواج التي نعرفها وحسب، فهي بطبيعتها لا يمكنها التعامل مع جميع حالات المترددين عليها. عظيم هو التحدي الذي يطرح نفسه على المجتمع المسيحي كله، فقد أصبحت على المحك قدرته على توليد شخصيات ناضجة من الرجال والنساء قادرة على ممارسة الزواج بمنظور إيجابي النتائج.

وهي مسألة تبدو لي جوهرية تضع في دائرة الضوء العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة. أزمة الأسرة هي نتيجة للأزمة الأنثروبولوجية التي نجد أنفسنا فيها. الزوجان، في الحقيقة، هما شخصيان بشريان، أنا وأنت، رجل وامرأة، وقد قررا أن يسيرا معا نحو المصير، نحو السعادة. وتعتمد طريقة تأسيسهما وتصور علاقتهما على الصورة التي يصنعها كل منها لحياته الخاصة، وتحقيق ذاته. وينطوي هذا على تصور للإنسان وسره. «إن مسألة العلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة - كما يقول بنديكت السادس عشر - تغرس جذورها في أعمق جوهر للكائن البشري ولا يمكن أن

تجد استجابتها إلا من هنا. لا يمكن فصلها، عن السؤال القديم والجديد عن للإنسان عن نفسه: من أنا؟ ما هو الإنسان؟»[٢].

ولهذا السبب، فإن المساعدة الأولى التي يجب تقديمها لأولئك الذين يقدمون على الزواج هي إدراك سر وجودهم. وبهذه الطريقة فقط سيكونون قادرين على التركيز بشكل كاف على علاقتهم، دون أن يتوقعوا شيئًا منها لا يمكن لأي منهما، بسبب طبيعته، أن يعطيه الآخر. كم من العنف، وكم خيبة الأمل يمكن تجنبهما في العلاقة الزوجية، إذا تم فهم طبيعة الشخص!

إن عدم الوعي بالجوهر ومصير الإنسان يؤدي إلى تأسيس علاقة قائمة كلها على وهم خادع، والذي يمكن صياغته على هذا النحو: الاعتقاد بأنك تستطيع أن تجعل «الأنا» سعيدة. وبهذه الطريقة، تصبح علاقة الزوجين مهربا، عديم الفائدة بقدر ما هو مرغوب، لحل مشكلة تحقيقها. وعندما ينكشف الوهم الخداع، لأن الآخر لم يحقق التوقعات، تصبح خيبة الأمل أمرا لا مفر منه. علاقة الزواج لا يمكن أن يكون لها أي أساس آخر إلا حقيقة كل من بطليها. ولكن هذا هو شأن الحب نفسه الذي يساهم بطريقة خاصة في جعلنا نكتشف حقيقة «الأنا» و«الأنت». وجنبا إلى جنب مع حقيقة الأنا والأنت، تظهر طبيعة المهمة الموكولة لنفسيهما.

(٢) Benedetto XVI, Apertura del Convegno ecclesiale della Diocesi di Roma su «Famiglia e Comunità Cristiana», in *La Traccia,* n. 6, 2005, p. 160.

في الواقع، يتم كشف سر أبدية وجودنا بطريقة خاصة من العلاقة مع أحبائنا. لا شيء يوقظنا، لا شيء يجعلنا ندرك الكثير من الرغبة في السعادة التي تشكلنا، بقدر ما يفعله الأحبة. إن وجود الأحبة هو خير عظيم يجعلنا نستوعب العمق والبعد الحقيقي لهذه الرغبة: اللانهائية. إن ما يقوله تشيزاري بافيزي عن المتعة يمكن تطبيقه على علاقة الحب:

«ما يسعى إليه الإنسان في المتعة هو اللانهائي، ولن يتنازل أحد عن الأمل في تحقيق هذا اللانهائية»(٣). «أنا» و«أنت» محدودان يثيران أحدهما في الآخر رغبة لانهائية، فيكتشفان أن حبهما أطلقهما نحو المصير اللانهائي. في هذه التجربة يتجلى للاثنين معا المهمة الموكولة لهما. فيشعران بالحاجة إلى بعضهم البعض حتى لا يصابوا بالشلل في حدودهما الخاصة، دون أي منظور آخر سوى ملل العزلة.

في اللقاء الغرامي بين الرجل والمرأة وفي نفس اللحظة التي تتجلى فيها أبعاد الرغبة دون حدود يتم الإعلان عن إمكانية تحقيقها. والأفضل من ذلك، هو أن تلمح في الشخص المحبوب الوعد بالاكتمال الذي يشعل فينا إمكانيات لانهائية للرغبة. باختصار، لا يوجد شيء يجعلنا نفهم لغز وجودنا كبشر أفضل من العلاقة بين الرجل والمرأة، كما ذكرتنا الرسالة الرعوية «الله محبة» للبابا بندكت السادس عشر: في «الحب بين الرجل والمرأة، يتسابق الجسد والروح بشكل لا ينفصل، [...] فينفتح أمام الكائن

---

(٣) C. Pavese, *Il mestiere di vivere*, op. cit., p. 190.

البشري وعد بالسعادة يبدو عصيًّا على المقاومة، [...] تتلاشى معه، للوهلة الأولى، كل أنواع الحب الأخرى»[٤].

في هذه العلاقة، يبدو أن الإنسان يواجه ما يجعله يتغلب على حدوده ويسمح له بالوصول إلى كمال لا مثيل له[٥]. هذا هو السبب في أننا أدركنا تاريخيًّا العلاقة بين ما هو حب وما هو إلهي: «الحب يعدنا باللانهائية، بالأبدية - وهي حقيقة أكبر ومختلفة تماما عن الحياة اليومية لوجودنا»[٦].

إنها التجربة التي شهدها جاكومو ليوباردي في ترنيمة له في أسبازيا: «شعاع إلهي لفكري قد ظهر، جمالك يا سيدتي»[٧]. ينظر الشاعر إلى جمال المرأة على أنه «شعاع إلهي»، فهو مثل حضور الألوهية. من خلال جمالها، يقرع الله باب الرجل. ولكن ما لم يفهم الإنسان طبيعة هذه الإشارة، ولم يتبعها، يتوقف عند الجمال الذي يراه أمامه، وسرعان ما يظهر نفسه عاجزًا عن الوفاء بوعد السعادة، واللانهائية، الذي يحمله داخل نفسه. «ولكنه لا يميل لهذه، بل لتلك،/ في لقائه الجسدي، فيركع لها ويعشق./ وعند الخطأ واللبس في الفهم/ بعد أن يعرف يغضب؛ وغالبًا ما يلوم/ المرأة خطأ»[٨]. والمرأة، بحدودها، توقظ في الرجل، بحدوده هو أيضا، رغبة

(٤) Benedetto XVI, Lettera enciclica *Deus Caritas est,* 2.

(٥) «لقد رأى الإغريق - مماثلين بلا شك للثقافات الأخرى - في الجنس نشوى، وانسحاق للعقل بفعل «جنون إلهي «ينتزع الإنسان من قيود وجوده، وهذا الارتباك الناشئ عن قوة إلهية، يجعله يجرب النعيم الأسمى. وتظهر جميع القوى الأخرى بين السماء والأرض ذات أهمية ثانوية: ويؤكد فيرجيليو في قصائده المختارة: «الحب ينتصر على كل شيء»، ويضيف: «دعونا نستسلم للحب» (المرجع السابق، ٤).

(٦) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٧) G. Leopardi, «Aspasia», XXIX, vv. 33-34, in *Cara beltà*…, op. cit., p. 86.

(٨) المرجع السابق صفحات ٤٤-٤٨.

في الاكتمال غير متناسبة مع القدرة على الاستجابة لها، تثير عطشا ليس بمقدوره إطفاءه، وجوعا ليس بمقدوره إشباعه. ومن هنا ينشأ الغضب والعنف الذي غالبا ما ينشأ بين الزوجين، وخيبة الأمل التي تعقب ذلك. فهما لا يفهمان طبيعية علاقتهما. جمال المرأة هو في الواقع «شعاع إلهي»، وهي إشارة تشير إلى أبعد من مجرد الجمال، وتصل إلى ما هو إلهي، لا يقاس بطبيعته المحدودة. جمالها يصرخ أمامنا: «لست أنا. أنا مجرد تذكير. انظر! انظر! بماذا أذكرك؟»[٩]. مع هذه الكلمات لخص العبقري سي إس (كليف ستابليس) ديناميات العلامة، التي تعتبر العلاقة بين الرجل والمرأة مثالًا مؤثرًا عليها. إذا لم يفهم الإنسان هذه الدينامية، يقع في خطأ التوقف عند الواقع الذي أثار عنده الرغبة. فيكون مثل امرأة تلقت باقة زهور، فسحرها جمال الباقة ونسيت من أرسلها إليها، ونسيت المعنى الذي يمثله إرسالها، وبالتالي فقدت أفضل ما جلبته إليها الزهور. عدم التعرف على شخصية الآخر كعلامة ومعنى يؤدي حتمًا إلى تقليل شأنه أمام أعيننا. وعاجلًا أو آجلًا، يظهر الآخر نفسه عاجزًا عن الاستجابة للرغبة التي أثارها.

ولهذا فالزوجان إذا لم يلتقيا بما يحيل إليه المعنى، والمكان الذي يمكنهما أن يجدا فيها اكتمالا للوعد الذي أثاره أحدهما في الآخر، فهما يستهلكان نفسيهما في مزاعم لا يستطيعان التخلص منها، وتصبح رغبتهما في اللانهائي مصيرها عدم الإشباع. وأمام عدم الإشباع هذا يصبح المهرب

(٩) C.S. Lewis, *Sorpreso dalla gioia*, Jaca Book, Milano 2002, p. 160.

الوحيد الذي يثق فيه الكثيرون اليوم هو تغيير شريك الحياة، وتبدأ دوامة يتم فيها تأجيل خيبة الأمل حتى خيبة أمل أخرى.

وقد حدد ريلكه بفعالية فريدة مأساة علاقة الحب وفطن إلى الحاجة لمهرب من الدوامة: هذه هي غرابة الحب بين الرجل والمرأة، فهما «اللانهائيان اللذان يلتقيان بالمحدودين»(١٠). احتياجان لا نهائيان للحب وقدرتان محدودتان وهشتان لتحقيق الحب. ولكنهما لا يستسلمان ولا يستهلكان إذا أصبح أفق الحب أكبر، وإنما يسيران جنبا إلى جنب نحو الاكتمال الذي يمثل فيه الآخر معنى وعلامة.

فقط في أفق الحب الأكبر يمكن للمرء أن يتجنب أن يستهلك في المزاعم الوهمية وأن يشحن بالعنف، وأن يرد الآخر - وهو كائن محدود - على الرغبة اللانهائية التي توقظ، مما يجعل تحقيق الذات والحبيب مستحيلًا. لاكتشاف ذلك، يجب أن نكون على استعداد لدعم ديناميات المعنى والعلامة، والبقاء منفتحين على الدهشة التي يمكن أن تحفظنا.

كان لدى ليوباردي الشجاعة لاقتحام هذا الخطر. فقد رأى بنظرة ثاقبة لعلاقة الحب، أن ما سعى إليه في جمال النساء التي وقع في حبها كان الجمال بمعناه السامي. يقع الجمال السامي في ذروة مساره الإنساني، جمال «امرأته» هو ترنيمة إلى «الجمال العزيز» الذي يبحث عنه في كل جمال. وفي هذا الجمال يعبر بطريقة فذة عن رغبته في أن يتخذ الجمال السامي، أي

---

(١٠) Cfr. R.M. Rilke, «Quarta Elegia», vv. 11-20, in *Elegie duinesi*, op. cit., p. 23.

فكرة الجمال الخالد، شكلًا حسيًّا[١١]. هذا ما حدث مع المسيح، الكلمة تحولت إلى جسد. ولهذا عرف الأب جوساني ترنيمة «امرأته» على أنها نبوءة بالتجسد بعد مرور تسعة عشر قرنا على حدوثها[١٢].

والمسيح، الجمال الذي أصبح جسدا، يضع «شخصه في مركز عاطفة الإنسان وحريته»، وفي «قلب المشاعر الطبيعية نفسها، يضع نفسه بكل الحق جذرا حقيقيًّا له»[١٣]. هذا هو «زعم» يسوع، الذي وجدناه مُعبَّرًا عنه في بعض نصوص الإنجيل التي قد تبدو للوهلة الأولى متناقضة. «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، [...] مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا. مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي، وَمَنْ يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ الَّذِي أَرْسَلَنِي»[١٤].

وبهذه الطريقة، يكشف يسوع عن مدى الوعد الذي يمثله شخصه لمن سمح له بالدخول في محبته. هذا ليس تدخلًا من يسوع على مستوى المشاعر الأكثر حميمية، ولكن في أعظم وعد يحس الإنسان بأنه يفعله:

---

(١١) «Se dell’eterne idee/ L’una sei tu, cui di sensibil forma/ Sdegni l’eterno senno esser vestita…» (G. Leopardi, «Alla sua Donna», XVIII, vv. 45-47, in *Cara beltà*…, op. cit., p. 55).

(١٢) Il tema è affrontato più ampiamente in L. Giussani, *Le mie letture*, BUR, Milano 2008, pp. 9-31.

(١٣) L. Giussani, *All’origine della pretesa cristiana,* op. cit., pp. 78-79.

(١٤) متى ١٠- ٣٤،٣٧؛ ٣٩،٤٠.

تحقيق كل رغباته البشرية، المتمثلة في شخصه. لذلك فبدون محبة المسيح، الجمال المتجسد، أكثر من شخص المحبوب، تفسد علاقة الحب، لأن المسيح هو الحقيقة، الاكتمال الذي يحيل إليه المحب والمحبوب، والذي يكتمل فيه علاقتهما. فقط من خلال الدخول في محبته من الممكن أن تتحقق العلاقة الأكثر جمالا في الحياة، فلا تفسد ولا تموت مع الوقت. هذه هي جرأة «زعم» المسيح.

الزواج والعذرية. امتلاك مع انفصال داخلي

على رد الفعل المذهل من التلاميذ أمام إعلان عدم قابلية الزواج للفسخ، عارضهم يسوع بعبارة قد تبدو أكثر غموضا: فَقَالَ لَهُمْ: «لَيْسَ الْجَمِيعُ يَقْبَلُونَ هذَا الْكَلاَمَ بَلِ الَّذِينَ أُعْطِيَ لَهُم، لأَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ»(١٥).

بهذه الكلمات يضيف يسوع فئة جديدة من الخصيان إلى أولئك المعروفين بالفعل، أي أولئك الذين يبتغون بهذا ملكوت السماوات. من الواضح أنه خيار حر. تعليقا على هذه الفقرة، قال يوحنا بولس الثاني: «في الدعوة إلى الانضمام « لملكوت السماوات «، لتلاميذ المسيح أولا، ثم بعد ذلك في كل التراث الحي سوف سرعان ما نكتشف الحب الذي يحيل إلى

(١٥) متى ١٩-١٢،١١.

المسيح نفسه عريسا للكنيسة وعريسا لكل الأرواح، التي وهبها نفسه حتى النهاية، في سر عيد الفصح وفي الافخارستيا. وبهذه الطريقة، أصبح «ملكوت السماوات»، أي اختيار العذرية أو العزوبية طيلة الحياة كلها، في تجربة تلاميذ المسيح وأتباعه استجابة خاصة لمحبة العريس الإلهي ولذلك اكتسب معنى أنه من أفعال الحب الزوجي، أي أنه وهبة النفس للحب الزوجي، سعيًا لنيل حب زوجي بالمقابل من المخلص، وهبة النفس، التي تفهم على أنها تخلي، ولكنها في الحقيقة ليست إلا حبًا»[١٦].

في ضوء ما تم ذكره للتو، يفهم المرء مما تتكون العذرية: العلاقة الحرة المطلقة مع الآخر (ومع الأشياء) التي أدخلها المسيح في التاريخ. العذرية هي أن تعيش الأشياء وفقا لحقيقتها. لقد دخلت العالم كتقليد للمسيح، أي لطريقة حياة رجل كان هو الله. لا يمكن لأي عقل آخر أن يحافظ على شيء عظيم مثل العذرية، إلا إن تمثلت في التوحد مع الطريقة امتلك بها المسيح الواقع: تحقيق مشيئة الله.

إذا كان شخص يسوع خيرا عظيمًا ثمينًا، فلأنه الوحيد الذي يتطابق تمامًا مع العطش من أجل سعادة الإنسان. إنها المطابقة الاستثنائية التي يحققها شخصه فيمن يلتقي به فإن هذا من الممكن إقامة علاقة حرة مع الواقع.

ولكن كيف يساهم أولئك الذين يدعون للعذرية في ملكوت الله؟ وقد تم اختيار المدعوين إلى العذرية لأنهم «صرخوا أمام الجميع، في كل

---

(١٦) Giovanni Paolo II, *Udienza generale*, 28 aprile 1982.

لحظة - كل حياتهم جعلت لهذا - وأن المسيح هو الشيء الوحيد الذي يستحق العيش من أجله، وأن المسيح هو الشيء الوحيد الذي يستحق العالم أن يوجد من أجله. [...] هذه هي القيمة الموضوعية للرسالة: تتشكل حياتهم من أجل المسيح، ويصارعون في العالم من أجل المسيح. شكل حياتهم نفسها! [...] إنها حياة لها شكل الصيحة: «يسوع هو كل شيء». يصرخون بهذا أمام الجميع، لجميع من يرونهم، لجميع الذين يقابلونهم، لجميع الذين يسمعونهم، لجميع أولئك الذين ينظرون إليهم»[١٧].

ترتبط الدعوة إلى العذرية ارتباطًا وثيقًا بالدعوة إلى الزواج: من خلال الاستجابة لدعوة الرب، فإن «العذارى» يصرخن للمتزوجين بحبهن الخاص. «إن تحقيق هذه الدعوة يخدم أيضًا - وبطريقة خاصة- تأكيد المعنى الزواجي لجسم الإنسان في ذكريته وأنوثته. [...] يمكن القول إن هذا التخلي من قبل الأفراد، رجالا ونساء، لا يمكن الاستغناء عنه بمعنى معين، طالما أن المعنى الزواجي للجسم يمكن التعرف عليه بسهولة أكبر في روح الحياة البشرية وخاصة في روح الحياة الزوجية و الأسرية»[١٨]. العذرية إذن هي أمل حقيقي للمتزوجين. يتذكر ويوثق أصل إمكانية أن يستمر الزواج بدون مزاعم وبدون خداع: «بحكم هذه الشهادة، فإن العذرية تبقى الوعي بسر الزواج حيًّا في الكنيسة، وتدافع عنه من أي اختزال ومن أي إفقار»[١٩].

(١٧) L. Giussani, *Il tempo e il tempio. Dio e l'uomo,* BUR, Milano 1995, pp. 20-21.

(١٨) Giovanni Paolo II, *Udienza generale*, 5 maggio 1982.

(١٩) Giovanni Paolo II, Esortazione apostolica *Familiaris Consortio*, 16.

لكن العذرية هي أيضا البعد الذي يدعى إليه الجميع. وكما يؤكد الأب جوساني، «العذرية هي الفضيلة المسيحية المثالية لأي علاقة، حتى العلاقة بين رجل وامرأة متزوجين. وبالفعل، فإن ذروة علاقتهما، لحظة الذروة التي تصل فيها علاقتهما إلى حيث يضحيان، لا إلى حيث يعبران عن امتلاكهما. لأنه، بالنسبة إلى الخطيئة الأصلية، في الواقع، فإن الامتلاك يؤدي إلى الانزلاق. يبدو الأمر كما لو أن المرء يريد شيئًا ويهرول نحوه، وعندما يصبح قريبًا منه، يركض حتى يحطم أنفه، وينزلق ويتعثر. هذا هو السبب في أننا نقول إن العذرية هي امتلاك مع انفصال داخلي»[٢٠]. الامتلاك الحقيقي - الذي يمكننا تجربته - هو امتلاك مع انفصال داخلي.

في أفق حب أكبر

في هذه المرحلة تظهر مهمة المجتمع المسيحي بكل أهميتها: تعزيز تجربة المسيحية باعتبارها امتلاء بالحياة لكل إنسان. ما الذي يسمح لامرأة ورجل متزوجين بألا يتم استهلاكهما في مزاعم أو استسلام؟ من الضروري أن يعيشا في أفق حب أكبر، أي أن يكون هناك مكان يستطيعان فيه دائما اكتشاف مسيح جديد يكمل انسانيتهما. من العلاقة مع المسيح في كنيسته تولد القدرة على احتضان الآخر في اختلافه، بحرية ليس لها حدود، وغفران متجدد.

(٢٠) L. Giussani, *Affezione e dimora,* BUR, Milano 2001, p. 250.

وبدون المجتمعات المسيحية القادرة على مرافقة الأزواج ودعمهم في مشروعهم، سيكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن تصل بهم إلى خاتمة إيجابية. لا يستطيع الزوجان، من جانبهما، أن يتجنبا العمل التربوي، وهما من العناصر الرئيسية فيه، لو ظنا أن الانتماء للمجتمع الكنسي يحررهما من الصعوبات.

وتلخيصا منه للوضع، أكد البابا بندكت السادس عشر على الحاجة إلى «ألا تترك الأسر معزولة. فيمكن لعائلة صغيرة أن تجد العقبات التي يصعب التغلب عليها إذا شعرت بالعزلة عن بقية أفراد العائلة والأصدقاء. ولهذا فإن المجتمع الكنسي عليه مسئولية تقديم الدعم والحافز، على الأقل الروحي، الذي يحصن التلاحم الأسري، وخاصة عندما تواجه مأزقا أو لحظات صعبة. وبهذا المعنى، يصبح من الهام جدا التركيز على دور الأبرشيات، فضلًا عن الجمعيات الكنسية المختلفة، التي تدعى إلى التعاون كهيكل داعم، ويد الكنيسة الوثيقة لنمو العائلة»(٢١). هذه الدعوة، المليئة بالحنان والواقعية، هي في الوقت نفسه إشارة إلى واجب ملزم.

الأسرة بهذا المفهوم في حاجة إلى مكان للحفاظ عليها، وهذا المكان لا يمكن تمثيله إلا بالمجتمعات المسيحية الحية، التي جربت اكتمال الإيمان.

(٢١) Benedetto XVI, *Incontro festivo e testimoniale per la conclusione del V Incontro Mondiale delle Famiglie*, Valencia, 8 luglio 2006.

الانتماء إلى الكنيسة، إلى ذلك المحفل الكنسي الذي يعيش كل واحد منا فيه الحضور الكوني للمسيح، هو شرط الحياة للعائلة، وهو تجربة حتمية للخير. والمساعدة الأكبر التي يمكن أن يمنحها المسيحيون للجميع لتعزيز الاهتمام بإنشاء كيان أسري هو الترابط الأخوي بين الجميع وإنشاء بيوت مضيافة. «إن التغلب على العزلة في تجربة روح المسيح لا يقرب الإنسان من الآخرين، بل يفتح لهم كياناتهم حتى أعماقها. [...] يصبح المجتمع ضروريًّا لحياة كل فرد. [...] ويصبح ال «نحن» اكتمالا لل «أنا»، وقانونا لتحقيق ال (أنا)»[٢٢]. ويشهد على إمكانية تكوين هذه العلاقة المساهمة الأصلية التي يمكن أن يقدمها الأزواج المسيحيون في مواجهة المشقة التي تواجه العديد من مواطنيهم. إنها شهادة مجانية تتحدى العقل وحرية أولئك الذين لا يستطيعون العثور على إجابة كافية لحاجة المرء إلى السعادة. إنها شهادة يمنحها الوعي بأن «لدينا هذا الكنز في الأواني الطينية، لأن هذه القوة الاستثنائية تأتي من الله وليس منا»[٢٣].

تتجلى في هذا تماما طبيعة رسالة الزواج: أن نسير معا نحو الواحد الأحد الذي يمكنه أن تستجيب للعطش للسعادة التي يثيرها فينا الآخر: المسيح. بهذه الطريقة لا يمكن للمرء أن يمر، مثل المرأة السامرية، من زوج إلى زوج[٢٤]، دون أن تكون قادرة على تلبية عطشها هي نفسها. إن الوعي بالعجز الذاتي وعجز الآخرين عن حل دراما الحياة، حتى وغيرنا

(٢٢) L. Giussani, *Il cammino al vero è un'esperienza*, op. cit., p. 110.
(٢٣) كورنثوس ٢-٧،٤٤.
(٢٤) راجع يوحنا ٤-١٨.

الزوج خمس مرات، صوره لنا يسوع باعتباره خيرا مرغوبا لم يستطع إلا أن يصرخ به: يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هذَا الْمَاءَ، لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ»[٢٥].

بدون تجربة المسيح بصفتها امتلاء إنساني، يتم اختزال المثال المسيحي للزواج إلى شيء مستحيل: عدم قابلية الزواج للفسخ وأبدية الحب تبدو كخيالات غير قابلة للتحقيق. وهي في هذه النقطة من الثمار المجانية لتجربة المسيح التي تبدو للزوجين نفسيهما مدهشة مثل الشهادة التي تقول: «لا شيء مستحيل على الله».

وليس إلا امتلاء الحياة بالشكل الذي ندعو إليه ما يمكن أن يبين عقلانية الإيمان المسيحي، أي تطابقه التام مع رغبة الإنسان واحتياجاته، حتى في الزواج والعائلة.

كما أن العلاقة الحقيقية بين الوالدين تشكل أفضل طرح تربوي للأطفال. فمن خلال جمال العلاقة بين الوالدين يسري فيهم، مثل الخاصية الشعرية، معنى الوجود. هذا الجمال، المتلألئ في حياة الأزواج المسيحيين، لا يستحث العقل والحرية عند الأطفال وحسب، بل هو أيضا شهادة على أن الرجال والنساء في عصرنا يحتاجون إلى التلاقي.

---

(٢٥) يوحنا ٤-١٥.

١٤
مع جرأة الواقعية

أسمع أن الكثيرين يقولون إن هذه الأوقات تتميز بصعوبة، تزداد تدريجيًّا، يواجهها أولئك الذين يتحملون مسئولية الأعمال والشركات.. يبدو المناخ كأنه ناتج عن زلزال أدى إلى انهيار كل شيء. يضطر كثيرون للحركة ضد «الريح». في هذا السياق، هل من الممكن العثور على أسباب للعمل بجرأة وواقعية؟

الأزمة والشخص

يبدو لي أن النقطة الأولى لتناول الموضوع تتمثل في اكتساب وعي أولي: كل رجل أعمال أو رب عمل يشارك بأدوار مختلفة في أي شركة هو شخص. قد يبدو الأمر كاكتشاف الماء الساخن، ومع ذلك فإن هذا ما يعتبره الجميع أمرًا مفروغًا منه، مما يختزل الشخص فعليًّا إلى قدراته الخاصة. لكن الشخص ليس فقط ما يمكنه فعله. القول بأن صاحب

المشروع هو شخص يعني أنه، قبل أي شيء آخر، يحتاج إلى وضوح حول أصله ومصيره، مصدر قيمته، الذي بدونه يبدو كل شيء آخر غير كاف، حتى قدراته. الأمر واضح جدًّا: اليوم يضرب الزلزال مركز الأنا، وتماسكها. وبهذا المعنى، يمكن للأزمة أن تكون فرصة غير مرغوبة، ولكنها فرصة ثمينة لاكتشاف حقيقة الذات، حيث يرتكز اتساقها، وبالتالي تضع أساسًا مناسبًا للتعامل مع الوضع الحالي والمستقبلي، والتحدي الصعب الذي أمامنا، وهي لا تنفصل أبدا عن ممارسة المهنة.

ما هي السمات الأساسية للأنا؟ هنا تساعدنا عبقرية دانتي: «كلنا يتعلم خيرا على غير هدى/ تطمئن الروح إليه، وترغب:/ لأننا جميعًا نسعى إليه»(١). لكن أين تجد الذات المشكلة على هذا النحو، برغبتها في الخير التي تتسم بها، اتساقها الخاص لكي تستطيع أن تقاوم في خضم زلزال الظروف؟ هنا بالتحديد الحافز الذي يمثله الموقف الذي نواجهه. ما الذي يصل إلى مستوى عطش الإنسان؟ لا يمكن أن تتمثل الإجابة في آراء وتفسيرات وثرثرات، لا تستحق الوقت الذي ينفق فيها.

على هذا المستوى، يمكننا، كمسيحيين، تقديم مساهمتنا، شريطة أن نقبل القيام بأنفسنا بالتحقق من الإيمان في ظروف اليوم. فقط أولئك الذين يدخلون مسار هذا التحقق يمكنهم في الواقع تقديم التأكيد، من خلال شهادتهم، بأن المسيح وحده، الحاضر في الكنيسة، هو المتوافق مع الاحتياجات التأسيسية للأنا البشرية: «المسيح، هو وحده الذي يشبع

(١) Dante Alighieri, *Commedia. Purgatorio*, canto XVII, vv. 127-129.

رغبات الحقيقة والخير المتجذرة في روح كل إنسان»[٢]، وبالتالي يضمن الارتياح الذي يولد عاطفة قادرة على الحفاظ على الحياة في مواجهة أي احتمال، كأنه مرساة أمان في وسط العاصفة. ومن هنا حيث يمكننا معرفة ما إذا كان لقاء مع الظروف قد أنضج فينا الثقة التي تسمح لنا أن نقدم لإخوتنا موطئ قدم.

هذا ما توضحه لنا تجربتنا: فقط المسيح، الحاضر هنا والآن، يمكن أن يكون الأساس المناسب للصداقة العملية التي تواجه العالم، وهو ما تريده أيضًا تجربتك. يصبح في رفقة حقيقية من الأصدقاء يمكن لكل واحد فيها أن ينظر إلى واقع شركته بكل حرية، دون أن يتغلب عليه الخوف الذي يمنع الاعتراف بكيفية حدوث الأمور، وهو شرط ضروري للعمل الذي يهيئ فرص النجاح. نحن بحاجة إلى شركة أصدقاء تحث الجميع على النظر إلى جميع معاني الموقف الذي يجدون أنفسهم فيه، دون حظر أي معنى منها، وتشجعهم وتدعمهم في رغبتهم في إدراك دلالات الواقع واتباعها، وتغيير كل ما هو مطلوب. التغيير الذي يساعد على اتخاذ القرارات بجرأة، التي لا تخشى المخاطر، والتي ترتقي إلى مستوى المشاكل التي تنشأ، قبل أن يفوت الأوان.

ستكون التجربة التي ستجعلك تكتشف القيمة الثمينة لصداقتك: أن تكون داعمًا لنظرة حقيقية للواقع. وبالمقارنة مع هذا، فإن أي ميزة

(٢) Benedetto XVI, *Udienza generale*, 21 novembre 2012.

أخرى تعد ضئيلة للغاية، لأنها لا تسمح بالمقاومة في أوقات الزلازل مثل أوقاتنا.

لقد أدرك سان تومازو معاني ما نقوله: «من الطبيعة ينبع رعب الموت، ومن النعمة تنبع الجرأة»[٣]. «من النعمة تنبع الجرأة» تعني أن: من وجود مختلف عنا تأتي الجرأة فينا»[٤]. يمكنني الحصول على الجرأة التي أحتاج إليها، والمخاطرة إذا لزم الأمر، فقط إذا كنت على استعداد على أن استند بكل شيء على هذا الوجود، على تلك الشراكة الحقيقية، التي تثبت وتقدّم نفسها لحياتي كنقطة دعم حقيقية. «رمز الجرأة هو العمل النحتي «الملاحة البحرية» لاندريا بيزانو (وهو عمل نحتي صغير [...]). هناك تلميذان يقفان على متن القارب، يقطعان مياه البحيرة، يجدفان، بكل جهد رغم أنهم هادئون وواثقون، تجاه الشاطئ الآخر: وخلفهم، على القارب، يوجد يسوع. المسيرة، الممر، العبور نحو المصير، تصبح في الواقع ممكنة فقط عندما يكون هناك وجود (إذا كان أحدهم وحيدا على المجداف، فسوف يغيم بصره، ويتوقف فورًا). ويصبح المسار بسيطًا إذا كان هناك وجود، أو بمعنى آخر صريح: إذا كانت هناك شراكة»[٥].

(٣) Cfr. san Tommaso d'Aquino, *Super Secundam ad Corinthios*, 5,2.

(٤) L. Giussani, *Un avvenimento di vita, cioè una storia,* op. cit., p. 308.

(٥) المرجع السباق نفس الصفحة.

الأصل والعمل

نظرًا لوجود أعمال وشركات مرتبطة بشركة الأعمال Compagnia delle Opere التي أنشأها أشخاص يشاركون في التجربة المسيحية، غالبًا ما يعيشون داخل حركة الشراكة والتحرر، فمن الملح بشكل خاص في هذه الأوقات توضيح العلاقة بين الشراكة والتحرر والأعمال التي يقوم بها الأشخاص المتعلمون في الحركة.

١) إن الغرض من حركة الشراكة والتحرر هو التعليم، تعليم الناس الذين يمكنهم أخذ زمام المبادرة لإنشاء الأعمال. ولكن هذه مسئولية ملقاة بالكامل على عاتق الراشدين، أي على الشخص. لا تدخل الحركة في إدارة العمل، لأن ذلك سيكون بمثابة الاعتراف بأنها غير قادرة على توليد الراشدين الذين يتحملون المسئولية بأنفسهم. وسيكون هذا بمثابة فشل كلي لتجربة الشراكة والتحرر. وليس معنى هذا أن الحركة غير مهتمة بالأعمال. بل على العكس، فالحركة مهتمة بها، ولكنها تفعل ذلك بالقيام بواجبها على أتم وجه: أي تقوم بتربية وتكوين الراشدين. وقد أكد الأب جوساني منذ البداية بأن مهمة الحركة هي توليد الراشدين القادرين على الإبداع على كل المستويات وتحمل مسئولية ما ينشئونه. ولم يفكر أبدًا في «حارس» يراقب الأعمال ومن يقومون بها، فراهن و«خاطر» بكل شيء على وعي وحرية الأشخاص الذين تربوا على الإيمان بالحركة. على العكس من ذلك، فقد شدد دائمًا على أن مسئولية الأعمال تقع على عاتق الأشخاص الذين ينفذونها وليس على عاتق «الحركة، وإلا» فإن

التجربة الكنسية سوف ينتهي بها الأمر إلى أن تصبح مجرد أداة، وستصبح الجماعات مجرد منصات وغطاء للقرارات والمخاطر التي يجب أن تكون شخصية»[٦].

٢) وبالتالي فإن العمل هو عمل من يقوم به، وبهذا المعنى لا يوجد عمل «للحركة». الحركة ليس لها أي أعمال باستثناء معهد القلب المقدس، الذي أراده الأب جوساني كمثال للجميع في المجال التعليمي. لا يوجد أي عمل أو شركة أخرى (تهدف أو لا تهدف الربح) تحت المسئولية المباشرة لحركة الشراكة والتحرر. والحركة ليست جزءًا من مجلس إدارة هذا العمل أو ذاك، لذلك فهي لا تتحمل أي مسئولية عن قراراتهم.

يجب أن يكون لدى جميع الأشخاص الذين يقررون إنشاء أحد الأعمال وعي بمسؤوليتهم الكاملة عن كل ما يفعلونه. هذا مهم بشكل خاص. في بعض الأحيان نلاحظ نقصًا في هذا الوعي، وبالتالي يمكن تمرير أشياء كان يجب التدخل فيها، بدلاً من تحمل مسئوليتها. لو كان الجميع على علم تام بمسؤوليتهم، لما كانت أشياء معينة لتحدث.

هذا الافتراض للمسئولية الشخصية هو جزء من نمو الأشخاص الراشدين الذين نتمناهم جميعا. وبعبارة أخرى، إنها مسئولية العلمانيين، التي تصرّ عليها الكنيسة كثيرًا: فهي تريد من كل واحد منكم أن يتحمل مسئولياته لكي يستطيع من خلال عمله أن يكون شاهدًا على جمال الحياة المسيحية، وما هو «المخلوق الجديد» في العالم. يبدو لي أن هناك طريق

(٦) L. Giussani, *Il movimento di Comunione e Liberazione (19541986). Conversazioni con Robi Ronza,* BUR, Milano 2014, p. 155.

طويل يجب قطعه. ليس بسبب عدم وجود تجارب رائعة بينكم، ولكن لأنه يلزم تعلم المزيد مما يحدث، من النواقص المحتملة التي يمكن اكتشافها، لتجنب المخاطرة أو ارتكاب الأخطاء.

إن مقدرة شخص راشد- يشارك في تجربة حركة الشراكة والتحرر - على إنشاء أعمال هو علامة على حيوية الحركة، وطاقتها التعليمية، التي تولد أناسا لديهم حساسية اكتشاف احتياجات المجتمع وقادرين على الاجتماع معًا لتنفيذ المبادرات، التي تمثل استجابات كافية مؤقتًا لاحتياجات الناس. لن نتخلى أبدًا عن هذا. كم من مرة ظللت عاجزًا عن الكلام أمام إبداع ومبادرة وسخاء العديد منكم! إنها ثمرة التعليم الذي تم تلقيه في حركة الشراكة والتحرر وهذا شيء جميل، يشهد على قدرة الإيمان على توليد أشخاص قادرين على أن يصبحوا من أبطال التاريخ من خلال إنشاء الأعمال. ومثل هذه الثروة من المبادرات هي حقيقة واضحة للجميع، ولا يمكن التشكيك فيها بسبب قصور البعض وأخطاء يمكن أن يرتكبها أي شخص. بل على العكس من ذلك، فإن الاعتراف بالقصور والأخطاء، والاعتذار عنها وتصحيحها يمثل إمكانية استعادة وعي المرء بمسئوليته عن الأعمال التي يلتزم بها.

وجزء من هذه المسئولية، بالإضافة إلى الواقعية والحكمة في إنشاء شركات الأعمال، جعلها تعكس التنوع والاختلاف، كما في طريقة معاملة الموظفين على سبيل المثال، وكذلك إقامة علاقات مع العملاء

والموردين. قد تبدو عناصر قليلة الأهمية ولكنها في الواقع تصرخ بالتنوع وتردد أصداء الأصل فيه.

أود أن أغتنم هذه الفرصة لأقول شيئًا عن شركة الأعمال، التي تقدمها الصحف غالبًا على أنها «الذراع الاقتصادي» لحركة الشراكة والتحرر. وهو ما يقود البعض إلى الاعتقاد بأن الحركة تعتمد اقتصاديًّا عليها. وهذا شيء أبعد ما يكون عن الواقع.

من البداية، تعيش الحركة حصريًّا بفضل التضحيات الاقتصادية للأشخاص الذين ينضمون بها. فيتعهد كل عضو بدفع حصة شهرية من المال يقررها بحرية، فيما يسمى بالصندوق المشترك، والذي أشار إليه الأب جوساني دائما باعتباره مبادرة تعليمية تربوية لمفهوم مشاركة الجماعة فيما تمتلك، والوعي بالفقر باعتباره قيمة انجيلية ولفتة عرفان على ما يعيش فيه العضو في الجماعة. لهذا السبب التربوي بالتحديد، ليس من المهم مبلغ هذه الحصة التي يدفعها كل واحد، ولكن الجدية التي تميز التزامه بها. من أجل دعم حياة جماعاتنا في إيطاليا والعالم والمبادرات الخيرية والتبشيرية والثقافية، لا تحتاج حركة الشراكة والتحرر إلى أي شيء آخر. ولهذا فقد تحررنا من كل شيء ومن الجميع في تنفيذنا لواجبنا كحركة.

الانتماء والمسئولية

نسمع كثيرًا أن الانتماء للكنيسة أو لحركة كنسية يشكل قيدًا على المسئولية الشخصية. بينما الحقيقة هي أنها هدف معاكس، وهو تشجيع

وتعزيز تولي المسئولية. وكما هو الحال دائمًا، يعتمد كل شيء على تصورنا للانتماء وعلاقته بالمسئولية.

هناك أنواع من الانتماء، فبدلاً من مساعدة الشخص على الرشاد، لكي ينمو وتنمو مسئوليته، تحل محله، كما لو كان انتماء شخص إلى مجموعة معينة يمكن أن يوفر عليه مخاطر المسئولية الشخصية ويبرر سلوكه بشكل مسبق. وعلى العكس هناك انتماء يولد الشخص القادر على تحمل المسئولية بحريته وبمبادرته وتوقظ لديه كافة الطاقات المختفية.

إن البعد التشاركي، كما يذكرنا الأب جوساني دائمًا، لا يشكل بديلاً للحرية الشخصية والطاقة والقرار، بل هو شرط لتأكيدها. الجماعة تشبه الأرض بالنسبة للبذرة: «ليست التربة هي التي تحل محل الطاقة غير القابلة للاختزال، وإنما الشخصية غير القابلة للتواصل للبذور: التربة شرط لنمو البذور. الجماعة هي البعد والشرط الذي بسببه تعطي البذرة الإنسانية ثمرتها. هذا هو السبب في أن الاضطهاد الحقيقي، الأكثر ذكاءً، الذي استخدمه العالم الحديث، [...] يتمثل في المنع الذي تسعى الدولة إلى تحقيقه حول التعبير عن البعد المجتمعي للظاهرة الدينية. إذن بالنسبة للدولة الحديثة، يمكن للإنسان أن يعتنق ما يشاء في ضميره: شريطة ألا تنطوي هذه العقيدة على وحدة جميع المؤمنين وحقهم في التعبير عن هذه الحقيقة. إن منع التعبير عن الجماعة هو بمثابة قطع التغذية عن

جذور النبات[٧]. ولدينا الكثير من الأمثلة حول ما يحدث عندما نمنع هذه الإمكانية، هذا التعبير المجتمعي الحاسم لنمو الأشخاص!

ومن ثم فإن اختبار الانتماء هو اختبار قدرته على إثمار البذور، أي توليد الراشدين الذين لديهم القدرة على أن ينخرطوا في الواقع، والتقييم والاستعداد للإنصات للواقع وفهمه. ومع ذلك، فعلى هذا المستوى، لا تكفي العبارات التي تعبر عن المبدأ، بل نحتاج إلى شهادات تثبت أن الناس يزدهرون في الانتماء وأن الانتماء يولد أشخاصا راشدين.

خطر الشخصنة

في الختام، أود أن أبرز، بين قوسين، أن هناك أيضًا طريقة مشوهة لفهم المسئولية، عندما يصبح الالتزام الشخصي شخصنة، أي تركيز كل شيء على النفس، وجعل المعايير الموضوعية نسبية. ولكي أذهب إلى الجوهر دون لف أو دوران حول الكلمات، أبادر بالقول إن الشخصنة هي طريقة خاطئة للرد على مشكلة الحياة، ومتابعة تحقيق ما نتوق إليه جميعا. والشخصنة مثل الفردية تولد من سوء فهم لطبيعة الأنا. والأنا هي في الواقع هي علاقة مع اللانهائي. ولكن إذا لم ندرك ذلك، بوعي أو بغير وعي، فإننا نحاول الاستجابة لحاجتنا الإنسانية مع «التركيز على أنفسنا»، والتي لن تشبع أبدًا الرغبة في اللانهائية التي تشكلنا. وإضافة إلى أنها غير

(٧) L. Giussani, *Il senso religioso*, op. cit., p. 183.

فعالة على مستوى النتائج، فإن الشخصنة هي أيضًا غير مفيدة للإجابة على الاحتياج البشري والذي يكتسب منها حركته بطريقة أو بأخرى.

ومع ذلك، يجب أن أضيف أن الشخصنة لهذا الشخص أو لذلك ممكنة بشرط التعايش بين كل أولئك يفكرون بطريقة تكاملية في حل مشكلة حياتهم بتفريغ مسئوليتهم على «القائد» الذي يمارس الشخصنة، أو ما يسمى «المسئول». ومن ثم فإن «العلاقة مع المدير، عندما يتم اتباعه لأنه هو رئيس المؤسسة التي تم إلقاء كل الآمال عليها، والتي يتوقع منها تنفيذ المشروعات، هي علاقة مغلقة على التبعية الفردية». الطاعة التي يتم تأسيسها هي طاعة المؤسسة، التي يكون المسؤول عنها هو النقطة الحاسمة والوصي عليها، وهذا يلغي إبداع أشخاصنا، لأن كل شيء يتم تحديده وتعريفه من خلال البنية التي ينضمون إليها، ويصبح كل شيء مخططًا»(٨).

كيف نخرج من الشخصنة؟ بنفس الطريقة التي يتم فيها التغلب على أي عبادة أصنام: من خلال الانضمام إلى وجود يحثنا على الوعد بالإنجاز الذي يحمله ويضعه أمامنا. كلما أدرك المرء الطبيعة الحقيقية لاحتياجات الإنسان، كلما أدرك المرء أن الطريق إلى تلبيتها هي تتابع الوجود التي يوقظنا. ومثل هذا التتابع بعيد كل البعد عن تنفيذ أوامر شخص نفرغ عليه مسئولياتنا، على أمل أن يحل لنا مشكلة الحياة. يقول الأب جوساني: «إن التتابع هو الرغبة في استعادة تجربة الشخص الذي أثارك ويثيرك

(٨) L. Giussani, *Il rischio educativo,* SEI, Torino 1995, p. 63.

بحضوره في حياة المجتمع، وهو التوتر ليس في ان تصبح مثل هذا الشخص في واقعه الملموس المليء القيود ولكن مثل هذا الشخص في القيمة التي يعطيها لنفسه، والذي بكتسب وجهه رجلا فقيرا، وهي الرغبة في المشاركة في حياة ذلك الشخص الذي جلبه إليك الآخر، وهذا الآخر الذي تعبده وتتشوق للقائه وتنضم إليه في هذه المسيرة»[٩]. يمكن للإنسان الملتزم باستعادة تجربة الشخص الذي استفزه أن يصل إلى الآخر، إلى من يجد فيه ما يصبو إليه، وأن يجعل من ذلك تجربة، عندئذ يتحرر، ويسقط عن كاهله كل شخصنة، فلم يعد يحتاج إلى تركيز كل شيء على نفسه، وإلا سوف يبدأ بالقول «أنا» دون أن يفوض الآخرين مسئولية قراراته. النعمة التي يجب أن تتمنى للجميع هي الالتقاء بأشخاص في مكان العمل يحفزونه ويثيرون فيه الرغبة في اتباعهم. إنهم بوجودهم يساعدون الآخرين إلى أن يأخذوا أنفسهم على محمل الجد، وأن ينخرطوا في العمل المشترك ويمنحونه إسهاماتهم. الأمل هو أن تصبحوا أنتم ممثلين لهذا الوجود كل في مجاله.

(٩) المرجع السابق ص ٦٤.

١٥

الأزمة، التحدي من أجل التغيير

«رأى الله ذلك أنه حسن»

«ورأى الله ذلك [...] أنه حسن [...] كان حسنًا جدًّا»[١]. هذه العبارة التي تكررت ست مرات في الإصحاح الأول من سفر التكوين ، يعبر عن القناعة الأساسية لشعب إسرائيل بشأن الواقع: إنه حسن، بل حسن جدًّا. وهي ليست عبارة ساذجة، قالها ساذج جاهل بالتاريخ الحقيقي للبشر وآلامهم. فكما نعرف، فإن الإصحاحات الأولى من سفر التكوين لم تتم كتابها في بداية تاريخ بني إسرائيل، وإنما بعده بقرون كثيرة، في نهاية مسار طويل لم ينج فيه بنو إسرائيل من آلام تعرض له غيرهم من الشعوب.

---

(١) التكوين 1,4.10.12.18.21.31.

ولهذا السبب يصبح السؤال أكثر إلحاحًا: كيف يمكن لإسرائيل أن يكون لديها قناعة مؤكدة بإيجابية الواقع بعد أن اجتازت في كل تاريخها المعاناة والمضايقات والعذابات بجميع أنواعها؟

هذا الموقف من شعب إسرائيل القديم في مواجهة الواقع أكثر إثارة للدهشة إذا وضعناه في السياق الثقافي للشعوب المجاورة. في الواقع، فإن تجربة الألم كانت قد دفعت الشعوب الأخرى إلى قناعة مختلفة: الواقع ليس 'إيجابيًّا كله، فهناك نوعان من الواقع، أحدهما إيجابي والآخر سلبي. وهذا هو ما عبرت عنه المانوية، وفيها مبدأن، أحدهما حسن والآخر سيء، ينعكسان في خلق حسن وخلق سيء. فلماذا لم تغلب الرؤية المانوية هذه على إسرائيل أيضا؟

فقط بسبب تاريخها. كانت تجربة شعب إسرائيل مع الله، حتى في خضم كل محنته، إيجابية للغاية بحيث لم يكن بمقدوره تجنب تأكيد حسن صنيعه. لقد تجلى الله في تجربة إسرائيل بكل قوته المنقذة. ومن هذه التجربة استخلص ما يلي: أنه هو، المنقذ، وهو أيضا الخالق. وأن هناك مبدأ واحد حسن وراء كل شيء. وأن كل ما يأتي من الله، حسنن بل حسن جدًّا. لذلك، فالواقع إيجابي. لقد كان وجود الله في وسط شعبه هو الذي علم اليهود أن ينظروا إلى الواقع على حقيقته، بحيث لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتأثر وجودهم بكل المحن المختلفة التي كان يمكن أن تمنعهم من النظر نظرة حقيقية للواقع.

أتذكر مثالاً كنت أقدمه لطلاب المدارس الثانوية. حمل والدان طفلهما إلى ديزني لاند. يمكننا بسهولة تخيل كيف يمكن أن يدهش الطفل من جميع مناطق الجذب الموجودة هناك، والتي يمكنه أن يتمتع بها. إذا استطعنا فرضا أن نراقبه، ونراقب ردود فعله الواحد تلو الآخر، سنظل نحن أيضا متأثرين بالسحر الذي يستطيع الواقع أن يثيره في نفسه، وهكذا يتصور كل شيء ينظر إليه على أنه إيجابي. ولكن إذا تم فصل الطفل عن الوالدين، بالسهو أو الخطأ مثلا، وتاه الولد وسط الزحام، فسوف يكتسي كل شيء بنكهة أخرى، رغم أن الواقع ثابت في الحالتين، ولكن تصوره يختلف جذريًّا، ولن يحس به الطفل كما كان يحس به أولاً، وإنما يتحول إلى مصدر تهديد له. والعثور على الوالدين فقط هو الذي يمكن أن يعيد إليه النظرة الحقيقية للواقع.

ومن ثم فإن أكثر ما يلفت الانتباه هو أن إيجابية الواقع هذه قد فهمها شعب إسرائيل حقًا في وقت الأزمة. مع خسارة المعبد، تم تجريد إسرائيل من الأرض والملك، وتشرد شعبها إلى المنفى، وتجرد من كل شيء كان يمثل له هوية عقيدته. «لِمَاذَا تَقُولُ يَا يَعْقُوبُ وَتَتَكَلَّمُ يَا إِسْرَائِيلُ: (قَدِ اخْتَفَتْ طَرِيقِي عَنِ الرَّبِّ وَفَاتَ حَقِّي إِلهِي)»؟

بدا لهم أنهم قد تم التخلي عنهم، «فات حقي»، عن ذلك الإله الذي اختارهم. للإجابة على هذا السؤال، أُضطر إسرائيل لإيجاد أساس أقوى. إنه أشعياء الذي أرسله لإنقاذ شعبه لمساعدته على النظر بعناية في الواقع الذي أمامه: ارْفَعُوا إِلَى الْعَلاَءِ عُيُونَكُمْ وَانْظُرُوا، مَنْ خَلَقَ هذِهِ؟ [أي

مياه البحر، وضخامة السماء، وتراب الأرض والجبال]. [...] أَمَا عَرَفْتَ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ؟ إِلهُ الدَّهْرِ الرَّبُّ خَالِقُ أَطْرَافِ الأَرْضِ»[٢]. عندما ينهار كل شيء يبقى شيء ما: الواقع.

ليساعد بعضنا البعض على النظر إلى واقع تجربتنا. ويمكننا تلخيص حجر الزاوية في موقفنا بعبارة: الواقع إيجابي. نشعر جميعًا بالصدمة التي تثيرها هذه العبارة، لأن السؤال الذي يطرح نفسه على الفور: ولكن هل صحيح أن الواقع إيجابي؟ هذا تحدٍ صعب بالنسبة لنا، لأننا نحن أيضًا - مثل المانويين القدماء - نعتقد أن هناك حقيقة حسنة وأخرى سيئة. ونحن منغمسون في وضع يغيم أبصارنا فنفشل في إدراك طبيعة الواقع. لذلك، نشعر بالصدمة عندما نسمع الادعاء بهذا الحكم - الواقع إيجابي -، لأنه يصيب عقليتنا.

بهذا الحكم على إيجابية الواقع لا ننوي تقديم شيء صالح فقط للكاثوليك، بل نود أن نقول: «بالنسبة إلينا» الواقع إيجابي، لأن وجودنا معا «يقنعنا» بأن نفكر على هذا النحو، وهو ما يرضي خواطرنا. وقناعتنا هي أن هذا برهان واضح يستطيع الجميع أن يراه. «إيجابية تجاه الحياة، والواقع، نحن لا نحثها بالشراكة - وإلا كان رضا الخواطر فيها محدودا- لكن تمليها الطبيعة. تسهّل علينا الشراكة قبول هذا، حتى من خلال الظروف السيئة والحالات المعقدة»[٣].

(٢) أشعيا 40,12s.26-28.

(٣) L. Giussani, *Si può (veramente?!) vivere così?*, op. cit., pp. 29, 22, 93.

يمكن النظر إلى الواقع على أنه إيجابي لأنه إيجابي. إنها ليست مسألة «تعميد» الواقع من تصورات دينية مسبقة، من رؤية «تقوى دينية»، بل من التعرف عليها في طبيعتها النهائية. الواقع في وجوده المجرد ايجابي. لماذا؟ الواقع إيجابي لأنه موجود. كل ما هو موجود قد وجد لأن السر الأعظم قد سمح بحدوثه «كل شيء، في الواقع، ينشأ من مضغة غامضة، لا شيء يصنع من نفسه»، فهو الذي يثير الشخص ويحركه ويمثل دعوة إلى التغيير وفرصة لخطوة نحو المصير. كل ظرف من الظروف هو طريق وأداة في مسيرتنا، وهو علامة. وباعتبار الواقع موجودا فهو مستفز، ومن ثم فهو فرصة لإيقاظ الأنا من سباتها. وحتى الازمة تفعل الشيء نفسه، لأنها تضغط بأسئلتها.

وكما تقول حنه ارندت فإن «الأزمة تجبرنا على العودة إلى الأسئلة، وتتطلب منا إجابات جديدة أو قديم، شريطة أن تكون مستقاة من الفحص المباشر، ولا تتحول إلى كارثة إلا عندما نحاول مواجهتها بأفكار مسبقة، بما يزيد وطأة الأزمة، بل ويؤدي إلى التخلي عن خوض خبرة الواقع واستغلال الفرصة التي تتمثل في الأزمة للتفكر والتأمل»[٤].

عمل العقل

لكن الإيجابيات غير القابلة للاختزال التي نتحدث عنها لا يتم الكشف عنها ميكانيكيًا، بل فقط لمن يقبل تحدي الواقع، لأولئك الذين يتناولون أسئلتهم بجدية، لأولئك الذين لا يتراجعون أمام الضرورات

(٤) H. Arendt, *Tra passato e futuro*, op. cit., p. 229.

الملحة للحياة. أما أولئك الذين يقبلون هذا التحدي فسيجدون أسبابًا كافية لأنفسهم والآخرين لمواجهة الأزمة. كم من شهادات لأشخاص صارت الصعوبات بالنسبة لهم فرصا للتغيير! هذه هي عظمة الأنا التي يجب أن نمارسها في مواجهة الأزمة؛ وإلا فقد هُزِمنا بالفعل، فحتى لو تم حل الوضع المالي، نكون قد هزمنا في شخصنا لأننا قبلنا أن نكون شيئا تطحنه تروس الظروف. وكم من أشخاص كانوا في حالة من المعاناة جعلوا من الممكن التحرر من الحياة المسطحة، وكم من ثمرة غير متوقعة ومدهشة أثمرها تحمل الألم وقبوله، أو من هزائم تكبدناها لأننا تركناها تسائلنا! كم من شهادات لأناس كانت ممتنة لما حدث لها وللتغيير والشدة التي تحملوها، ولم يرغبوا قط في أن تحدث لهم! ما حدث كان وسيلة غامضة لإفاقة الأنا ولتفهم أعمق لطبيعة الواقع، الذي ندعي أننا نعرفه.

الواقع إيجابي لأنه السر يسكنه. لكن ما هو المطلوب لتلقي هذه الإيجابية؟ مثل هذا الاعتراف بالواقع ما الذي يتطلبه؟ العقل، أو بالأحرى، استخدام العقل حسب طبيعته الحقيقية للمعرفة الواقعية بجميع عواملها. وفي الواقع، يمكن للعقل أن يتلقى الواقع باعتباره «من المعطيات» لنشاط وجاذبية، وإثارة، ومن ثم باعتباره دعوة. «أن نكون معقولين يعني أن نتعرف على نواتج التجربة. وبالتجربة يطفو الواقع باعتباره إيجابية [هذا هو التحدي الذي أطلقه الأب جوساني لطريقتنا في الحكم: بالتجربة

يطفو الواقع باعتباره إيجابية. إن الواقع الناشئ عن التجربة إيجابي للغاية لدرجة أنه يظهر بشكل دائم على أنه عامل جذب»(٥).

ومع ذلك، إذا نظرنا حولنا، نرى أن استخدام العقل هذا نادر للغاية، بل يبدو أنه من المستحيل تقريبًا العثور عليه. إذا لم يفهم العقل هذا السر الذي يشكل قلب الواقع، وأغلى قيمة له، يستسلم الإنسان لإغراء فهم العبارة بطريقة عاطفية أو أخلاقية: «الواقع إيجابي»، يعني أنه مرغوب فيه، ومقبول بترحاب، وممتع. كيف يحدث هذا؟

وبسبب هشاشتنا «ضعف عميق فينا» ولشروط يفرضها السياق الثقافي والاجتماعي، وللسلطة التي تحيط بنا، يصبح لاستخدام العقل غالبا غريبا علينا. وبسبب هذه الهشاشة والشروط المفروضة، فإننا عندما نصادف واقعا يظهر وجهًا سلبيًّا ومتناقضًا، فإن عقلنا - الذي يكون في الأصل مفتوحًا على لواقع - يتراجع ويرتعش ويرتبك. يكفي أن يظهر في أفق الحياة اليومية أمر غير موات حتى يضع إيجابيتها موضع الشك والنقاش. ونرى ذلك في تفاصيل الحياة اليومية: فبمجرد أن نصادف شيئا لا يوافق هوانا، نرتعد. فما الحال في مواجهة أزمة مثل الأزمة الحالية؟! والواقع، باعتباره معنى ينفتح على مصراعيه، يتحول إلى قبر غالبا ما نختنق فيه جميعا.

ولهذا الوضع الدرامي تحديدا، جاء السر الأعظم، وهو يدخل التاريخ، لتقديم مساهمته الحاسمة، كما يظهر من أحداث شعب إسرائيل.

(٥) L. Giussani, *Realtà e giovinezza. La sfida*, SEI, Torino 1995, p. 98.

إن التراث اليهودي المسيحي هو منبع هذا الموقف الإنساني حيث يتم التعرف على الواقع والتأكيد عليه بإيجابيته الأصلية: بطبيعته. والحقيقة أن الإيمان حدث قادر على إيقاظ الحس الديني والعقل وتعزيز قدرات الإنسان واكمالها لكي يبقى في الواقع ويعالج كل شيء وفقا لطبيعته الحقيقية، وبالتالي يمكننا من إدراك الواقع في إيجابيته. لقد جاء المسيح في ذروة تاريخ شعب إسرائيل لهذا السبب بالتحديد: لإحياء ذواتنا حتى نواجه أي تحد. لم يَعِدنا المسيح بأنه سوف يجنبنا أي شيء، ولكنه جاء لكي يمكننا من مواجهة كل شيء - وهو أمر مختلف للغاية - ومرافقتنا إلى النصر. يأتي المسيح الآن، لأننا نحن أيضًا، مثلنا مثل اليهود في لحظة الأزمة، في وضع هشاشة لا يمكن تجاوزه بقوتنا المفردة. لم يتجسد المسيح ليجنبنا عمل العقل والحرية، أو ليحل محل التزامنا، بل ليجعله ممكنًا، لأن هذا ما يجعلنا بشرا، يجعلنا نعيش الحياة كمغامرة مثيرة حتى وسط الصعوبات، بل ولا سيما في أوقات الأزمات، عندما يصبح كل شيء مسألة حياة أو موت. لقد أصبح المسيح رفيقنا لإحياء قدرة العقل على التعرف على الواقع، حتى لا نفقد عقلنا وروحنا. لقد جاء لإيقاظ الحس الديني، حتى نصبح «أكثر» إنسانية- بأن يضعنا في الظروف المثلى للنظر إلى الواقع وفقا لطبيعته الحقيقية - وليس لجعلنا «حالمين».

«إن الثقافة السائدة اليوم قد تخلت عن العقل كمعرفة، كاعتراف بالأدلة التي يقدم بها الواقع نفسه في التجربة، أي باعتباره إيجابي. وتخلى عن التعاطف مع الواقع، ومع حب الواقع. لقد تخلى عن الحب، لأنه من أجل إدراك الحقيقة كما تظهر من خلال التجربة، من الضروري أن نقبل

الصدمة. لا يقبل الإنسان الواقع كما يظهر له، ويريد أن يخترعه كما يريد [هذه الكلمات تكتسب الآن مزيدًا من الثقل في مواجهة الوضع المالي، فهي ليست كلمات تذهب هباء كالريح]، يريد أن يعرفه كما يريد، ويريد أن يعطيه الوجه الذي يريده»[٦].

في هذه الحالة، يتفهم المرء الأهمية التاريخية للمعركة التي أشعلها وسط لامبالاة عامة، البابا بندكت السادس عشر للدفاع عن الطبيعة الحقيقية للعقل، من أجل «توسيع العقل»، من أجل «عقل مفتوح على لغة الوجود»، أي من أجل «انا» قادرة على التعرف على الواقع ومواجهته.

خطوات الصحوة وعواملها

يشرح الأب جوساني بشكل توضيحي خطوات وعوامل «الصحوة»: «اتهام الواقع بأنه احتياج للبناء، ومن ثم احتياج للمصير، وللهدف – فالبناء يعني التعاون لتحقيق هدف، والتعاون لتنفيذ تصميم والوفاء بمتطلباته. والعقلانية، أي حب العقل، التي تقود الإنسان على ضوء التجربة. العاطفة كقلب الإنسان، نار التجربة وحرارتها، والحرية، إذا تركزت في إمكانية الاختيار، لا تتحول إلى نصل أو سكين يقطع التناسب السري الغامض والبناء فعلا لا قولا، والساحر، للمعرفة والعاطفة، بل تصبح ذراع التجربة في شمولية عواملها دون أن تفقد شيئا مما هو موجود، ومما يظهر أمام أعيننا، ويلمس قلوبنا. إن «الصحوة» تأتي بها أقدامنا عندم

(٦) المرجع السابق ص ١٠٠.

ترتكز بثبات على أرض الطبيعة، كما تظهر في التجربة، وكما تطرح نفسها في التجربة، كما تفرض نفسها في التجربة التي تقاس بعواملها الأصلية»[٧].

ويظهر المسيح تفرده على هذا المستوى: إعادة الإنسان لنفسه. ولذلك فإن الحس الديني الحي يعني التحقق من الإيمان؛ وبنفس الطريقة، فإن الاستخدام الحقيقي والكامل للعقل يعني التحقق من الإيمان، فهو التوثيق القوي الذي لا لبس فيه للعلاقة المعترف بها والمعاشة مع المسيح المعاصر لكل واحد منا. لا تضاف المسيحية من الخارج على حياة الإنسان كأنها بنية فوقية، مثل التقوى، لكنها توضح وتثري وتنقذ طبيعة الإنسان، التي وإن جرحت إلا أن الخطيئة الأصلية لم تلغها.

«والنتيجة الأولى [...] هي أمل لا يكل باعتباره المعنى الأخير للعلاقة مع الأشياء، كالمعنى الأخير للسير بين الأشياء: إنها إيجابية تتغلب على كل محنة تمر بها. وفي الواقع، يقول القديس بولس العبارة الأكثر ثورية في الأدب العالمي كله: كل مخلوق خير. [...] هذا هو السبب – كما يخلص القديس بولس –: كل الأشياء تعمل معا من أجل ايجابية حياتك، من أجل الخير»[٨]. قبل الاستشهاد بوقت قصير ، كان القديس توماس مورو يهدئ روع ابنته بهذه الكلمات: «لا شيء يحدث إلا ما أراد الله وأنا واثق من أن أي شيء يحدث ويظهر شرا لنا، سوف يكون دائما من أجل الأفضل»[٩].

(٧) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٨) L. Giussani, *Si può (veramente?!) vivere così?,* op. cit., pp. 293294.

(٩) من رسالة لمارجريت روبر إلى أليس النجتون حول حوار تم في السجن مع الأب، راجع Tommaso Moro, *Lettere*, Vita e Pensiero, Milano 2008, p. 385.

الواقع معنى وعلامة. لم نكن نحن من حدد هذا. بل كان ذلك كذلك. تدعو الأزمة الجميع - نحن والآخرين - إلى التحقق من حقيقته. كيف؟

إن الأزمة هي الظروف التي لا يجنبنا السر إياها- لأنها لم يبعد الدليل عن الشعب اليهودي - حتى نتمكن من التحقق فيها من الإيمان، وحتى نجرب فيها القدرة على التغيير، من أجل حدوث إيجابي في الحياة. وفي الواقع تعتبر الظروف جزء أساسيًا وليس ثانويًا من مهمتنا كبشر. إننا في السياق الحالي إذا لم ننظر إلى الواقع وفقا لطبيعته الحقيقية، فإن ذلك يعني أننا لم نعش الإيمان في أصالته، أي كاعتراف بوجود الله الذي يعلي من شأن إنسانيتنا. عندئذ يصبح الإيمان عديم الجدوى، لأنه لم يعد قادرًا على جعلنا نعيش الآن، في هذا الوضع الدقيق. علاوة على ذلك، سيصبح الإيمان جزءًا من المشكلة وليس من حلها. وبدلًا من ذلك، يمكن للأزمة، من باب المفارقة، أن تمثل إمكانية التحقق من المواءمة الإنسانية للإيمان ومعقوليته.

إلى الحد الذي نقبل به هذا التحدي ونقوم بنفسنا بعملية التحقق، سنتمكن من شرح التجربة التي نختبرها ، لنستخلص منها المسالك والمقترحات، وسنطرح أنفسنا أمام الآخرين كوجوه ثقافية تقدم شيئا يتجاوز الرثاء والشكوى، فلدينا بالفعل ما يكفي منها، والسبب، كما كررنا مرات عديدة هو أن «مساهمة المسيحيين حاسمة فقط إذا أصبح ذكاء الإيمان هو نفسه ذكاء الواقع»[١٠]. لذا ، إذا قبلنا هذا العمل ، سيكون

(١٠) Benedetto XVI, *Discorso ai partecipanti all'Assemblea plenaria del Pontificio Consiglio per i Laici*, 21 maggio 2010.

بوسعنا الامتلاء بثروة من الخبرات نستطيع تقاسمها في الحوار مع الجميع، وسنكتشف مما يتكون الحدث التاريخي للمسيحيين.

تمثل الأزمة بداية وضرورة خوض معركة ثقافية «أولًا وقبل كل شيء مع أنفسنا» تنتمي إلى تجربة الإيمان كما تم أنزل إلينا. إنها معركة لتأكيد الجانب الإنساني، ومحاولة أن نتواصل مع زملاء العمال والأصدقاء وأي شخص نلتقي به لكي نريه الأمل الموجود فينا. ولكنه سيكون أملًا وهميًّا، من دون أساس، إذا لم يكن مدعوًما بالتحقق من التجربة، وبالاستخدام الحقيقي للعقل. لن يكون المسيحيون موثوقين بأن يصبحوا «أكثر تقوى» بشكل حميمي، ولكن باستخدامهم عقلهم بكفاءة، مع تحدي الجميع باستخدام أوسع وأكثر اختلافا للعقل.

بهذه الطريقة فقط يمكننا تقديم مساهمة حاسمة حقا. وبخلاف ذلك، فحتى إذا ثرنا مثل الآخرين، فإننا لن نكون مهمين لزملائنا من البشر وسوف نضيع مهمة تاريخية، وهي إيقاظ الأمل في عز الأزمة. وهذا ما يمكن أن نفعله نحن المسيحيون - رغم هشاشتنا - بالنسبة للهدية التي تلقيناها والتي لا يمكننا الاحتفاظ بها لأنفسنا.

إن وجهة نظرنا حول الأزمة تمليها حكم بأن مساهمة كل منا هي خير للجميع، وطاقة الأنا لا تنفذ بداخلها، ولكنها تبني شعبا. وتاريخ إيطاليا شاهد مدهش على هذا، ففي مواجهة أوضاع أسوأ بكثير من أوضاعنا- عندما نتذكر حجم الدمار الذي خلفته الحرب العالمية في

إيطاليا، تحرك الناس من خلال زخم إيجابي، واتخذوا المبادرة وأعادوا بناء البلاد.

يشير الأب جوساني لنا بما تتكون منه أصالة هذه المعركة الثقافية. لقد قيلت هذه الكلمات كأنها تنبؤ في عام ١٩٨٦، خلال الثمانينيات المجيدة، عندما بدا أن العالم يبحر نحو مستقبل مشرق، وكانت الأزمة أبعد من أن تحل: «الحل - كما قال آنذاك - هو معركة إنقاذ: ليست معركة لوقف عبقرية الحضارة، ولكنها معركة لإعادة اكتشاف اعتماد الإنسان على الله والشهادة على ذلك. كان هذا في جميع العصور هو المعنى الحقيقي للنضال الإنساني، أي الصراع بين تأكيد الذات الإنسانية واستغلال ما هو إنساني من جانب السلطة وقد وصل الآن إلى أقصى الحدود [...]. إن الخطر الأشد اليوم لا يتمثل في تدمير الشعوب، والقتل، والاغتيال، وإنما محاولة السلطة تدمير ما هو إنساني [موردنا الحقيقي]. وجوهر الإنسان هو الحرية، أي العلاقة مع اللانهائي. لذا، يجب خوض المعركة العظيمة ولا سيما في الغرب من قبل الإنسان الذي يشعر بأنه إنسان [ومع كل البشر الذين يحسون بأنهم بشر]: المعركة بين التدين الأصيل والسلطة. الحد من السلطة هو التدين الحقيقي - الحد من أي سلطة: مدنية وسياسية وكنسية»(١١).

(١١) L. Giussani, "Cristo, tutto ciò che abbiamo", *Tracce-Litterae Communionis*, n. 2, febbraio 2002, p. V.

١٦

حتى في السياسة، الآخر هو الخير

في محاولة للعيش في القيامة في سياق الأحداث الأخيرة التي وقعت في الكنيسة – من استقالة بنديكت السادس عشر إلى انزعاج البابا فرانشيسكو – لم أستطع تجنب التفكير في الوضع الدرامي في إيطاليا بسبب صعوبة الخروج من حالة الشلل التي أصابتها.

لقد كتب الكثير عن هذا الأمر من قبل أشخاص أكثر موثوقية بكثير مني لمهاراتهم في السياسة. ليس لدي أي حل استراتيجي يمكنني طرحه. أنا فقط أسمح لنفسي بعرض بعض الأفكار، في محاولة للتعاون من أجل مصلحة أمة أشعر بأنني مرتبط بها للعديد من الأسباب.

يبدو لي أن حالة الجمود هي نتيجة تصور العدو السياسي كعدو يجب تحييد نفوذه أو تقليصه إلى الحد الأدنى على الأقل. ولدينا في التاريخ الأوروبي من القرن الماضي وثائق كافية تسجل المحاولات المماثلة من قبل الأيديولوجيات المختلفة للقضاء على بعضها البعض، مما أدى إلى معاناة هائلة من شعوب بأكملها.

لكن نتيجة هذه الجهود أدت إلى شهادة واضحة: من المستحيل اختزال الآخر إلى الصفر. كان هذا الدليل، إلى جانب الرغبة في السلام التي لا يمكن لأحد أن يمحوها من قلب كل إنسان، هو الذي أوحى بالخطوات الأولى لتلك المعجزة التي تسمى أوروبا الموحدة. ما الذي مكّن آباء أوروبا من إيجاد الرغبة في التحدث مع بعضهم البعض، لبناء شيء ما، حتى بعد الحرب العالمية الثانية؟ إدراك استحالة القضاء على الخصم جعلهم أقل ميلا لاستعراض القوة، وأقل مقاومة للحوار، مدركين لاحتياجاتهم. وبدأوا يعطون مساحة لإمكانية تصور الآخر، في تنوعه، كمورد، وخير.

والآن أقول وأنا أفكر في الحاضر، إذا لم تجد التجربة الأولية – بأن الآخر هو خير وليس عقبة – مكانها بداخلنا، لامتلاء الأنا، وفي السياسة، وفي العلاقات الإنسانية والاجتماعية، سيكون من الصعب الخروج من الوضع الحالي.

إن التعرف على الآخر هو النصر الحقيقي لكل واحد فينا، وللجميع. أول من يتم استدعاؤه للسير في هذا الطريق، كما حدث في الماضي، هم السياسيون الكاثوليك، أيًّا كان الحزب الذي ينتمون إليه. ولكن للأسف يبدو السياسيون الكاثوليك أكثر ارتباطات بالتحالفات السياسية من ارتباطهم بتجاربهم الكنسية والرغبة في الخير العام. ومع ذلك فإن تجربتهم تتمثل على وجه التحديد في كونهم جزء من كل «أَعْضَاءُ بَعْضًا

لِبَعْضٍ» «القديس بولس»[1] وهي قد تسمح لنظرة الواحد للآخر على أنها جزء من تعريف الذات، ومن ثم على أنها خير.

لقد نظر الكثيرون في هذه الأيام إلى الكنيسة فاندهشوا كيف أصبحت مستعدة للتغيير حتى ترد على تحديات الحاضر. فقد رأينا في المقام الأول بابا الفاتيكان في أوج سلطته بلفتة تعبر عن الحرية على نحو غير مسبوق، لفتة أدهشت الجميع، حتى لا يمكن تصور أن يأتي آخر بمثل هذه الطاقة لكي يقود الكنسية. ثم شهدنا قدوم البابا فرانشيسكو، الذي فاجأنا من اللحظة الأولى بلفتات ببساطة نزيهة، قادرة على الوصول إلى قلب أي شخص.

في السنوات الأخيرة، تعرضت الكنيسة للعديد من الأحداث، بدءا من فضيحة الاعتداء الجنسي على الأطفال؛ فبدت مضطربًة، ولكنها حتى في تعاملها مع هذه الصعوبات أظهرت تنوعها الرائع.

كيف يمكن لحياة الكنيسة أن تسهم في قياسها الذاتي بالوضع الإيطالي الحالي؟ لا أعتقد أن يتم ذلك بالتدخل في المشاحنة السياسية كواحد من الأجزاء العديدة والآراء الكثيرة على نحو تنافسي. فمساهمة الكنيسة أكثر جذرية. إذا كان تماسك أولئك الذين يخدمون هذا العمل العظيم، الذي هو السياسة، هو استجابة لمتطلبات السياسة وحدها فلا يؤمل الكثير من وراء هذا التدخل. وفي غياب موطئ قدم آخر، فسوف يستغلون بالضرورة السياسة والسلطة الشخصية، وفي هذه الحالة، سوف

(١) Rm 12,4-5.

يركزون على الصدام باعتباره الفرصة الوحيدة للبقاء. لكن السياسة لا تكتفي بنفسها. وهذا الأمر واضح الآن أكثر من أي وقت مضى.

في فقر واقعها المليء بالقيود تستمر الكنيسة في منح البشر هذه الأيام المساهمة الوحيدة الحقيقية التي وجدت من اجلها، والتي ما فتأ البابا فرانشيسكو يؤكدها: البشرى وخبرة المسيح الذي بُعث. وهو الوحيد القادر على الاستجابة الشاملة لتطلعات قلب الإنسان، إلى درجة جعلت بابا حر يتخلى عن موقعه لمصلحة شعبه.

بدون تجربة حقيقية للإيجابية، قادرة على احتضان كل شيء وكل إنسان، لا يمكن البدء من جديد. هذه هي الشهادة التي أصبح جميع المسيحيين، بدءا من أولئك الأكثر مشاركة في السياسة، مدعوين إلى تقديمها، ومعهم كل إنسان حسن النية والطوية، كمساهمة لحلحلة الوضع: لتأكيد قيمة الآخر والصالح العام فوق مصالح أي طرف.

الخلاصة

كيف يولد الحضور؟

أعدت الكنيسة للاحتفال بعيد القديسة مريم المجدلية نصين يجعلان منهج الكنيسة شفافا في كيفية رغبتها في تقديم هذه الشخصية لنا، وفقا لما عاشته من تطلعات وتوترات. الأول هو مقطع من نشيد الإنشاد يصف ماذا كانت تعني الحياة لشخص مثل ماريا: «فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي. طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. إِنِّي أَقُومُ وَأَطُوفُ فِي الْمَدِينَةِ، فِي الأَسْوَاقِ وَفِي الشَّوَارِعِ، أَطْلُبُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي.

طَلَبْتُهُ فَمَا وَجَدْتُهُ. وَجَدَنِي الْحَرَسُ الطَّائِفُ فِي الْمَدِينَةِ، فَقُلْتُ:

«أَرَأَيْتُمْ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي؟»[١]. كم وددت لو حصلت على شيء من هذا الشغف! ومريم تشهد لنا بالقلب الذي يريد كل واحد منا أن يكون في أعماق كيانه، لذلك فإن الأنا هي البحث عن الحب الذي يصمد أمام تحديات الحياة.

(١) نشيد الإنشاد 3-3,1.

ماذا نفعل لكي نعيش؟

في نص الإنجيل، الذي يتعلق بواقعة مريم المجدلية أمام قبر يسوع، يمكننا تتبع الإجابة على سؤالين نراها أنهما حاسمان: «ماذا نفعل لكي نعيش؟» و «ماذا نفعل في هذه الدنيا؟»

«وَفِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ إِلَى الْقَبْرِ بَاكِرًا، وَالظَّلاَمُ بَاق. » ما الذي حرك تلك المرأة إلى الحد الذي لم تعد فيه قادرة على البقاء في الفراش فانطلقت في الصباح الباكر عندما كانت الدنيا لا تزال مظلمة؟

«فَنَظَرَتِ الْحَجَرَ مَرْفُوعًا عَنِ الْقَبْرِ. فَرَكَضَتْ وَجَاءَتْ إِلَى سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَإِلَى التِّلْمِيذِ الآخَرِ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ، وَقَالَتْ لَهُمَا: «أَخَذُوا السَّيِّدَ مِنَ الْقَبْرِ، وَلَسْنَا نَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!»[٢].

«أَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عِنْدَ الْقَبْرِ خَارِجًا تَبْكِي.» هذه هي الحياة. فماذا نفعل لكي نعيشها؟ دون العثور على حضور الحبيب، الذي تحبه روحنا، فسنجد كل صباح شيئا نبكيه. على مدار اليوم، يمكننا أن نسهو عن متاعبنا، ولكن تبقى الحياة شيئًا نبكيه، إذا لم يجد كل منا حب روحه، تلك المحبة التي تجعل الوجود مليئًا بالمعاني، وبالكثافة، وبالدفء. وتستمر رواية الإنجيل: وَفِيمَا هِيَ تَبْكِي انْحَنَتْ إِلَى الْقَبْرِ، فَنَظَرَتْ مَلاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا. فَقَالاَ لَهَا: «يا امرأة، لماذا تبكين؟» قَالَتْ لَهُمَا: «إِنَّهُمْ أَخَذُوا

(٢) يوحنا 2-20,1.

سَيِّدِي، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَيْنَ وَضَعُوهُ!». وَلَمَّا قَالَتْ هذَا الْتَفَتَتْ إِلَى الْوَرَاءِ، فَنَظَرَتْ يَسُوعَ وَاقِفًا، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ يَسُوعُ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟» ها هو الرابط: «مَنْ تَطْلُبِينَ؟» «أطلب من تحبه نفسي، ذلك الحضور الذي يمكنه أن يملأ حياتي»؛ لهذا السبب، تقدم لنا الكنيسة نظرة إلى مريم المجدلية بطرحها مقتطف نشيد الإنشاد الذي تتحدث فيه امرأة تطلب من يحبه قلبها. «ظَنَّتْ تِلْكَ أَنَّهُ الْبُسْتَانِيُّ، فَقَالَتْ لَهُ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتَ أَنْتَ قَدْ حَمَلْتَهُ فَقُلْ لِي أَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَأَنَا آخُذُهُ». قال لها يسوع: «يَا مَرْيَمُ» فَالْتَفَتَتْ تِلْكَ وَقَالَتْ لَهُ (بالعبرية): «رَبُّونِي!» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا مُعَلِّمُ. قال لها يسوع: «لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ». فَجَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَأَخْبَرَتِ التَّلاَمِيذَ أَنَّهَا رَأَتِ الرَّبَّ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهَا هذَا[٣].

في هذا المقطع لدينا الإجابة على السؤالين: «ماذا نفعل لكي نعيش؟» و «ماذا نفعل في هذه الدنيا؟» من خلال الإجابة على السؤال الأول وحده في الواقع، وهذا يعني، من خلال العثور على الحضور الذي نسعى إليه ليلبي طلبنا، («يَا امْرَأَةُ، لِمَاذَا تَبْكِينَ؟ مَنْ تَطْلُبِينَ؟»)، وأصبح لدى مريم شيئًا لتبلغه، لتذهب لإخبار الآخرين به: «لقد رأيت الرب!» إنه عزاء كبير لكل منا أن يحدث هذا لشخص مجهول مثل مريم المجدلية، لأنه يساعدنا على فهم أنه لا يوجد شرط مسبق، لا نحتاج إلى أن نكون على مستوى أي شيء، لا نحتاج إلى أي موهبة خاصة للبحث عن يسوع. قد يكون هذا

(٣) يوحنا 18-20,11.

البحث مخفيًّا كله تقريبا تحت أنقاض شرورنا، أو طي النسيان، لكن لا شيء يمكنه منعه، كما لا يمكن لأحد أن يوقف تلك المرأة عن بحثها. ولكي يفاجئ المرء نفسه بهذا الاشتياق لا يفيد إلا «الأخلاق الأصلية» التي ولدنا بها، ذلك الانفتاح التام الذي خلقنا عليه، ومن ثم هذا التلاقي مع النفس وأغوارها، وعدم الابتعاد عن النفس الذي يقود مريم إلى القول: «فِي اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي طَلَبْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي.»، «أرأيتم من تحبه نفسي؟». إنه الانفتاح الأصلي الذي نراه في شخصيات أخرى من الإنجيل، فكلهم فقراء مثلنا، لكن لا أحد يستطيع أن يمنعهم من البحث عنه، مثل زكا، الذي يتسلق على الشجرة وكله فضول لرؤية يسوع، أو المرأة السامرية، كلهم عطشى ومتلهفون للماء الوحيد الذي يمكنه أن يروي عطشهم. أمام شخصيات الإنجيل هذه لا توجد أعذار: إنهم فقراء مثلنا، لكنهم جميعًا يبحثون عن المسيح، نعرفهم ببحثهم عنه، وحبهم له، حب ينزع عنا كل مخاوفنا وكل الحجج الأخلاقية التي نتبناها لتبرير عدم بحثنا عنه. لن يتعب أحد في أن يتخيل ما سيحدث لهم عندما يميل عليهم يسوع، ويناديهم بالاسم. كيف ستكون دهشتهم! كيف سيشتعل حبهم له، والرغبة في البحث عنه!

«يَا مَرْيَمُ» كيف تنبض إنسانية يسوع حتى يمكنه أن ينطق اسمها بلكنة ونبرة وكثافة تجعل المجدلية تتعرف فورا على شخصيته، وكانت قبلها بلحظات تختلط عليها شخصيته مع حارس البستان.

«يَا مَرْيَمُ» يبدو الأمر كما لو أن حنان سر السر قد وصل إلى تلك المرأة من خلال نبض يسوع بالإنسانية حتى بعد أن كشف عن نفسه، ولم تقل كثافة نبضه. بل. إن حنان السر يصل إلى تلك المرأة من خلال إنسانية يسوع المُبعث النابض لحقيقة وجودها هناك: «يَا مَرْيَمُ!». إذن أصبح مفهوما لماذا أدركت في تلك اللحظة من يكون هو. أصبحت قادرة على إدراك حقيقة شخصيته لأنه جعل كل إنسانيته تنبض بما يشعرها بالقوة والامتلاء والوفرة التي لا ليس لها مثيل في حياتها، والتي لا يمكن الوصول إليها إلا من خلال علاقتها به. لو لم يكن المسيح لما كانت قد عرفت من هو، أو من عساه أن يكون، وإلى مدى يمكن أن يصل من القوة والكثافة والامتلاء.

ماذا عساها تكون المسيحية إن لم تكن ذلك الحضور النابض لمصير امرأة مجهولة، يجعلها تفهم ما حمله المسيح من رسالة وما الذي يمكن أن يمثله للحياة؟ ما الحداثة التي دخلت التاريخ من خلال المنهج الذي استعان به المسيح للتعبير عن نفسه، وعن شغفه بالإنسان، وعن وجوده! جعلنا يسوع نفهم ما هي المسيحية بقوله لامرأة: «يَا مَرْيَمُ!». هذا التعبير عن النفس، عن الوجود، بما هو «أكثر من النفس»، وما هو «أكثر من مريم» هو الذي يكشف لتلك المرأة من هي يسوع. إنها ليست نظرية أو خطابًا أو تفسيرًا، ولكنه حدث أزعج كل أولئك الذين دخلوا، بطريقة أو بأخرى، في علاقة معه، والتي عبرت عنها الأناجيل، في بساطتها العزلاء، وأوصلته بطريقة أبسط، بتألق يزيد عما يمكن أن يكون عليه، بإبراز الكيفية التي نطق بها يسوع اسمها: «يا مريم!»، «يا زكا!»، «يا

متى!» «يا امرأة، لا تبكي!» مع هذا التعبير عن النفس الذي قام به في تلك اللحظة وصبها بداخلهم لكي يعلمهم بأنه حي، حتى أن أنهم لم يستطيعوا فعل شيء آخر أو يتوجهون لأي شيء آخر، مع هذا التواصل صاروا غير قادرين على النظر إلى أنفسهم أو إلى الواقع، اللّٰهُمَّ إلا من خلال حضوره، من خلال هذا الصوت، والكثافة، التي نطق بها أسماءهم.

نحن نفهم التشوش الذي يمر عبر كل صفحة من صفحات الإنجيل أمام تجربة كهذه. ونحن للأسف اعتدنا على ذلك ولم نعد نأبه بهذا الاهتمام، بعد أن اعتبرناه أمرا مسلما به ومعروفا! ولكن هذه ليست بالضرورة الطريقة التي نراها عندما يشهد رجل مثل البابا فرانشيسكو على اندهاشه لهذا اليوم: «إن أفضل تفسير يأتي من داخلي وأشعر بأنه واقعي أكثر، هو هذا: «أنا الخاطئ الذي نظر إليه الرب». [...] أنا واحد نظر إليه الرب»[٤].

قوة الحدث، والطريقة الفريدة للتواصل مع الآخر المختلف عن ال «أنا»، يسوع، الذي يتوجه نحو ال «أنت»، ومريم التي يجعلها تحقق ذاتها، وتفرد ذلك: «يا مريم»، جعل المرأة تضطرب، ويطفو ما كانت تعانيه من شوق من الطريقة التي أجابت بها على كلامه: «رَبُّونِي! يَا مُعَلِّم»ِ. في رصانة إنجيلية، يعلق القديس يوحنا على ذلك: «فَالْتَفَتَتْ» عندما سمعت اسمها. هذا هو الاعتناق. ليس أدبا في الحديث، بل هو تعرف على الشخصية: «يَا مُعَلِّم»ِ. هذا هو الجواب على حب يسوع، لأننا نكتشف خلال نطقه

(٤) «حوار مع البابا فرانشيسكو «Antonio Spadaro، *La Civiltà Cattolica*، III / 19 September 2013، p. 451.

باسمنا بكثافة عاطفية لم يسبق لها مثيل من قبل، نكتشف من نحن، وهو ما يسمح لنا بالتحقق الذاتي. ويعتبر التعرف على شخص المسيح ردا على شغف المسيح بها، والذي يوقظ كل قدراتها العاطفية: والمسيح عندما يناديها باسمها فإنه إنما يولد فيها تلك العلاقة الجديدة مع الأشياء التي تدعى «البكارة». «لا تلمسيني» يقول يسوع لمريم المجدلية لأنها لا تحتاج إلى هذا. لا قيمة لأي شيء مقارنة مع لحظة تتسم بتلك الكثافة العاطفية التي عاشتها مريم مع يسوع. وهي لم تلتفت إليه إلا تحت ضغط عاطفة لا يمكن مقارنتها بكل هذا الحب الذي تقول به: «رَبُّونِي! يَا مُعَلِّم»[٤]. في الحقيقة، كانت إجابة مريم، كانت من أولها إلى آخرها، ثمرة لهذا الطريقة التي سمعت بها اسمها ينادى عليه من المسيح، بما جعلها تحس باضطراب فريد. وهذا شيء مختلف تمام عن أدب الحديث! وهو يفوق قدرتنا على الحلم به! فقط تحت ضغط الانفعال تجاه تقديم النفس من خلال يسوع، لم تستطع مريم أن تمنع نفسها من أن تقول: «يَا مُعَلِّم!» بكل مشاعرها.

الحدث الذي ينتظره كل إنسان دون وعي

توق إلى مصير الإنسان، كل إنسان، شوق شعرت المرأة به بقوة، لأنها كانت أولا داخل إنسانية يسوع النابضة كلها بالشغف نحوها: هذه هي الحداثة التي دخلت التاريخ مع المسيح، أنه قد قدم نفسه من خلال جسده، ومن خلال عاطفته، ومن خلال نظرته، ومن خلال أسلوبه في التحدث، ومن خلال نبرة صوته، وهو ما ينتظره كل منا أمس كما ينتظره

اليوم. «ربما ينتظر الإنسان اليوم عن غير قصد تجربة الالتقاء بأناس الذين شكل الحدث المسيحي لديهم حضورا امكنه تغيير حياتهم. إنه تأثير بشري يمكن أن يهز إنسان اليوم: حدث يردد صدى الحدث الأولي، عندما رفع يسوع عينيه وقال: «يَا زَكَّا، أَسْرِعْ وَانْزِلْ، لأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَمْكُثَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِكَ»[٥].

هذا هو الحدث الذي صدمنا نحن أيضا. هذا الحدث، صدى الحدث الأول، وصل إلينا من خلال شخص الأب جوساني، من خلال إنسانيته وتأثره العاطفي بالمسيح، الذي نحن شهود عليه، لدرجة أن الكثيرين لم يكن بوسعهم أن يكونوا هنا إن لم يكن كانوا قد التقوا به، وإن لم تشملهم الطريقة التي قدم بها المسيح إليهم. سنصبح أكثر إدراكًا لما حدث لنا في لقائنا بالأب جوساني عندما نقرأ سيرة حياته[٦]، وهي متاحة الآن لنا. إنه هو الذي حمل إلينا اليوم النبض الذي وصل إلى مريم، النبض نفسه الذي كان في ذلك الوقت، وليس «مثله»، ولكنه هو «نفسه» ذلك الحدث نفسه الذي استولى على مريم. يجب على كل واحد أن ينظر إلى تجربته الخاصة، يجب أن يعود إلى الأصل، إلى الخطوة الأولية، لرؤية أول فجر، الرغبة الأولى في الانتماء الى المسيح. لا يوجد أي مصدر آخر للانتماء إلا تجربة المسيحية المعاشة كحدث. كان هذا وحده كافيًّا بالنسبة لنا لكي تأتينا الرغبة العارمة في أن نصبح من أتباعه.

---

(٥) L. Giussani, *L’avvenimento cristiano*, op. cit., p. 24.

(٦) A. Savorana, *Vita di don Giussani, Rizzoli*, Milano 2013 e BUR, Milano 2014.

بداية معرفة جديدة

«ما هي المسيحية إن لم تكن حدثا لإنسان جديد أصبح بطبيعته بطلًا جديدًا على مسرح العالم؟»[٧] إن المسألة الأساسية للحياة هي وجود هذا المخلوق الجديد، هذه الخليقة الجديدة، هذه الولادة الجديدة. وهو ما لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان حضور المسيح مسيطرا على حياتنا حتى لا نصبح بحاجة إلى الاحتماء بأذرعنا أمام وجوهنا للدفاع عن أنفسنا ضد ضربات الظروف ويمكننا أن نعيش. ومع ذلك، يجرحنا في كثير من الأحيان تأثير الظروف التي تعرقل مسار المعرفة ويصبح كل شيء خانقا حقًا: كما لو أننا لا نرى الواقع إلا من ثقب الجرح. مثل مريم، عندما نظرت إلى الواقع من خلال بكائها ولم تعد ترى أي شيء آخر، فلم تتعرف على يسوع! ثم يناديها يسوع باسمها ويعيد فتح اللعبة، ويسمح لها بالتعرف عليه، حتى تبدأ النظر إلى الواقع بشكل مختلف. لأن وجوده أقوى من كل جرح ومن كل بكاء، عندما يفتح نظرتنا مرة أخرى على مصراعيها حتى نتمكن من رؤية الواقع على حقيقته. قال القديس أوغسطينوس عن زكا: «تم النظر إليه فرأى»[٨]. كيف ستكون الحياة مختلفة إذا سمح الإنسان بدخول هذه النظرة إليه، مهما كان جرحه!

دخل يسوع التاريخ ليعلمنا المعرفة الحقيقية بالواقع. نحن نظن أننا نعرف بالفعل ما هو الواقع، ولكن من دون المسيح، يهاجمنا الخوف،

(٧) المرجع السابق ص ٢٣.
(٨) Sant’Agostino, *Discorsi* 174, 4.4.

ونتعرقل، ثم تخنقنا الظروف. ولكن مع يسوع يعاد فتح كل شيء، كما لو أنه يقول: «انظروا، لقد جئت لتعليمكم العلاقة الحقيقية مع الواقع، والموقف الصحيح الذي يسمح لكم بنظرة جديدة على الواقع.» ولكننا إذا لم ندع نظرة المسيح تدخل إلينا باستمرار، أي أن نلمس حضوره الدائم، سنعيش الواقع مثل أي شخص آخر، ولا نخوض تجربة الحداثة. إلا إذا دخل يسوع وأتاح لنا المعرفة الجديدة التي يمكن أن نختبرها ونقدم للعالم طريقة مختلفة لكوننا واقعين. تُعطى لنا جميع الظروف لتستنفر فينا الرغبة في هذه المعرفة الجديدة، لنرى ما هو يسوع: إنه الحضور الذي يسمح لنا بأن نعيش الواقع بطريقة جديدة مختلفة. وهذا يجعلنا نكتشف أن الظروف - كلها ولا نستثني منها شيئا - ليست أبدًا ضدنا، كما نظن في كثير من الأحيان: لقد حددنا جراحنا لدرجة أننا لا نرى الحافز الذي تحويه، والجاذبية التي تمارسها، فاختزلناها؛ نعتقد بالفعل أننا نعرف ما هي الظروف التي نواجهها وتواجهنا، وقد قررنا بالفعل أنه لا يوجد شيء جديد لاكتشافه، وأنه لا يوجد سوى التحمل، ولا يبقى لدينا إلا محاولة معنوية لمعرفة ما إذا كنا مؤهلين لهذا التحمل. فقط إذا ظهر الحضور الذي حدث مع مريم المجدلية، فإن طريق المعرفة لن يتوقف، وستنفتح نظرتنا. للدينا أكثر بكثير من مجرد «إجابات» على كل الاعتراضات أو التحديات، فلدينا «الإجابة»؛ وهذه الإجابة لا تشمل تعليمات للاستخدام في كيفية العيش، لأن تعليمات الاستخدام أصبحت جسدًا، حضورا، وهو الكلمة: محتوى الإجابة هو الحضور، إنه أنت، ال «أنت» التي وصلت إلى مريم. إذا كانت الحقيقة غير مشروطة، وإذا لم تكن علاقة، فستصبح غير

مفهومة. كما كتب البابا فرانشيسكو إلى أوجينيو سكالفاري: «الحقيقة، وفقا للإيمان المسيحي، هي محبة الله لنا في يسوع المسيح. لذلك، فالحقيقة هي علاقة!»[٩] كما يحدث للطفل، الذي يعرف أنه لا يعرف أشياء كثيرة، ولكن هناك أمر واحد يعرفه: الأب والأم الذين يعرفان هذه الأشياء. فما هي المشكلة إذن؟ إذا كنت واثقًا من هذا الوجود الذي يغزو الحياة، يمكنني مواجهة أي ظرف وأي جرح وأي اعتراض وأي رد فعل وأي هجوم: كل شيء يفتحني ويحثني على قبول الطريقة التي يجعل بها السر الأعظم نفسه حاضرًا لكي يهديني إلى الطريق، ويرافقني لاقتحام الظلام، وفقا لتصميم ليس من إبداعي.

هناك اختلاف كبير في طريقة التلامس مع الواقع عندما يكون لدى المرء أسئلة مفتوحة، سواء وهو يتلو أوردته، أو هو يستمع إلى صديق وهو يشرب فنجانا من القهوة، أو يقرأ الجريدة، حينئذ يكون متشوقا لتلقي ولو مثقال ذرة من الحقيقة يمكن أن تصل إليه. وحينئذ أيضا يصبح كل شيء مثيرًا للاهتمام، لأنه إذا لم يكن لديّ السؤال، إذا لم يكن لدي الجرح المفتوح دائما، فإنني قد لا أستطيع الوصول إلى الحقيقة، ولا أحس بوجودها. إنها «مسيرة إنسانية للغاية»، فهي ليست مصنوعة من الهلوسة أو الرؤى، ولكنها مساهمة في «مغامرة المعرفة» التي تجعلنا نكتشف بفعالية كبيرة الجاذبية المخبوءة في القيود والحدود والمتاعب

(٩) Francesco, “Lettera a chi non crede”, *la Repubblica*, 11 settembre 2013, p. 2.

والمصاعب، لأنها رغم الألم الذي تثيره فغاليا ما يكون بها شيء حقيقي بداخلها، وإلا فإنه لن تكون موجودة.

ماذا نفعل في هذه الدنيا؟

من هنا، من تجربة الحياة التي وصفناها، نستطيع أن نجيب على السؤال: «ماذا نفعل في هذه الدنيا؟» لقد أصبحنا نفهم بشكل متزايد، ليس على الرغم من الظروف العسيرة، ولكن بمجرد اجتيازها، ما هي مهمتنا. كما هو الحال دائما في حياة الحركة. الآن يمكننا أن نفهم بشكل أفضل ما أخبرنا به الأب جوساني في عام ١٩٧٦، من أن هناك احتمالين لوجودنا في الواقع: إما وجود «رد الفعل»، الذي ينشأ عن رد فعلنا، أو «وجود أصلي» ينشأ مما حدث لنا.

الوجود يكون رد فعلي عندما «تحدده خطوات ما ليس لنا»؛ هذا يعني وضع نفسك في الواقع عن طريق طرح «المبادرات، واستخدام الخطابات، وتحقيق الأدوات التي لا يتم إنشاؤها كطريقة كلية لشخصياتنا الجديدة، وإنما يوحي بها استخدام الكلمات، وتنفيذ الأدوات، والمنهج السلوكي للخصوم». ولأنه يلعب «على أرض الآخرين»، فإن الحضور برد الفعل

«لا يمكن إلا أن يقع في خطأين: يصبح وجودًا رجعيًّا، أي، يرتبط بمواقفه الخاصة كـ « أشكال «، دون أن تكون المحتويات [...] واضحة حتى يتم جعلها حية [...]؛ أو [يصبح] تقليد للآخرين». وعلى العكس

فالحضور الأصلي هو «وجود وفقا لأصالتنا» أي أنه[١٠]، يولد مما نحن عليه. ولذلك، فإن العيش في حضور أصلي، حيث نجد أنفسنا، يتمثل أولًا في تحقيق الشراكة مع المسيح والشراكة فيما بيننا. وما تقدمه مريم ومتى وزكا للواقع ما هو إلا موقف تحدده الشراكة مع المسيح، متولد من عاطفته ويوصله نقطه بأسمائهم. عندما يحدث هذا لكل منا، يتم التعبير عن الشراكة باعتبارها حضورا وفقا لأصالتنا.

الحضور الأصلي

باختصار، يتكون الحضور الأصلي «عندما ينبع من وعي المرء بهويته وحبه لها، وفي هذا يعثر على اتساقه»[١١]. فإذا عثر على اتساقه فإنه يعثر ايضا على إشباعه كما يقول القديس تومازو: «حياة الإنسان تتكون من المحبة التي تحافظ عليه بشكل أساسي والتي يجد فيها أكبر قدر من الرضا»[١٢]. فاتساق الحياة نجده حيث نجد أكبر قدر من الإشباع.

ولكن ماذا يعني أن يكون لدينا هوية؟ «الهوية هي معرفة من نحن ولماذا نحن موجودون، بالكرامة التي تعطينا الحق في أن نأمل من وجودنا «شيئا أفضل» لحياتنا ولحياة العالم ». من نحن؟ ما الذي يحدد ملامح وجوهنا؟ أَنَّكُمْ جَمِيعًا أَبْنَاءُ اللهِ بِالإِيمَانِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ. لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ: لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ.

(١٠) L. Giussani, *Dall'utopia alla presenza* (1975-1978), op. cit., pp. 52, 65.
(١١) المرجع السابق ص ٥٢.
(١٢) San Tommaso d'Aquino, *Summa Theologiae*, II-II, q. 179, a. 1 co.

لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ[١٣]. ما حدث في المعمودية أصبح بالنسبة لنا تاريخيًّا وبوعي تصورا للقاء مع الحركة. عندها فقط فهمنا نتيجة ما حدث، من النضال الذي بدأه المسيح معنا في المعمودية لغزونا، مثل البطل المغوار. لقد أصبحنا ندرك ذلك عندما تم التغلب علينا بالطريقة التي قيل بها اسمنا. لقد أصبح واضحا في تلك اللحظة معنى تعبير أن يتم «الإمساك بك». يكتب القديس بولس في الواقع: «لأَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ»[١٤].

قد لبسنا المسيح. «لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ»[١٥]، يقول يسوع. «إنه اختيار موضوعي لا نستطيع أن ننزعه عن كاهلنا، لأنه قد تغلغل في كياننا فلم نعد بوسعنا حياله شيء، ولا يمكننا أن نمحوه بعد الآن». هذه هي هويتنا، وهذا الاختيار يحدد من نحن، وهو بهذا يدخل إلى العالم سابقة ليس لها مثيل: «أَنَّ كُلَّكُمُ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالْمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمُ الْمَسِيحَ. لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.» «لا يوجد شيء ثورية من الناحية الثقافية من هذا المفهوم للشخص، الذي يعني اتساقه أنه متحد مع المسيح، مع الآخر، ومن خلال هذا التوحد مع المسيح يتحد بكل أولئك الذين «يلبسوا» المسيح، مع كل أولئك الذين اعطاهم الأب إياه»[١٦]. هذا المفهوم عن الشخص - الذي ولد وتحقق فقط لأن هناك

(١٣) راجع غلاطية 3,26-28.
(١٤) راجع غلاطي 3,27.
(١٥) يوحنا 15,16.
(١٦) L. Giussani, *Dall'utopia alla presenza* (1975-1978), op. cit., pp. 53-54.

المسيح نطق باسمه، وإلا لكنا لا نزال نبكي من أجل حقيقة الحياة – ليس فكرة مجردة ، بل هي تجربة قبل أن تكون مفهوما. وبالتحديد من هذا التوحد والاختيار ينطلق فينا الوعي الذاتي الذي نشأ لدى مريم، والتي تعد تستطيع أن تنظر إلى نفسها كما كانت تفعل من قبل، لأنها أصبحت محددة أكثر بمريم الأخرى. ولكن يجب علينا أن نفهم جيدا ما تم تذكره للتو، وهذا هو من أين وكيف تتخذ ملامحنا اتساقها. «إن هويتنا هي التوحد مع المسيح. والتوحد مع المسيح هو البعد التأسيسي لشخصنا. إذا كان المسيح يعرّف شخصيتي، فأنتم، الذين لبستموه، تدخلون بالضرورة إلى أبعاد شخصيتي. « وهكذا تظهر سمات «الخليقة الجديدة» في العالم، والتي لا تعتمد على الظروف، مواتية أو معاكسة. «إذا وجدتني وحدي في غرفتي، أو كنا ثلاثة ندرس معا في الجامعة، أو عشرين في الصلاة، في أي مكان وبأية طريقة، فإن هذه هي هويتنا. إذن المشكلة هي الوعي الذاتي، ومضمون وعينا الذاتي: «أنا أعيش، لست أنا، أنت (المسيح) الذي تعيش بداخلي».» عندئذ يتوقف وجود هويتنا على ازدهار الوعي الذاتي الجديد فينا، وله فيه جذوره: «هذا هو الإنسان الحقيقي الجديد في العالم – الإنسان الجديد الذي كان حلم تشي غيفارا والحجة الكاذبة للثورات الثقافية التي حاولت السلطة من خلالها الاستحواذ على الناس من أجل إخضاعهم وفقًا لأيديولوجيتها – وقد ولد أساسا كوعي ذاتي جديدا، وليس اتساقا مع وعي سابق»[١٧].

(١٧) المرجع السابق صفحات ٥٤-٥٥.

كيف تتجلى هويتنا، وما هي الملامح التي تتخذها، وبأي شكل مجسد تتجلى؟ «تتجلى هويتنا في تجربة جديدة داخلنا [في طريقة عيش أي ظرف وأي تحد للواقع] وفيما بيننا: تجربة المحبة للمسيح وسر الكنيسة، التي تجد في وحدتنا أقرب تجسيد ملموس لها. الهوية هي التجربة

الحية في محبة المسيح ومحبة وحدتنا»[١٨]. وهي محبة بعيدة جدا عن الصورة التي اعتدنا عليها، التي تتسم بأنها مشاعر سهلة ومتذبذبة وانفعالات مؤقتة. «إن كلمة «المحبة» هي أعظم تعبيراتنا وأشملها. فهي تشير إلى «التصاق» يتولد من حكم القيمة، ومن التعرف على ما فينا وما بيننا، أكثر من السهولة العاطفية سريعة الزوال، كأوراق شجر في مهب الريح. وفي الإخلاص للحكم، أي في الإخلاص للإيمان، ومع تقدم في العمر، ينمو هذا الالتصاق، يصبح أكثر امتلاء، ونابضا بالحياة والقوة»[١٩].

حقيقة نغرق فيها

ما هي هذه التجربة الحية للمسيح ولوحدتنا لكل واحد منا ولكل المعنيين؟ إنه «مكان الأمل، اي المكان الذي ينبع منه مذاق الحياة والازدهار المحتمل للفرح - الذي لا يضطر إلى نسيان أو إنكار أي شيء ليثبت نفسه - إنه مكان استعادة التعطش لتغيير حياة المرء، والرغبة في أن

(١٨) المرجع السابق ص ٥٥.
(١٩) المرجع السابق نفس الصفحة.

تكون حياة المرء متماسكة، المتغيرة بحكم ما في أعماقها، وأن تكون أكثر جدارة بالواقع الذي يحمله المرء على «كاهله».

ويحيا داخل تجربة المسيح ووحدتنا الشغف بتغيير حياة المرء [وليس بتبرير اخطائنا!]. وهي عكس الأخلاقيات: فهي ليست قانونًا ليتم تكييفه، بل هو حب يجب الانتماء إليه، ووجود نسير وراءه أكثر بكل كياننا، وهي حقيقة نغرق فيها حقًا». لقد ولدت بداخلنا، على الرغم من أننا نمتلئ بالهشاشة والأخطاء، الرغبة التي لا تقاوم في أن يلفنا هذا الحب دون قاع ودون حدود، أن «نغرق» دون مقاومة في حقيقة المسيح: تنفجر الرغبة في أن نكون أتباعه، أن تنتمي إليه أكثر، أن نبحث عنه باستمرار.. «الرغبة في تغيير الذات بهدوء واتزان، وفي الوقت نفسه بحب، تصبح ذلك حقيقة يومية - بغض النظر عن التقوى أو الأخلاق - وهو حب لحقيقة كينونته [بوصفه الباحث عن الحبيب]، ورغبة جميلة وغير مريحة مثل العطش»[٢٠].

لكن كل هذا يجب أن ينضج فينا. إذا لم تنمو البداية الجنينية الصغيرة التي نعيشها ا أو تنضج، فإن أول عاصفة تهب سوف تأخذها في طريقها. وكما قال جوساني عام ١٩٧٦، وهو ما ينطبق علينا اليوم أيضا، فإننا لن نستطيع أن نقاوم «إذا لم تنضج هذه البداية الأولية: لم يعد بإمكاننا أن نحمل كمسيحيين جبلًا ضخمًا من العمل والمسئولية والمصاعب المطلوب منا أداؤها. في الواقع، لا يلتئم الناس بالمبادرات [وليس هذا ما يعطي

(٢٠) المرجع السابق صفحة ٥٦.

التناسق ويجذب]؛ ما يجعل الناس تلتئم كثافة الحضور الحقيقي الذي يعطيه واقع السيد المسيح الحاضر بيننا والذي نحمله «على أكتافنا»: المسيح وسره الذي جعله ظاهرا في وحدتنا»[٢١].

وينطوي تعميق فكرة الحضور على إعادة تعريف معنى الجماعة. «الجماعة ليست مجموعة من الناس تقوم على تنفيذ المبادرات، وليست محاولة بناء تشكيل حزبي: الجماعة هي مكان البناء الفعال لشخصنا، أي لبناء الإيمان الناضج». لذلك فإن هدف الجماعة المسيحية هو «توليد الناضجين في الإيمان. إن الناضجين في الإيمان الذين يحتاجهم العالم، ليسوا محترفين أفذاذ أو عمال مؤهلين، فهؤلاء يمتلئ المجتمع بهم، ولكن جميع من يتنافسون بعمق في قدرتهم على خلق الإنسانية»[٢٢].

ولكن كيف يمكن لشخص أن يحقق نضج الإيمان، ما هي الطريقة التي تصبح بها الجماعة مكانًا لبناء نضج إيمان الشخص؟ كان جواب الأب جوساني واضحًا دائمًا: الاتباع! «يعنى الاتباع التوحد مع الأشخاص الذين يعيشون بنضج أكثر في الإيمان، والمشاركة في التجربة الحية، من يمرر (تراثا) دينامياته إلى الأجيال القادمة وينقل مذاقها إلى دواخلنا». هذه الديناميكية وهذا المذاق يمران ليس من خلال تفكيرنا، ولا في طرف من أطراف المنطق، بل يكاد يكون بالضغط التناضحي: إنه قلب جديد يربط نفسه بنا، وهو قلب آخر يبدأ بالتحرك داخل حياتنا»[٢٣]. إن الاتباع

(٢١) المرجع السابق صفحات ٥٧-٥٨.
(٢٢) المرجع السابق ص ٥٨.
(٢٣) المرجع السابق صفحات ٥٨-٥٩.

ليس له علاقة بمراعاة تعليمات الاستخدام أو بما يقوله الآخرون. وإنما هو مشاركة في حدث حي، حتى يبدأ قلب الآخر بالنبض داخل قلوبنا.

من هنا، من هذا التسلسل المنطقي، «تبرز الفكرة الأساسية لطريقتنا في تعليم السلطة: فأصحاب السلطة الحقيقية بالنسبة لنا هم الأشخاص الذين يشركوننا بقلوبهم، بديناميتهم وذوقهم، المولودين من الإيمان. وكذلك فإن السلطة الحقيقية هي تعريف الصداقة»[٢٤]. في الواقع، يردف الأب جوساني قائلا «الصداقة الحقيقية هي الرفقة العميقة في مسيرنا إلى مصيرنا». وتخطر على ذاكرتي دائما صورة بطرس ويوحنا في لوحة بورنان، بعيونهم المفتوحة على مصراعيها وهما يركضان نحو القبر، معًا إلى المصير. ويمكن لكل منا أن يقارن هذا بمفهوم الصداقة التي يعيشها عادة. «إنها ليست مسألة مزاجية [...]: الصداقة الحقيقية نشعر بها في قلب الكلمة وفي بادرة الحضور». الأصدقاء هم أولئك الذين يساعدوننا على السير نحو المصير، الذين يعيشون بنضج إيماني أكبر وبتجربة يمكننا من خلالها التوحد معا. لأن أهم الأمور الملحة عندنا هو فقط «أخذ الإيمان على محمل الجد باعتباره "كاشفا" عن الحياة الحقيقية الملموسة، بطريقة تجعلنا نرى أن الهوية بين الإيمان والصفة الإنسانية حقيقية أكثر - ففي الإيمان يصبح الإنسان حقيقيًا أكثر». يجب أن «يصبح هذا حقيقيًا فينا، وهذا هو السبب في إعطاء الزمن لنا». من الضروري أن يتم تنفيذ اختبار الإيمان

(٢٤) المرجع السابق ص ٥٩٩.

فينا أكثر فأكثر، وإلا سنستسلم «لإغراء اليوتوبيا»، أي ننزلق «لنضع أملنا وكرامتنا في» مشروع «نقوم نحن بخلقه».[٢٥]

هذا الذي ينقذ الإنسان

يتذكر الأب جوساني في هذا الصدد بداية الحركة، أي بداية مغامرته مع الشباب: «لم ندخل المدرسة في محاولة لإعداد مشروع بديل للمدرسة. لقد دخلنا وفي ضميرنا أن نحمل هذا الذي ينقذ الإنسان حتى في المدرسة». ويمكن قول الشيء نفسه عن أي مجال آخر من مجالات الحياة. ثم يحكي متى بدأ هذا الوعي يغيم في عام ١٩٦٣ ووفي عام ٦٤ ثم في عام ٦٨: ما الذي خانه أولئك الذين غادروا، أولئك الذين لم يكونوا مخلصين، الذين لم يبقوا أوفياء لتلك البداية الأصلية؟ ما الذي خانوه؟ الحضور. وما الذي نخونه نحن؟ الحضور! «لقد حل المشروع محل الحضور»[٢٦]. نحن نفهم ذلك جيدا الآن. لقد رأينا ما كسبناه من خلال دعم مجموعات معينة، لكننا بدأنا الآن فقط ندرك كم فقدنا، من حيث الحضور الأصيل. يجب أن نقرر ما إذا كنا نريد أن نصبح فصيلًا أم أننا نريد أن نكون حضورًا أصيلًا. لكن هذا لا يعني أنه لكي تكون للجميع يجب ألا تكون لأحد. بل. لكي تكون للجميع ينبغي أن تكون لأحد، واحد، لذلك الذي يستطيع أن يجعلنا أحرارا، حتى نستطيع أن نكون أنفسنا، لحضور أصيل وليس رجعيًّا.

(٢٥) المرجع السابق صفحات ٥٩، ٦١-٦٢.
(٢٦) المرجع السابق صفحات ٦٣-٦٤.

ماذا نفعل في هذه الدنيا؟ يكرر جوساني الجواب على هذا السؤال الثاني. إن هدف تحركنا ليس تحقيق «مشروع نشاط اجتماعي»، بل أن نصبح حضورا، وأن نجعل المسيح حاضرا حيثما يراد لنا أن نعيش. «الحداثة هي الحضور كوعي بأننا نحمل على أكتافنا شيئا محددا، هو الحكم النهائي على العالم، حقيقة العالم والإنسان - التي يتم التعبير عنها في وحدتنا. والحداثة هي الحضور كوعي بأن وحدتنا هي أداة للنهضة ولتحرير العالم»[٢٧]. لا يمكننا استبدال هذا بأي صورة أو مشروع تتصوره عقولنا. كما كتب الكاردينال سكولا: «هذا ليس مشروعًا، ناهيك عن عدم كونه حسابا. فالمسيحيون وقد ملأهم الامتنان، يعتزمون «إعادة» الهدية التي حصلوا عليها دون استحقاق، وبالتالي، يطلب منهم أن يبلغوا به بنفس السخاء»[٢٨].

لماذا الإغراء باستبدال الإيمان - أي الحضور - بمشروع؟ لأننا نعتقد أن الإيمان، والجماعة المسيحية كوجود، ليس من قبيل الصدفة، غير قادرة على تغيير الواقع. يفتقر الإيمان لكي يكون ملموسا إلى شيء نشعر بأنه من الواجب علينا إضافته، ليس كتعبير عما نحن عليه، ولكن كعلاج لعجز قد ينتمي إلى طبيعته (كما لو أن يسوع كان يفتقر إلى شيء ما وكان عليه أن يضيف شيئًا آخر إلى شهادته على نفسه). لقد آمن بذلك كل اولئك الذين كانوا يعتقدون أن المسيحية التي عاشوها ربما لا تكفي لكي يكونوا حاضرين. بدلا من ذلك: «إن الحداثة هي حضور هذا الحدث من

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٥.
(٢٨) A. Scola, *Il campo è il mondo*, Lettera pastorale, Centro Ambrosiano, Milano 2013, p. 40.

المودة الجديدة والبشرية الجديدة، هو وجود هذه البداية للعالم الجديد الذي نحن فيه. والجديد ليس هو الطليعي، بل ما تبقى من بني إسرائيل، ووحدة أولئك الذين يعتبر ما حدث لهم هو كل شيء، والذين ينتظرون فقط ظهور الوعد، وتحقيق ما هو داخل الحدث. وبالتالي، فالحداثة ليست مستقبلًا يجب اتباعه، فهو ليس مشروعًا ثقافيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا: الحداثة هي الحضور». نرى ذلك مشهودا عليه من جانب البابا فرانشيسكو كل يوم: لا يحتاج إلا إلى أن يضع نفسه - منزوع السلاح - أمام الجميع، «فأن تكون حاضرا لا يعني عدم التعبير عن نفسك: حتى الحضور هو شكل من أشكال التعبير»[٢٩]، لكنه شيء مختلف تمامًا عن الرجعية.

إن الفرق بين السعي وراء اليوتوبيا، ومشروعنا الخاص، وأن يكون وجودك حضورا، والانتقال إلى مكان نكون فيه بذرة جديدة، يتضح هذا الفرق في تنوع الطرائق التعبيرية: «اليوتوبيا لها طريقة تعبير تتمثل في الخطاب والمشروع والبحث المتلهف عن الأدوات والأشكال التنظيمية. أما الحضور فطريقة تعبيره هي الصداقة الفاعلة، والمبادرات التي لها سمات مختلفة التي تطرح كل شيء مستخدمة كل شيء (المناضد، الدراسة، محاولة إصلاح الجامعة، إلخ) ، والتي تظهر قبل جميع بوادر الإنسانية الحقيقية، أي البر. نحن لا نبني واقعًا جديدًا بالخطاب أو المشاريع التنظيميّة، لكنّنا نحيا بادرات إنسانيّة جديدة في الحاضر ». على كل منا أن يتأمل في هذا: كيف نطرح داخل كل شيء، حيثما نوجد، بادرات إنسانية حقيقية، أي

(٢٩) L. Giussani, *Dall'utopia alla presenza* (1975-1978), op. cit., pp. 65-66.

البر؟ ليس في هذا إذن «إلغاء للمسئولية»، لكنها طريقة مختلفة لإدراك المسئولية.

«لقد أشرت إلى ما يجب أن يحدث لكي نعمل بجهد أكبر، ونؤثر في الواقع أكثر، وبفرحة أعظم، وليس في كوارث تقسمنا وتفرقنا. إن المهمة التي تنتظرنا هي تعبير عن حضور واع وقادر على النقد والانتظام. هذه المهمة تنطوي على عمل. العمل هو وضع هويتنا في جوهر مادية الحياة. وهويتي، بما أنها تخترق مادية الحياة، أي بما أنها موجودة داخل الحالة الوجودية، تعمل وتجعلني أتفاعل(٣٠)».

كل هذه الأشياء قالها الأب جوساني عام ١٩٧٦. وفي التسعينات، أصر عليها من جديد وحاول الوصول إلى جذر القضية: «من فريق عام ١٩٧٦، الذي كان عنوانه من اليوتوبيا إلى الحضور، تم اتخاذ مسار يدفعنا الآن إلى اختراق ونشر كلمة الحضور: يجب علينا اختراقها ونشرها [...] لأن الحضور يكون في الشخص، فقط وحصريًّا في الشخص، فيك أنت [أي في المخلوق الجديد]. إن الحضور موضوع يتزامن مع الأنا الخاصة بك. والحضور يولد ويتكون في الشخص. [...] وما يعرّف الشخص على أنه فاعل وبطل الحضور هو وضوح الإيمان [الذي نراه بشكل جيد في البابا فرانشيسكو]، إنه وضوح الضمير الذي يسمى الإيمان، ووضوح الوعي الذي يطلق عليه بشكل طبيعي الذكاء، لأن الإيمان هو المظهر الأخير للذكاء، وهو الذكاء الذي يصل إلى أفقه النهائي، الذي يحدد مصيره، ويحدد مكونات كل

(٣٠) المرجع السابق صفحات ٦٦، ٦٩.

شيء، ويحدد حقيقة الأشياء، ويحدد مكان الحق والخير. ويحدد الحضور العظيم، هذا الحضور العظيم الذي يسمح بالمناورة بالأشياء وتبدلها، بحيث تصبح الأشياء جميلة، وتصبح الأمور صحيحة، وتصبح الأمور خيرة وينتظم كل شيء في سلام. الحضور هو كل ما هو جوهري في الشخص، يولد ويتكون في الشخص والشخص هو ذكاء الواقع حتى يلمس الأفق الأخير»[٣١].

يمكننا الآن أن نرى بوضوح أن السؤالين - «ماذا نفعل لكي نعيش؟» و«ماذا نفعل في هذا العالم؟» - يسيران معا. العامل الذي يوحدهم هو الشخص. يمكننا أن نخدع أنفسنا بأن المهم هو شيء آخر، عندما نملأ الحياة بالمبادرات لتجنب اعتناقنا المسيح. ولكن كم يكون الأمر مختلفا عندما تكون المبادرات هي التعبير عن هذا الاعتناق، وعن الانتماء إلى المسيح! «إن حضور المسيح، في الحياة الطبيعية، ينطوي على المزيد من نبض القلب: فالانفعال الوجداني بحضوره يصبح من انفعالات الحياة اليومية، التي تعطي الحياة طعما ومذاقا ونورا وجمالا. ليس هناك شيء غير مفيد، وليس هناك شيء غريب، لأنه ليس هناك شيء غريب في مصيرك، ولهذا لا يوجد شيء ليس بمقدورك أن تحبه [بدلا أن يكون ليس بوسعك أن تتحمله لابد أن يكون ليس بوسعك أن تحبه]، ومن حبك لكي شيء يتولد حبك للجميع، مع يترتب على ذلك من احترام للشيء الذي تفعله، والوفاء بعملك الملموس وإصرارك على بلوغ غايته،

(٣١) L. Giussani, *Un evento reale nella vita dell'uomo* (1990-1991), BUR, Milano 2013, pp. 142-143.

عندئذ تصبح أكثر مقاومة للتعب»[٣٢]. وكما يقول مقتطف من النبي أشعياء: «اَلْغِلْمَانُ يُعْيُونَ وَيَتْعَبُونَ، وَالْفِتْيَانُ يَتَعَثَّرُونَ تَعَثُّرًا. وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ»[٣٣].

سعادة متولدة

عندما يخترق حضور المسيح أعماق كياننا، فإنه يملأ الحياة بالسعادة. وفي نهاية المطاف يختلف المنظور: كم من الناس نعرف أنهم سعداء حقا؟ لأنه لا توليد ولا حضور ولا حداثة بدون السعادة. إنها السعادة التي تربط السؤالين «ماذا نفعل لكي نعيش؟» و «ماذا نفعل في هذا العالم؟»، لأنه بدون إجابة على السؤال الأول لا توجد إجابة على السؤال الثاني، وهذا يعني أنه بدون السعادة التي يمنحها حضور المسيح الذي يجعلنا نعيش، فلا يوجد حضور، ولا تتولد حداثة. إن السعادة هي حالة التولد والتوليدية.

متى نكون سعداء؟ ما الذي يجعلنا سعداء؟ «السعادة هي صدى الثقة في السعادة، ومصدرها الله، وتتشكل من اليقين ومن إرادة السير، ومن الوعي بالمسيرة التي ننجزها». ونحن نصبح سعداء لهذا اليقين من أننا أصبحنا نسير في الطريق الصحيح. «ومع مثل هذه السعادة يمكن

(٣٢) المرجع السابق صفحات ١٠٣-١٠٤.
(٣٣) اشعيا 31-40,30.

النظر إلى كل شيء بحب»، يؤكد جوساني على هذه الكلمات التي قالتها طالبة جامعية. ويضيف: «أن ننظر برقة إلى شخص غير رقيق يعني أنك تخلق شيئا جديدا في هذا العالم، تولد حدثا جديدا. السعادة هي الشرط اللازم للتوليد، والفرحة هي الشرط اللازم للخصوبة. وأن نكون سعداء هو الشرط اللازم لتوليد عالم مختلف، أي إنسانية مختلفة. ولدينا شخصية بهذا المعنى لابد أن تمثل لنا نقطة راحة وطمأنينة، وهي الأم تريزا من كلكتا. [...] كانت سعادتها توليدية، خصبة: فكانت لا تحرك إصبعا إلا إذا وراء ذلك تغيير شيء ما. لم تكن سعادتها تتركز في قهقهة اصطناعية، لا، لا، لا! لقد كانت يشملها حزن الأشياء بعمق، مثل وجه المسيح». إن الإنسان الواعي بذاته، وكذلك البشر من حوله، «لا يمكن إلا أن يشملهم الحزن بعمق». لكن الحزن لا يتناقض مع السعادة. الحزن هو «حالة عابرة، شرط من شروط المسيرة» يسمح «للنبض الصادر من الإله أن[...] يصل إلى هذا العالم [...] كنوع من الوضوح واليقين يرافق المسيرة». لذلك «حتى الألم لا يستطيع أن يسلبنا الفرح؛ [...] الفرح مثل زهرة الصبار، والتي تولد شيئا جميلا من نبتة مليئة بالأشواك»(٣٤).

(٣٤) L. Giussani, Un evento reale nella vita dell’uomo (1990-1991), BUR, Milano 2013, pp. 240-241.

المصادر

يطرح الكتاب العناصر الأساسية للتأملات التي قام بها خوليان كارون منذ عام ٢٠٠٥. الكتابات، التي ظهرت في مناسبات مختلفة، أعيدت صياغتها على نطاق واسع وترتيبها بواسطة المؤلف من أجل توفير وحدة عضوية بين مكونات المسار الذي قطعه.

الجزء الأول: السياق والتحديات

١. يتناول النص المحاضرة التي ألقيت في ٩ أبريل ٢٠١٤ في مؤتمر MiCo بقاعة المؤتمرات بميلانو، كجزء من اجتماع عام مخصص لموضوع أوروبا، بمناسبة الانتخابات لتجديد البرلمان الأوروبي «ظهر أول نسخة في TracceLitterae Communionis عدد ٥، مايو ٢٠١٤».

٢. الحقيقة والحرية: مثال نموذجي

يقوم النص بتطوير درس تم عقده في ٢٩ يوليو ٢٠١٤ في La Thuile (AO)، خلال التمارين الروحية لـ Memores Domini «نص غير منشور».

٣. في انهيار البراهين، جيل لإنسان

النص هو الدرس الذي تم عقده في ٥ نوفمبر ٢٠١٤، في Pacengo del Garda (VR)، في ختام التمارين الروحية السنوية لكهنة CL «ظهرت النسخة الأولى في Tracce-Litterae Communionis، ١١، ديسمبر ٢٠١٤».

٤. تحدي الحوار الحقيقي بعد هجمات باريس

ينقل النص نسخة من المقال المنشورة في صحيفة كوريير ديللا سيرا في ١٣ فبراير ٢٠١٥، بعد شهر من هجمات باريس في يناير.

الجزء الثاني: حدث للنهضة

٥. المسيحية في مواجهة تحديات الحاضر

يتناول النص ويطور المحاضرة الذي عُقدت في ١٩ نوفمبر ٢٠١٠، في مدريد، خلال مؤتمر حول «الكاثوليك والحياة العامة» الذي نظمته مؤسسة سان بابلو الجامعية CEU (نص غير منشور).

٦. الحس الديني، اختبار الإيمان

تم نشر النص في ٢٦ يناير ٢٠١١، في PalaSharp في ميلانو، بمناسبة تقديم كتاب لويجي جوساني «الحس الديني» «ظهرت النسخة الأولى في Tracce-Litterae Communionis، العدد ٢، فبراير ٢٠١١».

٧. «السر الأبدي لوجودنا»

يستنسخ النص جزئيا محتويات المحاضرة الأولى التي عقدت في ٣٠ أبريل ٢٠١١، في ريميني، خلال التمرينات الروحية السنوية لأخوية الشراكة والتحرر «المنشورة في ملحق Tracce-Litterae Communionis، رقم ٥، مايو ٢٠١١».

٨. توسيع العقل

يعيد النص صياغة محتوى محاضرتين تم عقدهما في ٢٦ أكتوبر و١٨ ديسمبر ٢٠٠٦، على التوالي في جامعة القلب المقدس الكاثوليكية بميلانو، بمناسبة نشر الطبعة العربية من «الحس الديني» للويجي جوساني «نشر في Allargare la ragione، الذي حرره أليساندرو غامبا، في Vita e Pensiero, Milano 2007, pp. 21-38، وهو ملحق ل Tracce-Litterae Communionis، رقم ١، يناير ٢٠٠٧»، وفي جامعة فلورنسا حول موضوع «الجامعة والتعليم» «نص غير منشور».

٩. الحرية هي أعظم النعم التي أنعمت بها السماء على البشر

يتناول النص المحاضرة التي ألقيت في ٢٢ أغسطس ٢٠٠٥، في ريميني، خلال الطبعة السادسة والعشرين للقاء «الصداقة بين الشعوب»، بعنوان الحرية هي أعظم النعم التي أنعمت بها السماء على البشر «ظهرت نسخة

أولية ملحقا ل Tracce-Litterae Communionis، No. 9، Special Meeting 2005».

الجزء الثالث: الطوارئ التعليمية

١٠. المدخل إلى الواقع الكلي

يعيد النص طرح محتويات الخطاب الذي تمت تلاوته في ١٢ مايو ٢٠١٤ في معرض تورينو للكتاب، بمناسبة تقديم كتاب خورخي ماريو بيرجوليو "الجمال سيعلم العالم" «ظهرت النسخة الأولى في المجلد الصغير: J.M. Bergoglio-Francesco، Beauty Will educate the world، EMI، Bologna 2014، pp. 49-63، ملحقا لمجلة Tracce-Litterae Communionis».

١١. «النقطة الملتهبة»

يعيد النص مضمون الخطاب الذي تم القاؤه في ٢٥ يناير ٢٠١٣ في سالا دي شارع سانت أنطونيو، بميلانو، خلال الاجتماع الذي رعاه ريزولي والمركز الثقافي في ميلانو بمناسبة تقديم كتاب أنطونيو بوليتو «ضد الآباء» «ظهرت النسخة الأولى كملاحظات على موقع CL، clonline.org، في فبراير ٢٠١٣».

١٢. التواصل مع النفس

يستنسخ النص محتويات درس تم عقده في ١٤ أكتوبر ٢٠٠٧ في ميلانو، لمجموعة من معلمي الشراكة والتحرر، كجزء من تجمع بعنوان: «فيتربو ١٩٧٧ ـ ميلانو ٢٠٠٧»: ثلاثون سنة من التواجد في المدرسة» «ظهرت النسخة الأولى في Tracce Quaderni ملحقا لـ Tracce-Litterae Communionis، العدد ١٠، نوفمبر ٢٠٠٧».

الجزء الرابع: بطل جديد للرواية على الساحة العالمية

١٣. «شعاع إلهي لفكري قد ظهر، جمالك يا سيدتي»

يتناول النص محتوى المحاضرة التي عُقدت في ٥ يوليو ٢٠٠٦، في فالنسيا، كجزء من الاجتماع العالمي الخامس للأسر مع بنديكت السادس عشر، حول «بث الإيمان في الأسرة» «ظهرت النسخة أولى في Tracce-Litterae Communionis، عدد ٩، أكتوبر ٢٠٠٦».

١٤. مع جرأة الواقعية

يتناول النص ويعيد العمل على المداخلة التي ألقيت في ٢٥ نوفمبر ٢٠١٢ بميلانو، بمناسبة انعقاد الجمعية الوطنية لـ Compagnia delle Opere «ظهرت النسخة الأولى في TracceLitterae Communionis، No. ١١، ديسمبر ٢٠١٢».

١٥. الأزمة، التحدي من أجل التغيير

يعيد النص صياغة محتوى محاضرتين تم عقدهما في ٤ و١٧ نوفمبر ٢٠١١، على التوالي في منتدى Mediolanum of Assago (MI) وفي Teatro Capranica بروما، بمناسبة اجتماع عام حول موضوع «الأزمة، التحدي من أجل التغيير» «نص غير منشور».

١٦. حتى في السياسة، الآخر هو الخير

يستنسخ النص المقال الذي نشر في صحيفة لا ريبوبليكا في ١٠ أبريل ٢٠١٣.

الخلاصة

كيف يولد الحضور؟

يشكل النص محتوى الدرس الذي تم عقده في ٢٨ سبتمبر ٢٠١٣، في منتدى Mediolanum of Assago (MI)، بمناسبة بدء السنة المالية لمؤسسة الشراكة والتحرر «ظهرت النسخة الأولى في Tracce-Litterae Communionis، عدد ٩، أكتوبر ٢٠١٣».

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

«أكثر الكتب التي قرأتها مؤخرًا طموحًا. يطرح كارون القضايا التي تفرق بين الدول والناس: من نحن؟ وما هي هويتنا؟ وما هي الهوية التي كنا نطمح إليها؟».

جاني ريوتا، صحيفة «لا ستامبا» الإيطالية

هي دعوة إلى الانفتاح على الآخرين، وعدم التشبث الجامد بمواقفنا الخاصة. دعوة إلى المسيحيين للدخول دون خوف في حوار واسع النطاق في الفضاء العام، والتحقق من قدرة الإيمان على الوقوف أمام التحديات الجديدة لواقعنا.

يطرِح كتاب «الجمال الأعزل» العناصر الأساسية للتأمل الذي قام به الأب جوليان كارون منذ انتخابه رئيسًا لجماعة الشراكة والتحرر. وتشكل كتاباته شهادة على معاني الحياة والعقيدة اليوم، وقد وُلدت من تعمقه في الطرح المسيحي الذي يسير على خطى الأب لويجي جوساني، في ضوء السلطة التعليمية البابوية ومواجهة العمل واحتياجات الإنسان المعاصرة. إنها مساهمة قيمة لأي شخص يبحث عن أسباب كافية للعيش وبناء مساحات من الحرية والتعايش في مجتمع تعددي.

جوليان كارون ولد عام ١٩٥٠م في ناباكونسيخو (إسبانيا). عُين قسًّا عام ١٩٧٥م، وكان محاضرًا في جامعة كومبلوتنس بمدريد، ودارسًا معتمَدًا رسميًّا بالمدرسة التوراتية بالقدس. واعتبارًا من عام ٢٠٠٤م، انتقل إلى ميلانو بناءً على دعوة من الأب جوساني؛ لكي يتقاسم معه مسئولية توجيه حركة الشراكة والتحرر. وفي عام ٢٠٠٥م، عينه مجلس الخدمة المركزي رئيسًا للجماعة. وهو أستاذ علم اللاهوت بالجامعة الكاثوليكية للقلب المقدس بميلانو.